نساء من الصّين

قصص وأسرار

شينران

دار الساقي

مكتبة 1657

لن ننسى غزة والشهداء

فهلا دعوة بظهر الغيب ؟

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

نساء من الصين

شينران

مكتبة | 1657

نساء من الصّين

قصص وأسرار

ترجمة

ميشلين حبيب

دار الساقي

مكتبة
t.me/soramnqraa

Xinran, *The Good Women of China*, London, 2002
Copyright © The Good Women of China Ltd, 2002

ISBN: 978-6-14425-796-8

الطبعة العربية

© دار الساقي، 2015
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، 2015

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت – ص.ب.: 113/5342.
الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: 866442-1-961+، فاكس: 866443-1-961+ – e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني: www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

إلى كل امرأة صينية...

وإلى ابني بان بان

المحتويات

تنويه ٨
مقدمة ٩
١. رحلتي نحو قصص النساء الصينيات ١١
٢. الفتاة التي احتفظت بذبابة كحيوان أليف ١٩
٣. الطالبة الجامعية ٤٧
٤. الزبّالة ٦٦
٥. الأمهات اللواتي قاسين من الزلزال ٨١
٦. معتقدات النساء الصينيات ١٠٤
٧. المرأة التي كانت تعشق النساء ١١١
٨. المرأة التي دبّرت الثورة زواجها ١٢٨
٩. والدتي ١٣٨
١٠. المرأة التي انتظرت خمسة وأربعين عاماً ١٤٨
١١. ابنة جنرال الكومينتانغ ١٧٢
١٢. الطفولة التي لا أستطيع نسيانها ١٩١
١٣. المرأة التي لا يعرفها والدها ٢٠٦
١٤. امرأة عصرية ٢٢٧
١٥. نساء "تل الصياح" ٢٥٠
الخاتمة ٢٦٥
كلمة شكر ٢٦٨

تنويه

القصص التي ستقرأونها هنا كلها حقيقية، لكن تمّ تغيير الأسماء بهدف حماية الأشخاص المعنيين.

في اللغة الصينية عندما تسبق كلمة "شياو" (Xiao) كنية الشخص فهي تعني "شاب أو شابة". أما عندما تسبق اسم الشخص فهي تدلّ على التصغير وتشير إلى أن المتكلم مقرّب من الشخص الذي يتحدث إليه.

شينران

مقدمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

عند الساعة التاسعة تماماً في الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٩٩، كنت في طريق العودة من تدريس صف مسائي في كلية جامعة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية. وبينما أنا خارجة من محطة قطار ستامفورد بروك ومتوجهة إلى الليل الخريفي الحالك، سمعت حركةً سريعة خلفي. لم يتسنَّ لي الوقت الكافي للقيام بأي رد فعل قبل أن أتلقّى ضربةً قوية على رأسي ثم أُدفَع على الأرض. لا شعورياً، أحكمتُ قبضتي على حقيبة يدي التي كانت تحتوي على النسخة الوحيدة من مخطوطة كنت قد انتهيت من كتابتها حديثاً. لكن ذلك لم يردع مهاجمي، وأخذ يصرخ مكرراً: "أعطني حقيبتك".

قاومت بقوة لم أكن أعلم أني أملكها. لم أستطع رؤية وجهه في العتمة. كنت مدركة فقط أنني أصارع يدين قويتين لكن غير مرئيتين. حاولت الدفاع عن نفسي وفي نفس الوقت أخذت أركل برجلي المكان الذي قدّرت أن أُربيّته[1] موجودة فيه، فراح يركلني بدوره وشعرت بألمٍ قوي في ظهري ورجلي وبطعم الدم المالح في فمي. أخذ المارة يركضون نحونا وهم يصرخون، وسرعان ما أصبح الرجل محاطاً بجمعٍ غاضب. وعندما تمكنت من الوقوف على رجلي بصعوبة تبيّنت أن طوله كان أكثر من ستة أقدام.

سألتني الشرطة لاحقاً عن سبب المخاطرة بحياتي من أجل حقيبة.

---

١ الأُربيّة: أصل الفخذ.

شرحتُ لهم وأنا أرتجف من الألم: "كانت تحتوي على كتابي".

هتف الشرطي قائلاً: "كتاب؟ وهل الكتاب أهم من حياتك؟".

لا شكّ أن الحياة أهم من كتاب. لكن من نواحٍ عديدة كان كتابي هو حياتي. إنه شهادتي عن حياة النساء الصينيات، ونتيجة سنوات من العمل كصحافية. أعلم أنني تصرفت بحماقة، فقد كان بإمكاني محاولة إعادة كتابة المخطوطة في حال فقدتها، لكنني لم أكن متأكدة من أنّ باستطاعتي أن أعرّض نفسي مجدداً لتلك المشاعر القوية جداً التي أثارتها كتابة الكتاب. إن تذكّر قصص النساء اللواتي التقيتهن من جديد كان مؤلماً، وكان من الصعب أكثر أن أرتّب ذكرياتي وأجد اللغة الملائمة للتعبير عنها. عندما صارعت من أجل الاحتفاظ بتلك الحقيبة، كنت أدافع عن مشاعري وعن مشاعر النساء الصينيات. كان الكتاب نتيجة أمور عديدة، إن فُقدت مرة، سيكون من المستحيل إيجادها مرةً أخرى. عندما نجول داخل ذكرياتنا فإننا نفتح بذلك باباً على الماضي، الطريق في داخله مليء بالأغصان وتختلف الدرب فيه كل مرة.

١

رحلتي نحو قصص النساء الصينيات

في صباحٍ باكر من ربيع عام ١٩٨٩، ركبت دراجتي الهوائية من ماركة Flying Pigeon ورحت أقودها عبر شوارع نانجينغ وأنا أحلم بابني بان بان. البراعم الخضراء على الأشجار، غيوم التنفس البارد التي تغلّف الدرّاجين الآخرين، أوشحة النساء الحريرية التي ينفخها هواء الربيع، كل شيء امتزج مع أفكاري عن ابني. كنت أقوم بتربيته لوحدي من دون مساعدة رجل، ولم يكن بالأمر السهل الاعتناء به كوني امرأةً عاملة. مهما كانت الرحلة التي أقوم بها، قصيرة أم طويلة، حتى خلال رحلتي السريعة إلى العمل على دراجتي الهوائية، كان يرافقني بروحه ويمدُّني بالشجاعة.

"انتبهي أين تقودين دراجتك أيتها المذيعة المهمة"، صاح أحد زملائي بينما كنت أدخل متمايلةً على دراجتي مجمّعَ محطة الإذاعة والتلفزيون حيث كنت أعمل.

كان يقف على البوابات رجلا شرطة مسلّحان. أريتهما بطاقة إذن الدخول الخاصة بي. في الداخل، كان علي أن أواجه حراس مسلحين آخرين عند مداخل المكاتب والاستديوهات. كانت حراسة محطة الإرسال مشددة جداً، وكان الموظفون يحترسون من الحراس. فقد كان الجميع يتناقلون قصةً عن جنديٍّ جديد غلبه النوم خلال نوبة الحراسة الليلية وكان متوتراً لدرجة أنه قتل رفيقه الذي أيقظه.

كان مكتبي في الطابق السادس عشر من المبنى البغيض الحديث والمؤلَّف من واحدٍ وعشرين طابقاً. كنت أفضّل صعود الدرج على المصعد الخطر الذي غالباً ما كان يتعطّل. عندما وصلت إلى طاولة مكتبي أدركت أنني تركت مفتاح دراجتي الهوائية في القفل، فأشفق علي أحد الزملاء وعرض أن ينزل ويتصل هاتفياً بحارس البوابة. لم يكن ذلك سهلاً جداً بما أنه في ذلك الحين لم يكن أي موظف صغير يملك هاتفاً، وكان على زميلي التوجه إلى قسم المكتب الرئيسي ليجري المكالمة. في النهاية، جاءني أحدهم بمفتاحي مع البريد الخاص بي. من بين كومة الرسائل الكبيرة لفتتني واحدة على الفور: كان المغلّف مصنوعاً من غلاف كتاب وكانت هناك ريشة دجاجة ملصقة عليه. وبحسب التقليد الصيني ريشة الدجاجة تعني نداءَ استغاثةٍ عاجلاً.

كانت الرسالة من فتى صغير أرسلها من قرية تبعد حوالى ١٥٠ ميلاً عن نانجينغ، وكانت تقول:

شينران الفائقة الاحترام،

أنا أستمع إلى كل برامجك. في الواقع، الجميع في قريتنا يحب الاستماع إليها. لكني لا أكتب إليك لأقول لك كم أن برنامجك جيد، بل أكتب إليك لأخبرك سرّاً.

هو ليس بسرٍّ حقاً لأن جميع من في القرية يعلم به. لقد قام أحد رجال القرية، وهو رجل مُقعد وعجوز في الستين من عمره، بشراء زوجة شابة مؤخراً. تبدو الفتاة صغيرة جداً - أعتقد أنه تم اختطافها. يحصل هذا الأمر كثيراً هنا، لكن الكثير من الفتيات يهربن فيما بعد. ولخشية الرجل العجوز أن تهرب زوجته فقد ربط حول خصرها سلسلة حديدية ضخمة. لقد تسببت السلسلة الثقيلة بجرح جلدها، وأخذ الدم يرشح من ثيابها. أعتقد أنها ستقتلها. أرجوك أنقذيها.

مهما فعلتِ لا تأتي على ذكر هذا على الهواء، فأهل القرية سيطردون عائلتي من القرية إن علموا بالأمر.

أتمنى أن يصبح برنامجك أفضل وأفضل.
مستمعك المخلص تسانغ شياوشوان

كانت هذه أكثر رسالة محزنة تلقّيتها منذ بدأت برنامجي الإذاعي المسائي، "كلمات على نسيم الليل"، قبل أربعة أشهر. ناقشتُ خلال البرنامج جوانب مختلفة من الحياة اليومية واستخدمتُ تجاربي الشخصية لكسب ثقة المستمعين واقتراح طرق لمواجهة صعوبات الحياة. "اسمي شينران"، قلت في بداية أول بثّ. "شينران" تعني "بحبور". كتب تسو تسيتشينغ في قصيدةٍ عن الربيع: "بحبور، فتحت الطبيعة عينيها على أشياء جديدة". كان البرنامج شيئاً جديداً بالنسبة للجميع ومن ضمنهم أنا. كنتُ قد بدأت حديثاً جداً عملي كمذيعة وكنت أحاول القيام بأمر لم يقم به أحد من قبل على الراديو.

منذ عام ١٩٤٩ كان الإعلام الناطق باسم الحزب. راديو الدولة، صحف الدولة، ولاحقاً تلفزيون الدولة، وكانت تؤمّن المعلومات الوحيدة التي يستطيع الشعب الصيني الحصول عليها، وكلها متشابهة. بدا التواصل مع أي أحد في الخارج بعيد المنال مثل قصةٍ خيالية. وعندما بدأ دنغ شياوبينغ العملية البطيئة لانفتاح الصين سنة ١٩٨٣، صار ممكناً للصحافيين، إن تمتعوا بالشجاعة، أن يحاولوا القيام بتغيير ذكي غير ملحوظ في طريقة تقديمهم الأخبار. كان ممكناً أيضاً التحدثُ عن مسائل شخصية في الإعلام، على الرغم من أنه كان أكثر خطورةً. في "كلمات على نسيم الليل" كنت أحاول أن أفتح نافذةً صغيرة، فتحةً صغيرةً جداً، كي يتمكن الناس من السماح لأرواحهم بالصراخ والتنفس بعد جوِّ الأربعين سنة الماضية المشحون بالبارود. قال الكاتب والفيلسوف الصيني لو شان مرّةً: "إن الشخص الذي تذوّق سلطعوناً للمرة الأولى لا بدّ أنه قد تذوق عنكبوتاً أيضاً، لكنه أدرك أنه لم يكن صالحاً للأكل". بينما كنت أنتظر رد فعل المستمعين على البرنامج كنت أتساءل إن كانوا سيعتبرونه سلطعوناً أم عنكبوتاً، لكن عدد الرسائل الحماسية الهائل الذي تكوّم على طاولة مكتبي أقنعني أنهم اعتبروه سلطعوناً.

كانت الرسالة التي تلقيتها من الفتى تسانغ شياوشوان أول طلب استغاثة لتقديم مساعدتي الفعلية، وقد أوقعني ذلك في اضطرابٍ وحيرة. نقلت الأمر إلى رئيس القسم وسألته عمّا يجب أن أفعله، فاقترح بلا مبالاة أن أتصل بمكتب الأمن العام المحلي، فاتصلت بهم وأخبرتهم قصة زانغ تسياوشوان.

طلب مني الشرطي عند الطرف الآخر أن أهدأ قائلاً: "هذا النوع من الأمور يحصل كثيراً. وإن قام الجميع برد فعل مماثل لرد فعلك فسيُتعبهم ذلك ويودي بهم إلى موتهم. على كل حال، هذه قضية خاسرة وميؤوس منها. لدينا عدد كبير من التقارير المكدّسة هنا، ومواردنا البشرية والمالية محدودة، ولو كنت مكانك لما تورطت في ذلك. أولئك القرويون لا يهابون أحداً أو شيئاً؛ وحتى لو ذهبنا إلى هناك فسيحرقون سياراتنا ويضربون رجالنا. سيذهبون إلى أبعد الحدود ليحرصوا على استمرارية نسلهم كي لا يرتكبوا خطيئةً في حقّ أسلافهم وذلك بعدم إنجاب وريث".

قلت: "إذاً، أنت تقول لي إنك لن تفعل شيئاً لإنقاذ هذه الفتاة؟".

"لم أقل أنني لن أفعل، لكن..."

"لكن ماذا؟"

"لكن لا داعي للاستعجال، يمكننا أن نعالج الأمر رويداً رويداً".

"لا يمكنك أن تترك أحداً يموت رويداً رويداً".

أجاب الشرطي بصوتٍ مخنوق: "لا عجب أنهم يقولون إن رجال الشرطة يكافحون النار وأن الصحافيين هم الذين يشعلونها. ماذا قلت اسمك مجدداً؟".

أجبته وأنا أشدّ على أسناني بغضب: "شين... ران".

"نعم، نعم، شينران، اسم جيد. حسناً شينران، تعالي إلى المركز، سأقوم بمساعدتك"، بدا وكأنه يقدّم لي خدمة وليس كأنه يقوم بواجبه.

ذهبتُ مباشرةً إلى مكتبه. كان شرطياً صينياً نموذجياً: قوي البنية، يقظ وماكر. قال: "في الريف، السموات قريبة والإمبراطور بعيد جداً". في رأيه، لا يملك

القانون أي سلطة هناك. كان الفلاحون يهابون فقط السلطات المحلية التي تتحكّم بتموين مبيدات الحشرات والأسمدة والبذور وأدوات الزراعة. كان الشرطي محقاً، ففي النهاية كان رئيس مخزن التموين الزراعي في القرية هو من تمكّن من إنقاذ الفتاة. فقد اصطحبني ثلاثة رجال شرطة إلى القرية في سيارة الشرطة، وعند وصولنا اضطُر رئيس القرية لشقّ طريق لنا بين القرويين الذين كانوا يلوّحون بقبضاتهم ويشتموننا. كانت الفتاة في الثانية عشرة من عمرها فقط. خلّصناها من الرجل العجوز الذي بكى وشتم بمرارة. لم أجرؤ على السؤال عن الفتى الذي راسلني، أردت أن أشكره، لكن الشرطي قال لي إن علم أهل القرية بما فعل فمن الممكن أن يقتلوه ويقتلوا عائلته.

عندما شهدتُ بنفسي قوة الفلاحين بدأتُ أفهم كيف تمكّن ماو بمساعدتهم من هزم تشانغ كاي شيك وأسلحته البريطانية والأميركية.

أُعيدت الفتاة إلى عائلتها في شينينغ - تستغرق الرحلة إليها من نانجينغ اثنتين وعشرين ساعة في القطار - يرافقها شرطي وشخص من محطة الإذاعة. تبيّن أن والديها وقعا في دين يقارب ١٠،٠٠٠ يوان في محاولة البحث عنها.

لم أتلقَّ أي مديح على إنقاذي هذه الفتاة وإنما الانتقاد فقط، وذلك لتسبّبي "بتحريك الجنود وإثارة الشعب" وإضاعة وقت ومال محطة الإذاعة. هزّني ذلك التذمر. كانت حياة فتاة في خطر ومع ذلك فقد رأوا أن إنقاذها كان "مرهقاً للشعب ومستنزفاً للخزينة"... ما قيمة حياة المرأة في الصين؟

بدأ هذا السؤال يطاردني. معظم الأشخاص الذين كانوا يراسلونني على محطة الإذاعة كانوا من النساء، وغالباً كانت رسائلهن من دون اسم أو موقّعة باسم مستعار. وقد صدمني الكثير ممّا قالوه. فقد كنت أعتقد أنني أعرف وأفهم النساء الصينيات، ولكني أدركت، بعد قراءة رسائلهنّ، كم كان اعتقادي خاطئاً. كانت مواطناتي النساء يعشن حياةً ويصارعن مشكلاتٍ لم أتخيّلها قط.

كانت أكثر الأسئلة التي أرسلوها إليّ تتعلق بأمورهنّ الجنسية. فقد أرادت

إحدى النساء معرفة سبب تسارع دقات قلبها عندما تصطدم برجل مصادفةً في الحافلة، وسألت أخرى لماذا تصبّبت عرقاً فجأةً عندما لمس رجلٌ يدها... فقد كانت مناقشة الأمور الجنسية محظورةً لفترةٍ طويلة، وكان أي اتصال جسدي بين امرأة ورجل غير متزوجَيْن يؤدي إلى إدانةٍ علنية - الاضطهاد - أو حتى السجن. حتى بين الزوجين، كان حديثهما الحميم في السرير يُعتبر دليلاً على تصرّفٍ منحرف وجُرمي، وغالباً ما كان الناس خلال المشاجرات العائلية يقومون بتهديد الشريك الآخر بتبليغ الشرطة عنهم لانغماسهم في حديثٍ كهذا. ولذلك كبر جيلان من الصينين من دون إدراكٍ واعٍ لغرائزهم الطبيعية. أنا شخصياً كنت فيما مضى جاهلة لدرجة أنني في سن الثانية والعشرين كنت أرفض أن أمسك بيد أستاذ في حفلة إشعال نار في الهواء الطلق مخافة أن أغدو حبلى. وقد أتى مفهومي للحَمْل من سطر في كتاب يقول: أمسكا يدي بعضهما تحت ضوء القمر... وفي الربيع أنجبا ابناً قوياً معافى". وجدتني أرغب في معرفة المزيد عن حياة النساء الصينيات الحميمة وقررت القيام بأبحاث حول خلفياتهن الثقافية المختلفة.

كان تشين العجوز أول شخص أخبرته عن مشروعي. وكان قد مضى على وجوده في حقل الصحافة فترة طويلة جداً وكان يحظى باحترامٍ كبير. بل قيل إن مُحافظ مدينة نانجينغ نفسه كان يأتي لاستشارته. غالباً ما كنت أستشيره في ما يخصّ عملي، من باب الاحترام لأقدميته، وأيضاً للاستفادة من خبرته الواسعة. لكني فوجئت هذه المرة بردّ فعله. فقد هزّ رأسه، الذي كان أصلع لدرجة يصعب معها معرفة أين تنتهي فروة رأسه وأين يبدأ وجهه، وقال: "ساذجة!".

صُعقت. يعتبر الصينيون الصلع دليلاً من دلائل الحكمة، فهل كنتُ على خطأ؟ لماذا اعتبر السعي إلى فهم النساء الصينيات تصرفاً ساذجاً؟

أخبرت صديقاً يعمل في الجامعة عن تحذير تشين العجوز.

قال: "شينران، هل سبق أن زرت مصنعاً للكعك الإسفنجي؟".

أجبته محتارةً: "لا".

"حسناً، أما أنا فبلى. لذلك أنا لا آكل الكعك الإسفنجي أبداً"، ثم اقترح علي القيام بزيارة مخبز كي أفهم ما عناه بقوله ذاك.

أنا بطبيعتي غير صبورة، لذلك في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي توجّهتُ إلى مخبزٍ صغير لكن ذو سمعة جيدة. لم أعلن عن زيارتي مسبقاً لكنني لم أتوقع مواجهة أي صعوبة. في الصين يطلقون على الصحافيين لقب "ملوك بلا تيجان"، فهم يملكون حق الدخول إلى أي مؤسسة في البلاد تقريباً.

لم يكن مدير المخبز يعلم سبب زيارتي لكنه كان متأثراً بتفانيّي في عملي، وقال إنه لم يرَ قط صحفياً يعمل في هذه الساعة الباكرة من أجل الحصول على مادة لموضوعه. لم يكن الفجر قد انبلج كلياً بعد؛ وعلى ضوء مصابيح المصنع الخافتة كانت هناك ست أو سبع عاملات يقمن بكسر البيض في وعاء مجوّف ضخم. كنّ يتثاءبن ويسعلن بصوتٍ مروّع. جعلني صوت البصق المتقطّع أشعر بالانزعاج. كان وجه واحدة من النساء مغطّى بصفار البيض، على الأرجح بسبب مسح أنفها وليس بسبب مسحوق غير معروف للعناية بالجمال. راقبت عاملين يضيفان الطحين واللون إلى عجينة رقيقة من الطحين حُضِّرت في اليوم السابق. أُضيف البيض إلى الخليط ثم سُكب في صفائح على حزامٍ ناقل. وعندما خرجت الصفائح من الفرن قامت عشرات العاملات بتوضيب الكعكات في علب. كانت هناك فُتات عند زوايا أفواههن.

عند مغادرتي المصنع تذكّرت شيئاً قاله لي أحد الزملاء الصحافيين مرةً: "إن أقذر الأمكنة في العالم ليست المراحيض ولا مياه المجاري، بل أطعمة المصانع ومطابخ المطاعم". قررت ألاّ آكل الكعك الإسفنجي مجدداً أبداً، لكني لم أتمكن من فهم علاقة ما رأيته بمسألة فهم النساء.

اتصلت هاتفياً بصديقي، الذي شعر بخيبة أمل لعدم فهمي الأمر.

"لقد شاهدتِ ما تمر به تلك الكعكات الجميلة الطريّة لتصبح ما هي عليه. لو رأيتها في المحل لما حزرت ذلك أبداً. ورغم أنك ربما تنجحين في وصف مدى

سوء إدارة المصنع وكيف أنه يخالف القواعد الصحية، لكن هل تعتقدين أن ذلك سيجعل الناس يتوقفون عن الرغبة في شراء كعكة إسفنجية؟ الأمر مماثل مع النساء الصينيات. حتى لو تمكنت من الدخول إلى بيوتهن وذكرياتهن، هل ستتمكنين من الحكم على أو تغيير القوانين التي يعشن حياتهن بموجبها؟ إضافةً إلى ذلك، كم من النساء ستكون لديهن الرغبة في التخلي عن احترامهن لذواتهن والتكلم معك؟ آسف، لكني أظن أن زميلك رجلٌ حكيم فعلاً".

٢

الفتاة التي احتفظت بذبابة كحيوان أليف

كان العجوز تشين وصديقي في الجامعة مُحقِّين بشأن أمرٍ واحدٍ مؤكّد: سيكون من الصعب جداً إيجاد نساء مستعدّات للتكلم معي بحرية. فبالنسبة للنساء الصينيات، الجسد العاري هو موضوع عار وليس جمال. يُبقينه مغطّى. الطلب من النساء السماح لي بإجراء مقابلات معهن سيكون بمثابة طلبي منهن خلع ملابسهن. أدركتُ أنّ علي إيجاد طرق أكثر فطنةً تمكّنني من اكتشاف حياتهنّ.

شكّلت الرسائل المليئة بالشوق والأمل التي تلقيتها من مستمعيّي نقطة انطلاقي. سألت مديري إن كان باستطاعتي إضافة جزء خاص في نهاية برنامجي هو عبارة عن صندوق بريد مخصّص للنساء يمكنني أن أناقش، أو ربما أقرأ على الهواء، بعضاً من الرسائل التي أتلقّاها. لم يعارض الفكرة: هو بدوره أراد معرفة وفهم طريقة تفكير النساء الصينيات ليتمكن من التعامل بطريقة صحيحة مع علاقته المتوترة بزوجته. لكنه لم يكن مخوّلاً بمنحي الإذن بنفسه، وكان يجب أن أتقدم بطلب إلى المكتب المركزي. كنت معتادة جداً على هذا الإجراء: مراتب المسؤولين في محطتنا الإذاعية مجرد ألقاب معظّمة فارغة لأشخاص يتلقّون أوامرهم من أعلى ولا يتمتّعون بأية سلطة تنفيذية حقيقية. كانت الكلمة الأخيرة للجهة المنسّقة العليا.

بعد ستة أسابيع أُعيدت الاستمارة إلي مكلّلةً بأربعة أختام حمراء تشير إلى

الموافقة الرسمية، لكنهم قاموا بتخفيض الوقت الذي اقترحت منحه لهذا الجزء إلى عشر دقائق، ورغم ذلك شعرتُ أن المَنّ نزل من السماء.

تخطّى وقع فترة العشر دقائق المخصصة للبريد الوارد من النساء كل توقعاتي: ارتفع عدد رسائل المستمعين بشكل كبير لدرجة أنني كنت أتلقى أكثر من مئة رسالة في اليوم؛ مما اضطرني للاستعانة بستة طلاب جامعيين. وكان موضوع الرسائل يتنوّع أيضاً. كانت القصص التي ترويها لي المستمعات قد حصلت في كل أنحاء البلاد وفي أوقات مختلفة خلال السنوات السبعين الأخيرة تقريباً، وقد روتها نساء من مختلف الخلفيات الثقافية والاجتماعية والمهنية؛ وكشفت عن عوالم كانت مخفية عن أغلبية الشعب بمن فيهم أنا شخصياً. وقد تأثرت كثيراً بتلك الرسائل، حيث تضمّن الكثير منها لمسة شخصية مثل أزهار جافة مضغوطة، أوراق شجر أو لحاء، وتذكارات من الكروشيه المحاكة باليد.

في عصر أحد الأيام، عدت إلى مكتبي لأجد طرداً ورسالة قصيرة من الحارس على طاولة مكتبي. يبدو أن سيدة في الأربعين من العمر تقريباً سلّمت الحارسَ الطردَ وطلبت منه أن يعطيني إياه؛ دون أن تترك اسماً أو عنواناً. نصحني عدة زملاء بتسليم الطرد إلى قسم الأمن للتحقق منه قبل فتحه، لكني رفضت. شعرت أنْ لا يمكن انتقاد القدر، وحثّني دافع قوي على فتح الطرد على الفور. كان يحتوي على علبة أحذية قديمة، مع رسم جميل على الغطاء لذبابة شبيهة بالإنسان؛ ألوانها قد بهتت تماماً تقريباً. وكانت هناك جملة مكتوبة إلى جانب فم الذبابة تقول: "من دون الربيع لا يمكن للأزهار أن تتفتح؛ من دون المالك هذه لا يمكن أن تُفتح". كما كان هناك قفل صغير مركّب على الغطاء بطريقة ذكية.

تردّدت: هل يجب أن أفتحها؟ ثم لاحظت وجود ملاحظة صغيرة من الواضح أنها أُلصقت هناك حديثاً تقول: "شينران، أرجوكِ افتحيها".

كانت العلبة مليئة بقصاصات ورق صفراء وباهتة. لم تكن ذات حجم أو لون أو شكل موحّد لكنها كانت مغطاة بالكتابات: معظمها قصاصات ورق من النوع

الذي يستعمل في سجلات المستشفيات. بدت كأنها دفتر يوميات. كانت معها أيضاً رسالة تسليم سميكة موجّهة إلى يان يولونغ في فريق الإنتاج X، في مقاطعة شاندونغ، وكانت من شخص يدعى هونغ شو، والتي أعطت عنوان مستشفى في مقاطعة هينان كعنوان لها. كانت الرسالة مؤرخة في ٢٤ آب/أغسطس ١٩٧٥. وكانت مفتوحة وكُتبت في أعلاها الكلمات التالية: "شينران، أسألك باحترام أن تقرأي كل كلمة مكتوبة هنا. مستمعة مخلصة".

بما أنني لم أكن أملك الوقت الكافي لأقرأ قصاصات الورق قبل بدء البث، فقد قررت قراءة الرسالة أولاً:

عزيزتي يولانغ،

هل أنت بخير؟ أعتذر عن عدم مراسلتك قبل الآن. ليس هناك سبب محدّد لذلك، كل ما في الأمر أنني أودّ إخبارك بالكثير الكثير ولا أعرف من أين أبدأ. أرجوك سامحيني.

لقد فات الأوان لطلب السماح منك على غلطتي الفظيعة التي لا يمكن تغييرها، لكني ما زلت أريد أن أقول لك إني متأسفة!

لقد طرحتِ عليّ سؤالين في رسالتك: "لماذا لا تودّين رؤيتك والدك؟ وما الذي جعلك تفكرين برسم ذبابة، ولماذا جعلتها جميلة جداً؟".

عزيزتي يولانغ، هذان السؤالان كلاهما مؤلم جداً جداً بالنسبة إلي، لكني سأحاول الإجابة عنهما.

أية فتاة لا تحب والدها؟ الأب شجرة كبيرة تظلّل العائلة، هو الدعامة التي تسند البيت، هو المدافع عن زوجته وأولاده. لكني لا أحب والدي - أنا أكرهه.

في يوم رأس السنة الجديدة، التي بلغت فيها سن الحادية عشر، نهضتُ من سريري في الصباح الباكر لأجد نفسي أنزف بصورة لا يمكن تفسيرها. ذُعرت لدرجة أني انفجرت بالبكاء. والدتي، التي أتت عندما سمعتني، قالت: "لقد كبرت يا هونغ شو!". لم يخبرني أحد من قبل - لا أحد، حتى أمي - عن أمور النساء. في المدرسة لم

يتجرأ أحد على طرح أسئلة مشينة كهذه. ذلك اليوم، أعطتني أمي بعض النصائح الأساسية عن كيفية التعامل مع النزيف، لكنها لم تشرح لي أي شيء آخر. كنتُ متحمّسة: لقد أصبحت امرأة! رحت أركض في الفناء وأقفز وأرقص لمدة ثلاث ساعات، حتى أني نسيت وقت الغداء.

في أحد أيام شهر شباط/ فبراير، كان الثلج يتساقط بكثافة وكانت أمي في زيارة لصديقة لها. عاد أبي من القاعدة العسكرية في إحدى زياراته النادرة إلى المنزل. قال لي: "تقول أمك إنك كبرت. تعالي، اخلعي ثيابك ليرى أبوك إن كان ذلك صحيحاً".

لم أعرف ماذا أراد أن يرى، وكان البرد شديداً - لم أشأ خلع ثيابي.

قال: "هيا بسرعة، بابا سيساعدك"، وقام بنزع ملابسي بسرعة ورشاقة. كان مختلفاً تماماً عن بلادته المعتادة. دلّك جسمي كله بيديه وكان يسألني طوال الوقت وهو يفعل ذلك: "هل تلك الحلمات الصغيرة منتفخة؟ هل هذا هو المكان الذي يخرج منه الدم؟ هل تريد تلك الشفتان تقبيل بابا؟ هل تشعرين بإحساس جميل عندما يدَلِّك بابا جسدك هكذا؟".

شعرتُ بخجلٍ وذلٍّ عظيمَيْن. لا أذكر أني تعرّيت أمام أحد من قبل أبداً إلا في الحمامات العامة. لاحظ والدي أنني أرتجف فطلب مني ألاّ أخاف وحذّرني من إخبار أمي قائلاً: "لم تحبك والدتك قط. وإن علمت أنني أحبك بهذا القدر فستهملك كلياً".

كانت تلك أول خبرة لي كامرأة. شعرت بعدها بالغثيان الشديد.

منذ ذلك الحين، عندما لا تكون والدتي موجودة في الغرفة، حتى لو كانت تطبخ في المطبخ أو تستخدم الحمام، كان والدي يحشرني في الزاوية خلف الباب ويدلّك جسمي كله بيديه. صرتُ أخاف ذلك الحب أكثر فأكثر.

بعد ذلك نُقل والدي إلى قاعدة عسكرية جديدة، ولم تتمكن والدتي من الانضمام إليه بسبب عملها. قالت إنها أنهكت نفسها في تربيتنا أنا وأخي، وأرادت

أن يقوم أبي بواجبه ويتحمل مسؤولياته لبعض الوقت. وهكذا ذهبنا أنا وأخي للعيش مع أبي.

لقد وقعت في عرين الذئب.

في منتصف كل يوم، منذ أن رحلت فيه أمي، كان والدي يصعد إلى سريري خلال وقت استراحتي. كان لكلٍّ منا غرفة في مهجع جماعي وكان يستعمل حجة أن أخي لا يحب أخذ قيلولة في منتصف النهار ليحبسه في الخارج.

في الأيام الأولى كان يدلّك جسمي بيديه فقط، وبعد ذلك بدأ يقحم لسانه في فمي، ثم بدأ يدفعني بواسطة ذلك الشيء القاسي عند أسفل جسمه. كان يتسلل إلى سريري غير مهتم إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً، فيباعد ما بين ساقي بيديه ثم يعاملني بطريقة مسيئة وسيئة. حتى أنه وضع أصابعه في داخلي.

كان الآن قد توقف عن الادّعاء بأن ذلك هو "حب الأب"، وهددني قائلاً إن قمت بإخبار أحد فسأضّطر إلى تحمّل انتقادات الناس وأنهم سيضعون القشّ على رأسي ويجرّونني في الشوارع ليتفرّج الجميع عليّ لأنني كنت قد أصبحت ما يدعونه بـ"الحذاء المكسور".

جعله جسدي المتنامي بسرعة أكثر تهيّجاً يوماً بعد يوم، لكنني كنت أزداد رعباً. وضعتُ قفلاً على باب غرفة النوم، لكنه كان يظلّ يضرب الباب بعنف إلى أن أفتحه ولم يكن يهتم إن استيقظ جميع الجيران بسبب الضجيج الذي يحدثه. كان أحياناً يخدع الآخرين في المهجع ويحملهم على مساعدته في خلع الباب، أو يقول لهم إنه اضطر إلى الدخول عبر النافذة ليحضر غرضاً لأني كنتُ مستغرقة في نومٍ عميق. أحياناً كان أخي يساعده دون أن يدرك ماذا كان يفعل. لذلك، وبغضّ النظر إن أنا أقفلت الباب أو لم أقفله، كان يدخل غرفتي على مرأى من الجميع.

في كثير من الأحيان، عندما كنتُ أسمع الطرق على الباب كان الخوف يشلّني فأتكوّم تحت الغطاء وأنا أرتجف. وكان الجيران يقولون لي: "كنت نائمة مثل الميت لذلك اضطر والدك إلى الدخول عبر النافذة ليجلب أغراضه، المسكين!".

لم أكن أجرؤ على النوم في غرفتي أو أن أبقى فيها وحدي أبداً. وقد لاحظ والدي أنني كنتُ أجد المزيد والمزيد من الأعذار حتى أخرج من البيت فوضع قانوناً يقضي بأن أعود إلى البيت في وقت الغداء من كل يوم. لكنني كنتُ غالباً ما أنهار حتى قبل أن أنهي طعامي: كان يضع أقراصاً منوّمة في طعامي. لم تكن هناك أي طريقة أستطيع أن أحمي بها نفسي.

فكّرت في الانتحار مرات عديدة، لكني لم أجد الشجاعة لترك أخي الصغير الذي ليس لديه أحد يلجأ إليه. بدأت أهزُل أكثر فأكثر إلى أن مرضت بشدة.

في المرة الأولى التي أُدخلتُ فيها المستشفى العسكري أخبرَتْ الممرضة المناوبة الطبيب المختص دكتور تشونغ أن نومي كان متقطّعاً جداً، وأنني كنت أرتجف عند سماع أقل ضجة. فقال الدكتور تشونغ، الذي لم يكن يعلم الوقائع، إن ذلك سببه حرارتي المرتفعة.

ومع ذلك، حتى عندما أكون مريضة إلى حدّ الخطورة على حياتي، كان والدي يأتي إلى المستشفى ليستغلّني عندما أكون موصولة بأنابيب المصل ولا أستطيع التحرك. في إحدى المرّات، حينما رأيته قادماً أخذتُ أصرخ بطريقة هستيرية، لكن والدي قال للممرضة المناوبة، التي أتت مسرعةً، إني أملك طبعاً شرساً. في المرة الأولى أمضيت أسبوعين فقط في المستشفى. وعندما عدتُ إلى المنزل وجدتُ كدمة على رأس أخي وبقع دم على معطفه الصغير. أخبرني أنّ بابا في مزاج سيء جداً بينما كنت في المستشفى، وأنه كان يضربه بسبب أبسط الهفوات. في ذلك اليوم شدّ الوحش المريض، الذي هو والدي جسدي - الذي كان لا يزال ضعيفاً وواهناً -، نحوه بجنون وهمس لي قائلاً إنه افتقدني لحدّ الموت!

لم أستطع التوقف عن البكاء. هل كان هذا والدي؟ هل أنجب أولاداً كي يشبع شهواته الحيوانية فقط؟ لماذا منحني الحياة؟

تجربتي في المستشفى كشفت لي طريقة تمكنني من الاستمرار في العيش. بالنسبة إلي، الحقن والأقراص وفحوصات الدم كانت كلها أفضل من العيش مع

والدي، فبدأتُ بإيذاء نفسي مراراً وتكراراً. فكنتُ أنقع نفسي بالماء البارد في الشتاء ثم أقف في الخارج في الثلج والصقيع؛ وفي الخريف كنتُ أتناول طعاماً فاسداً؛ ومرةً، لشدّة يأسي، مددتُ يدي لألتقط قطعة معدن وهويت بها على يدي اليسرى كي أقطعها من عند المعصم (لو لم تكن هناك قطعة من الخشب الناعم تحتها لكنتُ فقدتُ يدي دون شك). تلك الليلة كسبتُ ستين ليلة من الأمان. بين إصابة نفسي بالأذى وتناول الأدوية فقدتُ الكثير من الوزن وأصبحتُ نحيلةً جداً.

بعد أكثر من سنتين تمّ نقل مكان عمل والدتي وأتت لتعيش معنا. لم يؤثر وصولها في رغبة والدي الفاسقة بي. قال إن جسد والدتي بات عجوزاً ويابساً وإنني كنتُ خليلته. لم يبدُ أن والدتي تعرف شيئاً عن الوضع إلى أن جاء يوم من شهر شباط/فبراير الماضي عندما كان والدي يضربني لأني لم أحضر له شيئاً أراده. ممزقةً بين الأسى والحنق، صرختُ في وجهه لأول مرة في حياتي: "أنت ماذا؟ تضرب أي أحد كما يحلو لك وتستغلّ أي أحد كما ترغب!".

سألتني والدتي، التي كانت واقفة جانباً تشاهد، ماذا عنيتُ بذلك. وما إن فتحتُ فمي قال لي والدي وهو يحدّق فيّ بشراسة: "إياك والتفوّه بالتفاهات!".

كنت قد تحملتُ أكثر مما يمكنني تحمّله، لذلك أخبرت والدتي بالحقيقة. كان واضحاً لي أنها كانت حزينة ومستاءة جداً، لكن والدتي "المنطقية" قالت لي بعد بضع ساعات: "من أجل أمان العائلة كلها يجب أن تتحملي ذلك، وإلاّ ماذا سنفعل جميعاً؟".

تحطّمت آمالي كلها. كانت والدتي تقنعني بأن أتحمل استغلال والدي (زوجها) لي - أين العدالة في ذلك؟

تلك الليلة بلغت درجة حرارتي الأربعين. أُدخلتُ المستشفى مرةً أخرى، ومازلت فيها حتى الآن. هذه المرة لم أضطر إلى القيام بأي شيء لأدّعي المرض، فقد انهرت بكل بساطة لأن قلبي كان قد انهار. ليست لدي أي نية الآن بالعودة إلى ذلك المكان المدعو: بيت!

عزيزتي يولونغ، لهذا السبب لا أريد أن أرى والدي. أي نوع من الآباء هو؟ أنا ألزم الصمت من أجل أخي الصغير ووالدتي (بالرغم من أنها لا تحبني)؛ فهم لا يزالون عائلة كما في السابق، لكن من دوني.

لماذا رسمتُ ذبابة، ولماذا جعلتها تبدو جميلة بهذا الشكل؟

لأني أتوق لأن يكون لي والد ووالدة حقيقيان: عائلة حقيقية حيث يمكنني أن أكون طفلة وأبكي بين ذراعي والدَيّ؛ حيث يمكنني أن أنام بأمان في سريري في المنزل؛ حيث تربت يدان محبتان على رأسي لتواسيني بعد حلمٍ مزعج. فأنا لم أشعر قط بهذا الحب منذ طفولتي المبكرة. وكنتُ في توقٍ إليه وأتمنّى الحصول عليه، لكنني لم أحصل عليه قط، ولن أحصل عليه أبداً الآن، لأن الإنسان ليس له سوى أم واحدة وأب واحد.

ذبابة عزيزة صغيرة أظهرت لي لمسة اليدين المحبتين.

عزيزتي يولونغ، لا أعلم ماذا سافعل بعد ذلك. قد آتي لأفتش عنك وأساعدك بطريقةٍ ما. يمكنني القيام بأمور كثيرة ولا أخاف المشقة طالما أستطيع النوم بسلام. هل تمانعين مجيئي؟ أرجوك اكتبي إلي وأخبريني.

أودّ أن أعرف حقاً عن أحوالك. هل ما زلتِ تمارسين لغتك الروسية؟ هل لديك أي أدوية؟ سيأتي الشتاء مجدداً، يجب أن تعتني بنفسك جيداً.

آمل أن تمنحيني فرصة لأعوض عليك وأقوم بشيء من أجلك. ليست لدي عائلة، لكني آمل أن أكون أختاً صغرى لك.

أتمنى لك السعادة والصحة الجيدة!

أفتقدك.

هونغ شو، ٢٣ آب/أغسطس، ١٩٧٥

تأثرتُ كثيراً بهذه الرسالة ووجدتُ صعوبة في السيطرة على نفسي خلال ذلك البثّ المسائي. لاحقاً، راسلني العديد من المستمعين ليسألوا إن كنتُ مريضة.

بعد أن انتهيت من برنامجي اتصلتُ بصديقة لأسألها إن كان بمقدورها الذهاب

إلى منزلي للاطمئنان على ابني ومربيته، ثم جلستُ في المكتب الخالي ووضعت قصاصات الورق بالترتيب، وهكذا قرأتُ يوميات هونغ شو:

٢٧ شباط/فبراير - ثلوج كثيفة

كم أنا سعيدة اليوم! لقد تحققت أمنيتي مجدداً: عدتُ إلى المستشفى. لم يكن الأمر صعباً جداً هذه المرة، لكن الألم الشديد بدأ منذ الآن!

لا أريد أن أفكر بعد الآن. "من أنا؟ ما أنا؟" هذه الأسئلة عديمة الجدوى مثل كل شيء متعلق بي: دماغي، شبابي، فطنتي وأصابعي الخدرة. كل ما أريد عمله الآن هو أن أنام نوماً هادئاً وطويلاً.

أتمنى أن يكون الأطباء والممرضات متهاونين قليلاً وأن لا يتفقدوا العنابر بجدّ خلال جولتهم هذا المساء.

الغرفة في المستشفى دافئة جداً ومريحة للكتابة.

٢ أذار - مشمس

ذابت الثلوج بسرعة. صباح أمس كانت الأرض لا تزال موشّحةً بالأبيض؛ اليوم عندما ركضتُ إلى الخارج كان البياض القليل المتبقي قد تحوّل إلى صَفارٍ قذر، ملطّخ مثل أصابع زميلتي المريضة الأم، وانغ العجوز التي تدخّن مثل مدخنة.

أحب عندما تتساقط الثلوج بكثرة. تكون الأماكن كلها بيضاء ونظيفة؛ ترسم الريح أشكالاً على سطح الثلج وتتنقّل العصافير تاركةً أثاراً دقيقة، والناس أيضاً، عن غير قصد، يتركون علامات جميلة. البارحة تسلّلتُ إلى الخارج عدة مرات. أنّبني الدكتور ليو وكذلك الممرضة: "لا بدّ أنك مجنونة لتذهبي إلى الخارج وحرارتك مرتفعة بهذا الشكل! هل تحاولين الانتحار؟" لا يزعجني ما يقولونه لي. قد تكون ألسنتهم حادّة، لكني أعلم أن قلوبهم رقيقة.

من المؤسف أنني لا أملك آلة تصوير. سيكون من الرائع التقاط صورة للمنظر الطبيعي المتشّح بالبياض.

١٧ نيسان/ أبريل – مشمس (رياح فيما بعد؟)

هناك مريضة هنا اسمها يولونغ: مرض الروماتيزم المزمن يجعلها تدخل المستشفى مرات عدة خلال السنة. تتعاطف الممرضة غاو معها وتستهجن الأمر طوال الوقت متسائلةً كيف لفتاة جميلة وذكية مثلها أن تُصاب بمرضٍ مزعج مثل هذا.

تعاملني يولونغ كأنني شقيقتها الصغرى العزيزة. عندما تكون هنا تبقى بصحبتي في الباحة عندما أكون قادرة على الخروج من غرفتي (لا يُسمح للمرضى بزيارة العنابر الأخرى. يخافون أن نعدي بعضنا بعضاً أو أن نؤثر في العلاج). نلعب الكرة الطائرة أو الشطرنج أو كرة الطاولة ونتحدّث. لا تتركني أشعر بالوحدة. عندما يكون لديها شيء لذيذ للأكل أو لعبة جميلة فإنها تتشاطرها معي.

السبب الآخر الذي يجعلني أحب يولونغ هو جمالها. منذ زمنٍ بعيد سمعتُ أحدهم يقول إن الأصدقاء يصبحون متشابهين بعد فترة من الوقت. لو أمكنني الحصول على نصف جمال يولونغ سيكون ذلك كافياً جداً. لست أنا فقط من يحب يولونغ بل الآخرون كلهم يحبونها أيضاً. وإذا احتاجت لأمر ما فإن الجميع يكون مستعداً لمساعدتها. كما أنها تحصل على معاملة خاصة لا يحصل عليها الجميع. فإنهم، مثلاً، يغيّرون شراشف سريرها مرتين في الأسبوع عوضاً عن مرة، ويسمحون لها باستقبال الزوار في غرفتها، ولا تضطر أبداً للانتظار عندما تحتاج مساعدة الممرضة. يجد الممرضون الذكور الأعذار دائماً ليبقوا دائماً في غرفتها. وأنا متأكدة من أن يولونغ تحصل على طعامٍ أفضل أيضاً.

أنا أحسدها حقاً، كما تقول الأم وانغ العجوز، فوجهها هو ثروتها. لكن الأم وانغ العجوز لا تحب يولونغ. تقول إنها مثل الجنيّة الثعلب في الأساطير والتي تستدرج الرجال إلى حتفهم.

نهضتُ خفيةً لأكتب، لكن الطبيبة يو وجدتني خلال جولتها الليلة. سألتني إن كنتُ جائعة ودعتني إلى تناول وجبة خفيفة متأخرة في الليل. قالت إن المعدة المليئة ستساعدني على النوم.

في غرفة المناوبة، أشعلت الممرضة غاو الموقد وبدأت بتحضير النودلز مع البصل الأخضر المقلي والمقرمش. فجأةً انقطع التيار الكهربائي، وكان ضوء الموقد هو الضوء الوحيد في الغرفة، فتناولت الدكتورة يو مصباحاً كهربائياً وهرعت لتتفقّد المرضى، وأكملت الممرضة غاو الطبخ. بدت كأنها معتادة على القيام بالأمور في الظلام، وبعد وقتٍ قصير ملأت رائحة البصل المقلي الجو. كانت الممرضة غاو اللطيفة تعلم أنني أحب البصل المقرمش، لذلك خصّتني بملعقتين كاملتين منه. وبعد ذلك بوقتٍ قصير عاد التيار الكهربائي وعادت الدكتورة يو وجلسنا نحن الثلاثة لنأكل. بينما كنتُ أستمتع بملعقتي الثانية من البصل المقرمش أخبرتُ الدكتورة يو كيف دللتني الممرضة غاو وخصّتني بملعقتين كاملتين.

فجأةً دفعت الدكتورة يو الملعقة من يدي وسألتني بإلحاح: "هل ابتلعتِ شيئاً منه؟".

أومأت إيجاباً مندهشةً وقلت: "هذه ملعقتي الثانية!".

أصابت الدهشة الممرضة غاو أيضاً فقالت: "ما الأمر؟ لماذا تخيفيننا؟".

أشارت الدكتورة يو بقلق إلى البصل المقرمش المتناثر على الأرض. كان هناك عدد لا يحصى من الذباب الميت على الأرض بين البصل الأخضر. لقد جذبهم ضوء الموقد ودفؤه فخرجوا من مخبئهم. ولأنهم ضعفاء جرّاء برد الشتاء فقد سقطوا في القدر، ولم ينتبه أيُّنا إلى ذلك في الظلمة.

بسرعة أحضرت الدكتورة يو والممرضة غاو بعض الأدوية، فتناولت كل واحدة منهما حبتين وأنا تناولت أربع حبات، بواسطة محلول الغلوكوز، وأُلقيَ بالنودلز، الشهيّ الرائحة، في المرحاض. حاولتا أن تطمئنانني بأنني لن أمرض.

إن رأسي مليء بالذباب الذي ابتلعته. هل كسرتُ عظامها وسحقتُ أجسادها بأسناني أم ابتلعتُها بكليّتها؟

عجباً! لكنني كتبتُ قصة قصيرة مسلّية!

٢١ نيسان/ أبريل - مطر خفيف

قررتُ أن أحتفظ بذبابةٍ صغيرة كحيواني الأليف.

يوم الأحد الماضي لم أتلقَّ علاجاً بواسطة المصل، لذلك نمتُ نوماً هانئاً إلى أن أيقظني شعور ناعم وراعش على بشرتي. لم أستيقظ كلياً ولم أتغلب على شعور الكسل الذي منعني من الحراك، فبقيت ممدّدةً أتساءل عمّا سبَّبَ ذلك الشعور. مهما كان الذي تسبّب بذلك كان لا يزال هناك يتحرك بنشاط صعوداً ونزولاً على رجلي، لكنه لم يزعجني أو يُخِفني. شعرتُ كأن يدين صغيرتين جداً كانتا تربّتان عليّ برقة. كنتُ ممتنة لتلك اليدين الصغيرتين وأردتُ أن أعرف لمن هما. فتحتُ عينَيّ ونظرتُ:

كانت ذبابة! يا للفظاعة! يكون الذباب مغطّى بمياه المجارير وبالجراثيم!

لكني لم أكن أعلم أن قدمَي الذبابة يمكن أن تكونا بهذه النعومة والرقّة حتى لو كانتا قذرتين.

انتظرتُ تلك اليدين الصغيرتين عدة أيام، لكنهما لم تأتيا مجدداً.

عندما كنت أخضع لصورة أشعة بعد جرعة من الباريوم[١] هذا الصباح تذكرتُ فجأةً حين زرتُ غرفة العيّنات في المستشفى والحيوانات الصغيرة التي كان الأطباء يربّونها من أجل إجراء الاختبارات عليها. يمكنني أن أربّي ذبابة نظيفة! نعم، سأجد ذبابة طفلة وأحتفظ بها داخل ناموسيّتي.

٢٥ نيسان/ أبريل - مكفهرّ

أنا تعبة جداً، تعبة جداً جداً.

منذ يومين تمكنت أخيراً من التقاط ذبابة طفلة. إنها ضئيلة جداً. كانت تناضل في شبكة عنكبوت في شجرة تفاح صغيرة في الدغل خلف المقصف. غطّيتُ الذبابة

١ الباريوم هو المادة الكيميائية التي يتناولها المريض قبل خضوعه لصورة أشعة لمعدته أو أمعائه مما يجعل رؤية الأعضاء واضحة.

والشبكة بكيس شاش مصنوع من قناع وجه وأخذتها إلى غرفتي. بينما كنت أمر من أمام غرفة العلاج سألني الممرّض تشانغ عمّا التقطتُ، فأجبته على الفور بأول شيء خطر لي: "فراشة"، وأسرعت عائدةً إلى غرفتي واختفيت داخل ناموسيّتي. وما إن أصبحت داخل الناموسية فتحتُ الكيس ببطء. تفاجأت أن الشاش قد خلّص الذبابة الطفلة من شبكة العنكبوت وأنها كانت تتحرك بحرية. فكّرتُ أنها لا بد أن تكون تعبة جداً وجائعة بعد أن كانت عالقة في الشبكة، يعلم الله لكم من الوقت، فأسرعت إلى غرفة المناوبة، سرقت قليلاً من الشاش وسكبت عليه بعضاً من محلول الغلوكوز. بعدها أسرعتُ إلى المطبخ وأخذت قطعةً من اللحم من قِدر الفضلات. عندما عدتُ إلى ناموسيتي كانت الذبابة لا تزال في مكانها وكأنها لم تتحرك قط. كان جناحاها الصغيران يرفرفان بضعف؛ بدت جائعة وتعبة. وضعتُ قطعة اللحم على الشاش المشبّع بمحلول الغلوكوز وقرّبتها من الذبابة الطفلة برفق. وفي تلك اللحظة سمعتُ صوت عربة الأدوية. كان قد حان وقت علاج العصر، وكان عليّ أن أجد شيئاً أغطّي به الذبابة، إذ لا يمكن أن أدع أحداً يكتشف أمرها. أحب عادةً أن أجمع الأوعية الصغيرة، فكان من السهل جداً عليّ أن أجد علبةً صغيرة ذات غطاء بلاستيكي شفاف لأضع الذبابة و"عشّها" الشاشي فيها. كنتُ قد انتهيت من ذلك عندما دخل الممرض تشانغ مع عربته.

قال الممرض تشانغ: "ماذا عن فراشتك؟ فلنرَ إن كانت جميلة أم لا".

كذبتُ وتأتأت مجيبةً: "ظننن ... ظننتُ أنها لم تكن جميلة فتركتها ترحل".

قال لي مؤاسياً: "لا عليك، في المرة القادمة سألتقط لك واحدة جميلة".

شكرته لكنّي تمنّيتُ لو يسرع بالمغادرة، فقد كنتُ قلقة على ذبابتي الطفلة.

إن تربية ذبابة طفلة أصعب بكثير من تربية هرّة صغيرة. الجميع يحب الهررة الصغيرة، ولذلك إن كنتم تملكون هرّة صغيرة فسيقوم العديد من الناس بمساعدتكم. لكن لا أحد يحب الذباب. أقلقني التفكير بإمكانية أن يقوم أحد بقتلها، أو أن تهرب. لم أجرؤ خلال الأيام القليلة الماضية على المغامرة بالخروج من

أجل التمارين خوفاً من تعرّض الذبابة الطفلة لأي مكروه. كما أنني لا أستطيع النوم بسهولة في الليل خوفاً من أن يطرد الأطباء والممرضون الذبابة خارجاً. حين أسمع صوت خطواتهم أُخرج ذراعي بسرعة من داخل الناموسية قبل أن يدخلوا غرفتي ليتمكّنوا من قياس حرارتي وسرعة نبضي دون أن يرفعوا الناموسية. يحصل هذا الأمر يومياً منذ بضعة أيام. أنا حقّاً متعبة جداً.

لكنّ هذا أفضل بكثير من النوم في المنزل. بالإضافة إلى أنّ ذبابتي الطفلة تبدو أفضل بكثير الآن. إنها تنمو ببطء شديد، وبالكاد يزداد حجمها. لكن لا بأس، فأنا لا أحب تلك الذبابات الكبيرة ذات الرؤوس الخضراء. تحطّ الذبابة الطفلة دائماً علي: أحب الشعور الرقيق، والمدغدغ أحياناً، على بشرتي. أحب أيضاً عندما تلعب على وجنتيّ، لكني لا أدعها تقبّلني.

١١ أيار/ مايو – مشمس

لم أحتج إلى حقن مصل خلال الأيام الأخيرة الماضية. يقول الطبيب تشانغ إنهم سيبقونني لبضعة أيام أخرى لمراقبتي وإعطائي علاجاً جديداً. لا يهمني ماذا يفعلون طالما أني أستطيع البقاء هنا وليس في المنزل.

إن ذبابتي الطفلة رائعة.

لقد صنعتُ لها منزلاً حيث يمكنها أن تكون بأمان وأن تتحرك بحرية أيضاً: إنه غطاء من الشاش مثل النوع الذي يستعملونه في المقصف لتغطية الطعام، أعطاني إياه رئيس الطبّاخين إذ قلت له إنني يجب أن أُحقَنَ بالمصل يومياً وأنني لن أتمكن من تناول وجباتي في الأوقات المعتادة لذلك أريد شيئاً يمنع الحشرات والذباب من الزحف على طعامي. رئيس الطبّاخين رجل طيب، وقد وافق على الفور، حتى أنه صنع خصّيصاً لي كيساً صغيراً من الشاش لأحفظ فيه أوعيتي وأدوات الأكل نظيفة. وهكذا حصلت الذبابة الصغيرة على منزل خاص بها، لكن الأكثر أهميةً هو أنها كانت آمنة جداً هناك. لن يشكّ أحد بوجود ذبابة داخل غطاء مضاد للذباب.

كذلك لن أضطر إلى الإسراع إلى المطبخ لأحصل لها على الطعام: يمكنها التمتع بطبق الأرز والخضار الخاص بي.

يمكنني أن أنام بسلام من جديد.

الطقس مشمس بطريقة جميلة اليوم. وضعتُ الذبابة في بيتها عند أسفل سريري واستعرتُ من الأم وانغ العجوز العدسة المكبّرة لأراقبها وهي تأكل السكر.

يبدو الذباب مثل رجل عجوز صغير تحت المجهر - يغطيه الشعر بالكامل! أذهلني ذلك، فوضعتُ العدسة من يدي بسرعة. لا أريد أن أراها قبيحة هكذا. عندما نراها بالعين المجرّدة تبدو ظريفةً دائماً: جسدها ضئيل، لا يمكن القول إن كان رمادياً أم بنياً أم أسود (ربما هو منقّط)؛ يلمع جناحاها في الشمس مثل ألماستين صغيرتين؛ رجلاها نحيلتان جداً لدرجة أنهما يجعلانني أفكّر برجلَي الراقصة؛ عيناها مثل كرتين زجاجيتين صغيرتين. لم أتمكن أبداً من إيجاد بؤبؤي عينيها؛ فهي تبدو كأنها لا تنظر إلى أي شيء أبداً.

تبدو ذبابتي الطفلة مضحكةً حقاً على قطعة الشاش المشبّعة بمحلول الغلوكوز: تحرك قدميها الأماميتين باستمرار جيئةً وذهاباً وتفركهما ببعضهما مثلما يفعل الناس عندما يغسلون أيديهم.

٩ حزيران/ يونيو - غائم، انقشع الغيم فيما بعد

كنت أشعر بإعياءٍ كبير خلال اليومين الماضيين، لكن عندما يحين وقت الفحص اليومي تكون حرارتي عادية ولا يكون ضغط دمي منخفضاً. اليوم بالكاد استطعتُ رؤية كرة الريشة عندما كنتُ ألعب تنس الريشة مع يولونغ؛ في إحدى المرّات كدتُ أنهار وأنا حاول ردّ ضربة إرسالها. رؤيتي ضبابية، كل شيء يبدو كأنه يملك ظلاً مرتعشاً. من حسن الحظ أن الدكتور تشونغ كان مناوباً اليوم. عندما تكلّمتُ معه عن حالتي قال إنّ عليّ أن أعود إلى المستشفى الرئيسي لإجراء فحص دم آخر.

حسناً، لن أكتب أكثر، فأنا أرى الأشياء مزدوجة.

لا أستطيع أن أرى ذبابتي أيضاً بوضوح، فهي صغيرة جداً.

اليوم، يبدو كأن هناك اثنين منها.

قال لي الممرض تشانغ إنه سيعطيني شيئاً جميلاً اليوم، لكني على وشك النوم الآن وهو لم يأتِ بعد. لا بد أنه كان يغيظني. لن أكتب شيئاً آخر اليوم، فأشعر بنعاسٍ شديد. تصبحين على خير يا يومياتي العزيزة.

١١ حزيران/ يونيو - ؟

لقد توقّفت للتو عن البكاء. لم يعلم أحد سبب بكائي، فالأطباء والممرضون والممرضات والمرضى الآخرون كلهم اعتقدوا أنني كنتُ خائفة من الموت. في الواقع، لستُ خائفة من الموت. تقول الأم وانغ العجوز إن "خيطاً يفصل بين الحياة والموت". أعتقد أنْ لا بدّ أن يكون هذا صحيحاً. لا بدّ أن الموت مثل النوم؛ يعجبني واقع أن أكون نائمة وبعيدة عن هذا العالم. فضلاً عن ذلك، إن متُّ فلن أقلق بشأن إرسالي إلى المنزل. أنا في السابعة عشرة من عمري فقط، لكني أعتقد أن هذه سنٌّ مناسبة للموت. سأبقى فتاة شابة إلى الأبد ولن أتحوّل أبداً إلى امرأة عجوز مثل الأم وانغ العجوز ذات الوجه المليء بالتجاعيد.

كنتُ أبكي لأن ذبابتي الطفلة ماتت.

مساء يوم قبل أمس، كنتُ قد كتبتُ بضعة أسطر فقط في يومياتي عندما شعرتُ بدوارٍ قوي لم أستطع معه المضي في الكتابة. نهضتُ لأذهب إلى المرحاض، ثم رأيتُ عينين شريرتين تحدّقان فيّ من أعلى سريري عندما كنتُ على وشك العودة إلى السرير. ارتعبتُ وصرخت عالياً ثم فقدت الوعي.

قال الطبيب ليو إنني بقيت أهذي مدة نصف يوم وكنتُ أصرخ كل الوقت بأشياء عن الذباب والشياطين والأعين. الأم وانغ العجوز أخبرت المرضى الآخرين أنني ممسوسة، لكن رئيسة الممرضات طلبت منها أن لا تتفوه بالتفاهات.

حين علم الطبيب تشونغ بسبب انهياري وبّخ الممرض تشانغ توبيخاً شديداً بسبب

ذلك. فقد كان الممرض تشانغ قد قضى عدة ساعات في التقاط فراشة كبيرة وملونة كهدية لي، ثم ثبّت الفراشة الحيّة على لوح سريري الموجود من جهة الرأس آملاً أن تكون مفاجأة جميلة بالنسبة إلي، ولم يخطر له أبداً أنها سترعبني بهذا الشكل الفظيع.

خلال هذياني، لم أتمكن من الاعتناء بذبابتي الطفلة. ففي ذلك الوقت وضع أحدهم بعض الأشياء على الطاولة الصغيرة بجانب سريري فسحقت ذبابتي الطفلة في كيسها الشاشي. وقد وجدتُ صعوبةً كبيرة في إيجادها، لكن خلال ذلك الوقت كان جسدها الضئيل قد جفّ تماماً.

الذبابة الصغيرة المسكينة ماتت حتى قبل أن تنمو.

وضعتُ الذبابة الطفلة برفق في علبة كبريت كنتُ أحتفظ بها منذ وقتٍ طويل. سحبتُ القليل من القطن الأبيض من حشوة لحافي ووضعتها داخل علبة الكبريت. أردتُ أن تنام الذبابة الطفلة بشكل مريح أكثر قليلاً.

غداً سأدفن الذبابة الطفلة في الدغل الصغير على التل خلف المستشفى. لا يذهب الكثير من الناس إلى هناك، المكان هادئ جداً.

١٢ حزيران/ يونيو – مكفهّر، غائم فيما بعد

كانت السماء داكنةً وكئيبة هذا الصباح، وكان الجو مكفهّراً في العنابر أيضاً: كل شيء حولي كان يعكس مشاعري. كنتُ على وشك البكاء طوال الوقت وأنا أفكر بالذبابة الصغيرة التي لن تلعب معي مجدداً أبداً.

يقول الطبيب تشونغ إن عدد الكريات البيض في دمي منخفض جداً ولهذا السبب أشعر بالإعياء. ابتداءً من اليوم، يجب أن أتناول دواءً جديداً بواسطة المصل؛ كل قارورة سعة ٥٠٠ ملليلتر تحتاج إلى ساعتين، ثلاث قارورات ستحتاج إلى ست ساعات تقريباً. سيكون صعباً جداً عليّ أن أتمدد هنا بمفردي أحصي قطرات الدواء... سأفتقد ذبابتي الطفلة.

عند الظهر، خرجت الشمس مترددة، لكنها ظلّت تخبّئ رأسها وراء الغيوم. لا

أعلم إن كانت تلعب الغمّيضة بعبث، أم أنها مريضة جداً أو كسولة جداً كي تشرق علينا. ربما هي أيضاً كان قلبها يتألم على الذبابة الطفلة، وكانت تبكي في السر؟

لم تنتهِ قارورات المصل إلا بعد العشاء، لكني لم أكن أشعر بالجوع. أردتُ أن أدفن ذبابتي الطفلة قبل أن يحلّ الظلام.

لففتُ علبة الكبريت بمنديلي المفضّل، وسلكتُ الطريق الطويل لأتفادى المرور من أمام غرفة المناوبة، وتسلّلت خارج المستشفى متّجهةً إلى الدغل الصغير على التل. اخترتُ بقعةً إلى جانب صخرة يمكن رؤيتها من أسفل التل وقررتُ دفن الذبابة هناك. أردتُ استخدام الصخرة كشاهد قبر، فبتلك الطريقة أستطيع رؤيتها بسهولة من الباب الخلفي للمستشفى. كانت الأرض قاسية جداً - لم أنجح بحفرها بواسطة يدي. حاولتُ استعمال غصنٍ صغير لكن الأمر كان صعباً جداً، فقررتُ أن أبحث عن غصنٍ غليظ عوضاً عن ذلك، فوضعتُ علبة الثقاب على الصخرة وتسلّقتُ التل إلى أعلى لأفتش عن واحد.

فجأةً سمعتُ أحداً يتنفس بصعوبة وسمعت صرخة تأوّه غريبة. بعد قليل رأيتُ رجلاً وامرأة يتدحرجان على بقعة معشبة في الدغل. لم أستطع الرؤية بوضوح، لكن بدا أنهما كانا يتصارعان. بدا التنفس كأنه آخر نضال لشخصٍ يموت.

بدأتُ أرتجف من الخوف. لم أدرِ ماذا يجب أن أفعل: لقد رأيت مشاهد مثل هذه من قبل في الأفلام، لكن ليس في الحقيقة أبداً. كنتُ أعرف أنني ضعيفة جداً ولم أكن أملك القوة الكافية لمساعدة المرأة، ناهيك عن إعاقة الرجل. وفكّرتُ أن من الأفضل أن آتي بالنجدة، فأمسكتُ علبة الثقاب بسرعة - لم أستطع ترك ذبابتي الطفلة هناك وحدها - وأسرعتُ عائدةً إلى المستشفى.

أول شخص رأيته، عندما وصلتُ أسفل التل، كان رئيس الممرّضين الذي كان يبحث عني عند باب المستشفى. كنت متعبةً جداً وألهث بشدة، فلم أتمكن من التكلم، لكنني أشرتُ بإلحاح إلى التل. الطبيب تشونغ، الذي كان قد أنهى نوبته للتو وكان على وشك المغادرة، جاء وسأل عمّا جرى.

لم أعرف ماذا يجب قوله لأجعلهما يفهمان، فقلت: "أعتقد أن شخصاً ما سوف يموت".

ركض الطبيب تشونغ باتجاه أعلى التل وأعطاني رئيس الممرضين بعض الأوكسيجين. كنتُ منهكةً لدرجة أنني غفوت بينما كنت أتنشّقه.

عندما استيقظتُ ذهبتُ إلى غرفة المناوبة، أردتُ أن أعرف إن كان قد تمّ إنقاذ المرأة التي في الدغل وأن أستعلم عن حالها.

استغربتُ أن الممرضة غاو، التي كان قد حان وقت مناوبتها، لم تقل لي شيئاً. فقط ربّتت على رأسي وقالت: "آه، أنت...!".

"أنا ماذا؟" شعرتُ بالاستياء. ما زلتُ لا أعلم ماذا جرى.

١٣ حزيران/ يونيو - مشمس

وجدتُ مكاناً آمناً للذبابة الطفلة، فقد أعطتني إحدى الممرضات علبة شوكولاتة بالكحول. أحب الشكولاتة المحشوّة بالكحول؛ أحب أن أحدث ثقبين فيها بواسطة إبرة ومن ثم أمتصّ الكحول (لا يمكن امتصاصه إن كان هناك ثقب واحد). اليوم، بينما كنتُ أفعل هذا، خطرت لي فجأةً فكرة جديدة. يمكنني أن أضع الذبابة الطفلة في قطعة شوكولاتة بالكحول مجوّفة ويمكنني الاحتفاظ بها في البرّاد في مكتب المناوبة (فقد قال لي رئيس الممرضين إن بإمكاني الاحتفاظ بالطعام هناك). وهكذا وضعت الذبابة في قطعة شوكولاتة بالكحول، والتي كانت لا شك ستستمع بأكلها. بهذه الطريقة يمكنني أيضاً أن أزورها بكثرة.

أنا عبقرية، ألستُ كذلك؟ نعم أنا كذلك! على الأقل هذا ما أعتقده.

٢٣ حزيران/ يونيو - حار وعاصف

ستغادر يولونغ المستشفى غداً - لا أريدها أن ترحل. مغادرة المستشفى أمر جيد لها طبعاً.

ماذا سأقدّم ليولونغ كهدية بمناسبة خروجها من المستشفى؟

٢٤ حزيران/ يونيو - حار ورطب

غادرت يولونغ - لم أتمكن من رؤيتها لأنني كنتُ أتلقى علاجي بالمصل. قبل أن تغادر حصلَتْ على إذن للمجيء إلى غرفتي لتودّعني. ربّتت برقة على يدي، التي كانت مغطّاة بثقوب الإبر، وتحدّثت إلي بمودة ومحبة. نصحتني أن لا أغسل يدَي بالماء البارد، بل أن أنقعهما بالماء الحار عوضاً عن ذلك، كي تشفى الأوعية الدموية بسرعة أكبر.

أعطتني أيضاً قفازات كانت قد حاكتها خصيصاً لي. كانت في الأصل قد قررت أن تعطيني إياها فيما بعد عندما يبدأ فصل الشتاء. تأملت غرفتي ملياً وأثنت عليّ لإبقائها نظيفة ومرتّبة.

سألتها إن كانت تعرف ماذا حدث للمرأة على التل، لكنها لم تفهم عمّ كنت أتحدث فأخبرتها بما رأيته. أصبحت هادئةً جداً وترقرقت الدموع في عينيها.

أعطيتُ يولونغ صورة لذبابة طفلة جميلة جداً كنت قد رسمتها ووضعتها في إطار من المطاط القديم وبعضاً من ورق السيلوفان والكرتون. قالت يولونغ إنها لم ترَ أبداً ذبابةً مرسومةً بذلك الشكل الجميل، وأثنت أيضاً على أصالة إطاري.

ودّعتها متمنيةً لها أطيب التمنيات، لكني تمنيتُ في سرّي أن تعود إلى المستشفى لتبقى برفقتي.

١٦ تموز/ يوليو - مطر

لم أتخيّل أبداً أنّ من الممكن أن أكون يوماً ما السبب في تدمير حياة يولونغ.

اليوم تلقّيت رسالة من يولونغ في قريتها:

عزيزتي هونغ شو،

هل أنت بخير؟ هل ما زلت تتلقّين العلاج بالمصل؟ عائلتك غير قادرة على الاعتناء بك، لذلك يجب أن تتعلمي الاعتناء بنفسك. لحسن الحظ أن الأطباء والممرضون والممرضات كلهم في المستشفى يحبونك، كذلك المرضى الآخرون. نتمنى كلنا أن تتمكني قريباً من العودة إلى حيث يجب أن تكوني، بين عائلتك وأصدقائك.

لقد طُردتُ من الأكاديمية العسكرية وأُرسلت إلى قريتي تحت الحراسة: يقول جميع أهل القرية إنني حطّمت آمالهم.

لم أخبرك أبداً أنني يتيمة. مات والدَيّ الواحد تلو الآخر بعد فترة قصيرة من ولادتي - أحدهما من المرض والآخر بسبب الجوع الشديد على الأرجح. أشفق القرويون عليّ وتولّوا تربيتي مداورة. أكلتُ طعام مئات البيوت وارتديتُ ملابس من مئات العائلات. كانت القرية شديدة الفقر. حرم القرويون أولادهم الكثير من الأمور من أجل إرسالي إلى المدرسة: كنتُ أول فتاة من قريتي تذهب إلى المدرسة. منذ أربع سنوات مضت أتت الأكاديمية العسكرية إلى المنطقة لتجنّد طلاباً من بين الفلاحين والعمال. سافر أمين سر فرع الحزب عندنا خلال الليل إلى معسكر الجيش في المحافظة ليتوسّل إلى قادة الجيش أن يجنّدوني. قال لهم إنها أعز أمنية عند أهل القرية كلهم. أخبر القادة قصتي لرفاقهم في النهاية، ومُنحتُ إذناً خاصاً للمشاركة في التدريب العملي والالتحاق بالأكاديمية فيما بعد.

درستُ اللغة الروسية والاتصالات العسكرية في الأكاديمية حيث كان معظم زملائي في الصف من الريف. لأن متطلب القبول الأساسي كان الخلفية السياسية الصحيحة، كان هناك تفاوت ضخم في مستوياتنا العلمية. كنتُ أفضل طالبة في الصف لأنني كنت تلقّيت تعليماً ثانوياً لمدة سنة. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أنني كنتُ أملك موهبة لتعلّم اللغات إذ إن علاماتي في اللغة الروسية كانت دائماً ممتازة. كما أجمعَ أساتذة القسم كلهم على أنني أملك مقوّمات الدبلوماسي، وأنني لن أواجه أي صعوبة في العمل مترجمةً فورية على الأقل. كنتُ أعمل بجهد ولم أتوقف عن الدرس بحجة الروماتيزم الذي أعاني منه منذ كنت طفلة، فقد أردتُ أن أردّ جميل أهل القرية الذين ربّوني.

هونغ شو، منذ سنة وأنا عاجزة عن تجنب حقيقة أنني كبرتُ وأدرك في ألم أنني قد أصبحتُ امرأةً ناضجة. لا يمكنكِ أن تفهمي هذا بعد، لكنك ستفهمينه بعد بضع سنوات.

أختي الصغيرة، المرأة التي أردتِ "إنقاذها" على التل خلف المستشفى كانت أنا.

لم أكن أتعرض للأذى، بل كنتُ مع حبيبي...

أرسلنا الطبيب تشونغ والآخرون إلى قسم التأديب العسكري. سُجن حبيبي وتعرض للاستجواب، وأعدتُ أنا إلى المستشفى تحت الإقامة الجبرية لأنني كنت بحاجة للعلاج الطبي. تلك الليلة، حبيبي، الذي يملك حساً قوياً بالشرف، أقدم على الانتحار. وفي اليوم التالي وصل موظّفون رسميّون من قسم التأديب العسكري ومكتب الأمن العام - ومن المحتمل من أقسام أخرى أيضاً - إلى المستشفى لإجراء تحقيق. قالوا إنني وفّرتُ لحبيبي "الوسيلة للإقدام على جريمة جعل نفسه ميتاً بالنسبة للحزب والشعب إلى الأبد". رفضتُ القول بأني تعرّضتُ للاغتصاب، وتعهدّتُ بالحب الأبدي لحبيبي عوضاً عن ذلك.

الثمن الذي أدفعه لقاء حبي هو العودة إلى هذه القرية الفقيرة والعيش كفلاحة. أهل القرية يتجنّبونني الآن - لستُ أدري إن كان لي مكان هنا.

كان حبيبي رجلاً صالحاً، أحببته بقوة.

أنا لا أكتب إليك هذه الرسالة لأني ألومك، أبداً. فأنا أعلم أنك ما زلت فتية، وكنتِ تحاولين إنقاذ شخص ما بدافع طيبة قلبك. عديني أن لا تتركي هذا يحزنك، وإلا سيكون الثمن الذي أدفعه الآن مرتفعاً أكثر.

أخيراً، أختي الصغيرة، هل أنت مستعدة للإجابة عن هذه الأسئلة:

لماذا لا تريدين رؤية والدك؟

ما الذي جعلك تفكرين برسم ذبابة، ولماذا جعلتها جميلة بهذا الشكل؟

أتمنى أن تصبحي سعيدة وأن تتعافي قريباً.

أفتقدك.

يولونغ

على ضوء الشمعة، مساء ٣٠ حزيران/ يونيو ١٩٧٥.

فهمتُ الآن سبب تجنّب العديد من الناس لي مؤخراً. هم جميعاً يعلمون نهاية

يولونغ المأساوية ويعلمون أنني كنتُ المذنبة، المجرمة التي سبّبت لها تلك التعاسة.

يولونغ، لقد فعلت لك شيئاً لا يُغتفر.

من يستطيع مسامحتي؟

٣٠ تموز/ يوليو - حر خانق قبل العاصفة

بالكاد خرجت من غرفتي منذ أيام. لا أريد أن أرى أحداً. كل كلمة كتبتها يولونغ حُفرت في ذهني، ولن تختفي أسئلتها أبداً:

لماذا لا تريدين رؤية والدك؟

ما الذي جعلك تفكرين برسم ذبابة، ولماذا جعلتها جميلة بهذا الشكل؟

للإجابة عن أسئلة يولونغ سأضطر إلى التذكر، والعودة إلى الجحيم. لكن يولونغ نُفيَت إلى الجحيم بسببي، لذلك يجب أن أقوم بالرحلة. لا أستطيع رفض الإجابة عن أسئلتها.

لا تزال الذبابة الطفلة نائمة في قلب قطعة الشكولاتة المحشوّة بالكحول؛ لا شيء يمكن أن يزعجها بعد الآن.

بينما كنت أنظر إليها اليوم شعرتُ بغيرة كبيرة.

٨ آب/ أغسطس - حار

خلال نصف الشهر الأخير كان الطقس حاراً ورطباً باستمرار. لا أعرف ما الذي يعدّونه فوق في السموات فيجعلون الناس يتعرّقون بهذا الشكل هنا على الأرض.

أحتاج إلى الشجاعة، الشجاعة لأتذكر. أحتاج إلى القوة وأحتاج أيضاً إلى قوة الإرادة.

عندما أخوض في ذكرياتي يتشبّث الألم بي مثل الوحل؛ والكره، الذي تلاشى في هذا العالم الأبيض من المرض، يسرع فجأةً بالعودة.

أريد أن أرد على رسالة يولونغ لكني لا أعرف من أين ابدأ؛ لا أعرف كيف أجيب عن أسئلتها بوضوح. أعلم فقط أنها ستكون رسالة طويلة جداً.

خلال الأيام الثلاثة الأخيرة لم أجرؤ على إلقاء نظرة على الذبابة الطفلة. إنها تكلمني في أحلامي ... آه، الجو حار جداً!

١٨ آب/ أغسطس - لطيف

أخيراً نفّست السموات عن مشاعرها. سماء الخريف عالية والهواء نظيف ومنعش. يبدو أن الجميع قد تنفّس الصعداء وطرد كآبة أيام كثيرة. المرضى الذين كانوا يتصبّبون عرقاً في المستشفى، خائفين من الحر، الآن وجدوا أسباباً للخروج.

لا أريد أن أذهب إلى أي مكان. يجب أن أكتب إلى يولونغ. لكني، هذا الصباح، أخذت الذبابة الطفلة في علبة الكبريت إلى الخارج وتنزّهنا لمدة نصف ساعة. كنت خائفة أن تذوب الشوكولاتة وأن تتسبب بالأذى للذبابة، لذلك أعدتها إلى الثلاّجة في أسرع وقت.

البارحة حذّرني الطبيب تشونغ عندما كان يقوم بجولاته. قال إنه بالرغم من أن نتائج فحص دمي لم تبيّن أني مصابة بأي مرض خطير في الدم، لكن دمي لم يكن على ما يرام بسبب الحرارة المرتفعة المتكررة وعوارض الأدوية الجانبية. إن لم أحظَ بالراحة الصحيحة فمن المحتمل جداً أن أُصاب بتسمّم في الدم. أخافتني الممرضة غاو عندما قالت إن الناس يموتون من تسمّم الدم، وأشارت أيضاً إلى أنني، بعد عشر ساعات من تلقي العلاج بواسطة المصل، لا يجب أن أجلس خلف منضدة الكتابة أكتب دون أخذ أي قسط من الراحة أو القيام بأية تمارين. ظنّ الممرض تشانغ أنني كنتُ أكتب مقالاً آخر لجيش التحرير الشعبي أو إلى مجلات شباب الصين وسألني بلهفة عمّا أكتب. تمكنتُ من نشر بضع مقالات ولا بد أن الممرض تشانغ كان أكثر قرائي حماسة.

٢٤ أب/ أغسطس - مشمس

اليوم أرسلت رسالةً إلى يولونغ بواسطة البريد المضمون. كانت الرسالة سميكة جداً مما اضطرني إلى دفع كل المال الذي حصلتُ عليه كأتعاب عن إحدى مقالاتي على الرسوم.

اعتدتُ أن أحلم أنّ الألم يمكن أن يزول بطريقةٍ ما، لكن هل يمكنني أن أزيل حياتي؟ هل يمكنني أن أزيل ماضيّ ومستقبلي؟

غالباً ما أتفحّص وجهي بدقة في المرآة. يبدو ناعماً بفعل الشباب، لكني أعلم أنّ فيه ندوباً بفعل التجربة: في أغلب الأحيان يظهر خطّان على جبيني الذي لا يبالي بالزهوّ؛ يشيران إلى الرعب الذي أشعر به ليلاً ونهاراً. عيناي ليس فيهما لا بريق ولا جمال عينَي فتاةٍ يافعة، في أعماقهما هناك قلب يكافح. شفتاي المجروحتان خسرتا كل إحساس فيهما؛ أذناي ضعيفتان من التيقّظ المستمر وغير قادرتين حتى على حمل نظارات؛ شعري باهت لا حياة فيه من كثرة القلق بينما يجب أن يلمع بالصحة.

هل هذا وجه فتاة في السابعة عشرة من العمر؟

ما هي المرأة بالضبط؟ هل يجب تصنيف الرجال في نفس الفصيلة مع النساء؟ لماذا هم مختلفون بهذا الشكل؟

ربما الكتب والأفلام تقول إنّ من الأفضل أن يكون المرء امرأة، لكنني لا أصدق ذلك. لم أشعر يوماً أن ذلك صحيح ولن أشعر بذلك أبداً.

لماذا تستمر هذه الذبابة الكبيرة التي جاءت تطنّ هنا عصر هذا اليوم بالهبوط على الصورة التي انتهيتُ من رسمها للتو؟ هل يُعقل أن يكون السبب أنها تعلم أن الذبابة الطفلة موجودة في الرسم؟ طاردتها، لكنها جسورة. وبدلاً من أن تخاف هي خفتُ أنا - ماذا لو كانت والدة الذبابة الطفلة؟

هذا خطير. يجب أن...

٢٥ آب/ أغسطس - مشمس

لم أتمكن البارحة من الانتهاء، فقد حان وقت إطفاء الأنوار.

لا تزال تلك الذبابة الكبيرة في غرفتي اليوم. إنها ذكية جداً، فهي تختبئ كلما دخل أحدهم الغرفة، لا أدري أين. وحالما يغدو المكان آمناً، إما تهبط على رسمتي أو تطنّ حولي. لا أعلم ماذا تفعل.

أشعر أنها لا تريد أن تتركني.

بعد الظهر، قال الطبيب تشونغ إن استقرّت حالتي فذلك يعني أن العلاج كان فعّالاً، وسيسمح لي بالخروج من المستشفى لأستعيد قوتي في المنزل بالإضافة إلى تناول بعض الأدوية. قال رئيس الممرضين إنهم ابتداءً من الخريف سيحتاجون كل أسرّة المستشفى، لذلك فإن الأشخاص الذين يعانون من أمراض دائمة سيضطرّون لمغادرة المستشفى.

أذهب إلى المنزل؟ سيكون ذلك مريعاً!

يجب أن افكر بطريقة تجعلني أبقى هنا.

٢٦ آب/ أغسطس - مكفهرّ

بالكاد استسلمتُ للنوم طوال الليل. فكّرتُ بطرق عدة للبقاء، لكنها كلها بدت مستحيلة. ماذا يمكنني أن أفعل؟

سيكون على الأرجح أسرع إن أصبتُ نفسي بعدوى مرضٍ ما، لكن الدخول إلى عنابر الأمراض المعدية محظور.

اليوم كنتُ أفكر طوال الوقت بطريقة للبقاء هنا فلم أنتبه إلى درجةٍ في المقصف فخطوت في الهواء ووقعتُ على الأرض، فحصلتُ على كدمة أرجوانية كبيرة على فخذي وعلى جرحٍ بليغ في ذراعي. عندما تبدّلت المناوبات قالت الطبيبة يو للممرضة أن تضع بعض المرهم على ذراعي. قالت إن بنيتي ضعيفة ويمكنني أن أُصاب بسهولة بتسمّم في الدم، وأوصت الممرضة أن تطرد الذباب عندما تريد تغيير ضماداتي، وقالت إن الذباب أفضل ناقل للأوبئة.

في الليل قال الممرض المناوب أن هناك ذباباً في غرفتي وأنه يريد رشّه.

لم أشأ أن تموت الذبابة الكبيرة، لذلك قلته له إنّ لدي حساسية من بخّاخ الذباب، فقال إنه عوضاً عن ذلك سيسحق الذباب بكفه غداً ويريحني منه. لا أعلم أين كانت تختبئ الذبابة الكبيرة. أنوي أن أترك النافذة مفتوحة عندما أنام كي تتمكن من الهرب. لا أعلم إن كان ذلك سينقذها.

٢٧ آب/ أغسطس - مطر خفيف

لم أتمكن من إنقاذ الذبابة الكبيرة. فعند الساعة ٦:٤٠ صباحاً دخلت الطبيبة يو لتتفقّد الغرفة وضربتها بيدها فسقطت على رسمتي. قلتُ للطبيبة يو إنني أريد الاحتفاظ بالصورة، وبذلك منعتها من التخلّص من الذبابة الكبيرة ووضعتها في البراد مع الذبابة الطفلة. لا أعلم السبب، لكنني شعرتُ دائماً أن هناك علاقة خاصة تربط بينهما.

أعتقد أن الجرح في ذراعي ملتهب قليلاً، فقد تورّم واحمّر وأجد صعوبةً في الكتابة. لكنني أخبرت الممرضة المتدرّبة التي غيّرت الضمادة أنني بخير وأنْ لا حاجة لوضع مرهم جديد على الجرح. تفاجأتُ جداً حين صدّقتني! كانت أكمام بيجامة المستشفى الطويلة تغطّي ذراعي بالكامل.

آمل أن ينجح هذا.

"الذباب أفضل ناقل للأوبئة"، أعطتني كلمات الطبيبة يو فكرة قررت أن أجرّبها. لا تهمني النتائج، فحتى الموت أفضل من الذهاب إلى المنزل.

سأقحم الذبابة الكبيرة داخل الجرح الموجود في ذراعي.

٣٠ آب/ أغسطس - مشمس

نجحت! استمرت حرارتي بالارتفاع خلال اليومين الأخيرين. أشعر بالمرض الشديد، لكنني سعيدة. الطبيب تشونغ متفاجئ جداً من تدهور حالتي، وسيقوم بفحص دم شامل آخر لي.

لم أزر ذبابتي العزيزة الصغيرة خلال الأيام القليلة الأخيرة. أشعر أنني مصابة بتقلّصات في كامل جسدي.

ذبابتي الطفلة، أنا آسفة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٧ أيلول/ سبتمبر

نُقلتُ مساء البارحة إلى المستشفى الرئيسي هنا.

أنا متعبة جداً وأشعر بالنعاس. أفتقد ذبابتي الطفلة، أفتقدها كثيراً.

ولا أعلم إن كانت يولونغ قد ردّت على رسالتي...

انتهيت من قراءة هذه اليوميات عندما ألقت الشمس بأول شعاع من أشعتها في الشرق، وبدأ ضجيج الأشخاص القادمين إلى العمل يتسرّب من المكاتب المجاورة. توفيت هونغ شو جرّاء تسمم بالدم. كانت هناك شهادة وفاة في العلبة مع الأوراق، ويعود تاريخها إلى ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٥.

أين كانت يولونغ؟ هل علمت بوفاة هونغ شو؟ من كانت المرأة الأربعينية التي تركت الصندوق لي؟ هل كانت المقالات التي نشرتها هونغ شو مكتوبة بنفس الطريقة الرائعة التي كُتبت بها الأوراق في العلبة؟ هل شعر والد هونغ شو بالندم عندما علم بانتحار ابنته؟ هل اكتشفت والدة هونغ شو، التي عاملت ابنتها كغرض للتضحية، أي شيء عن طبيعة الأمومة؟

لا أعرف الإجابات عن هذه الأسئلة، ولا أعرف كم عدد الفتيات اللواتي يتعرّضن للاعتداء الجنسي واللواتي كنّ يبكين بين آلاف الأشخاص الحالمين في المدينة هذا الصباح.

٣

الطالبة الجامعية

طاردتني هونغ شو. بدت وكأنها تحدق فيّ بعينين عاجزتين ومترقّبتين وكأنها تتوسلني لأفعل شيئاً. ما حدث بعد عدة أيام زاد من تصميمي على إيجاد طريقة لجعل برنامجي الإذاعي أكثر إفادةً وفعالية للنساء.

عند حوالى الساعة العاشرة من ذلك الصباح، كنتُ قد وصلت للتوّ على درّاجتي إلى محطة الإذاعة عندما استوقفتني زميلة كانت مغادرة بعد النوبة المبكرة. أخبرتني أن زوجان عجوزان أتيا إلى المحطة وكانا يزمجران غضباً عن حسابٍ يصفّيانه معي.

سألتها باندهال: "أي حساب ذلك؟".

"لا أعرف. يبدو أنهما يقولان إنك قاتلة".

"قاتلة؟ ماذا يقصدان؟".

"لا أدري، لكني أعتقد أنّ من الأفضل أن لا تواجهيهما، فعندما يبدأ أولئك المستمعون لا تعود هناك جدوى من محاولة التكلم معهم بمنطق". تثاءبت ثم قالت: "آسفة، لا يمكنني مقاومة ذلك، يجب أن أذهب إلى المنزل وأنام. المجيء إلى هنا في الرابعة والنصف فجراً من أجل نشرة الأخبار المبكرة هو العذاب بحدّ ذاته. إلى اللقاء".

لوّحتُ لها بذهنٍ متشتت.

كنت متلهّفةً لمعرفة ما يجري، لكن كان يجب أن أنتظر مكتب الشؤون الخارجية ليهتم بالأمر.

في الساعة التاسعة من ذلك المساء أرسل المكتب إلي أخيراً رسالة كان الزوجان العجوزان قد سلّماها لهم. أخبرني الزميل الذي سلّمني إياها أنها رسالة الانتحار التي تركتها ابنتهما الوحيدة، فتاة في التاسعة عشرة. خفتُ أن تزعجني قراءة الرسالة بشكل سلبي يؤثر عليّ وأنا على وشك البدء بالبث، فوضعتها في جيب سترتي.

كانت الساعة بعد الواحدة والنصف صباحاً عندما غادرت الاستوديو. لم أجرؤ على فتح الرسالة إلا عندما استلقيتُ منهكةً في سريري. كانت الرسالة ملطّخةً بالدموع.

عزيزتي شينران،

لماذا لم تردّي على رسالتي؟ ألم تدركي أنه كان علي أن أقرر بين الحياة والموت؟

أنا أحبه، لكني لم أقم بأيّ أمرٍ سيئ أبداً. لم يلمس جسدي قط، لكن أحد الجيران رآه يقبّلني في جبيني، فأخبر الجميع أنني امرأة سيئة. والدَي يشعران الآن بالخزي.

أحب والدَيّ كثيراً، ومنذ كنت طفلة تمنيت أن أجعلهما فخورَين بي، فرحَين أن ابنتهما ذكية وجميلة عوضاً عن الشعور بالنقص لأنهما لم يُرزقا بابن.

أما الآن فقد جعلتهما يفقدان الأمل وكذلك ماء الوجه. لكني لا أفهم ما الخطأ الذي اقترفته. من المؤكد أن الحب ليس أمراً مخلاً بالآداب أو جريمةً ضد الآداب العامة؟

راسلتك لأسالك عمّا يجب أن أفعله. ظننت أنك ستساعدينني في شرح الأمور لوالدَيّ، لكن حتى أنتِ لم تهتمي.

لا أحد يهتم. لا سبب يجعلني أستمر في العيش.

الوداع شينران. أحبك وأكرهك.

مستمعة مخلصة في الحياة،

تسياو يو

بعد ثلاثة أسابيع وصلت أخيراً أولى رسائل تسياو يو تتوسّلني فيها للمساعدة. شعرت أني محطّمة تحت وطأة هذه المأساة. كرهت التفكير بعدد الفتيات الصينيات اليافعات اللواتي دفعن حياتهن ثمناً لحشريتهن الفتية. كيف يمكن أن يُساوى الحب بالإخلال بالآداب العامة أو أن يُعتبر جريمةً ضدها؟

أردت أن أطرح هذا السؤال على مستمعيَّ على الهواء وسألت مديري إن كان باستطاعتي تلقي المكالمات على الهواء.

شعر بالجزع. "كيف ستتمكنين من توجيه الحوار والتحكم به؟".

"أيها المدير، أليس هذا زمن الإصلاح والانفتاح؟ فلماذا لا نجرب؟"، حاولت الاستفادة من المفردات التي أصبحت رائجة مؤخراً عن الانفتاح والابتكار لأعطيه تبريراً.

"الإصلاح ليس ثورة، والانفتاح ليس حرية. نحن ناطقون باسم الحزب، ولا يمكننا أن نذيع كل ما يحلو لنا". كان وهو يتكلم يقوم بحركات بيديه تبدو وكأنه سيقطع عنقه. عندما رأى أنني لن أستسلم اقترح أخيراً أن أقدّم برنامجاً مُسجّلاً عن الموضوع. وهذا يعني أن النص وكل المقابلات المسجّلة ستُفحص مسبقاً بدقّة في الاستوديو وسيُرسل البرنامج النهائي المعدّل إلى قسم المراقبة قبل أن يُبثّ على الهواء. كانت كل البرامج المسجّلة مسبقاً تمر بمراحل عديدة من التدقيق والتعديل، لذلك كانت تعتبر موثوقة تماماً. أما البث المباشر فكان يخضع لتدقيقٍ أقلّ بكثير. كان كل شيء يعتمد على مهارة المقدّم وقدرته على توجيه الحوار بعيداً عن المواضيع التي تنطوي على مشاكل معقدة. كان المدراء غالباً ما يستمعون إلى تلك البرامج بخوفٍ كبير، إذ إن حصول أي خطأ كان بإمكانه أن يؤدي إلى خسارتهم عملهم أو حتى حريتهم.

خاب أملي لعدم تمكّني من تلقّي المكالمات على الهواء.

سيتطلّبني الأمر وقتاً أطول بمرتين أو ثلاث لإنجاز برنامجٍ مسجّل بتلك الطريقة، لكنني على الأقل سأتمكن من صنع برنامجٍ خالٍ نوعاً ما من "صبغة" الحزب. بدأتُ العمل على تسجيل سلسلة من المقابلات الهاتفية.

خلافاً لكل توقعاتي، عندما بُثّ البرنامج لم يستحسنه المستمعون. حتى أنه كانت هناك رسالة انتقادية عدائية جداً وكانت بالطبع من دون اسم، وكانت تقول:

في السابق كانت البرامج الإذاعية عبارة عن سلسلة من الشعارات والتعابير البيروقراطية. وأخيراً حصل تغيير بسيط مع شيء من لمسة إنسانية، لماذا إذاً هذا التراجع؟ إن الموضوع يستحق التحليل، لكن المُقدّمة تتملّص من المسؤولية بأسلوبها البارد المتحفّظ. لا أحد يريد الاستماع إلى شخص يخطب عن الحكمة عن بُعد. بما أنه موضع للنقاش، لماذا لا يُسمح للناس بالتعبير عن آرائهم بحرية؟ لماذا لا تملك المقدّمة الشجاعة لتلقّي المكالمات من الجمهور؟

إن التأثير المتحفّظ الذي وصفه هذا المستمع الساخط كان نتيجة عملية التعديل الطويلة. المراقبون الذين اعتادوا منذ زمنٍ طويل العمل بطريقة معينة قاموا بحذف كل الأجزاء التي حاولتُ فيها أن أضيف لهجةً شخصية على تعليقاتي. كانوا مثل الطبّاخين في فندقٍ ضخم: يحضّرون نوعاً واحداً من الأطباق ثم يضبطون كل الأصوات بما يتوافق مع "نكهتهم" المعتادة.

رأى تشين العجوز أنني كنت أشعر بالألم والغضب والامتعاض، فقال:

"شينران، لا جدوى من الشعور بالغضب. ضعي كل شيء وراءك. عندما تخرجين من بوابات هذه المحطة فإن شجاعتك تُصادَر. إما أنك ستصبحين شخصاً مهماً، وإما شخصاً جباناً. فمهما يقول الآخرون أو ما تعتقدينه أنت شخصياً، لا نفع منه كله: يمكنك أن تكوني أحد هذين الأمرين. الأفضل أن تواجهي هذا الواقع".

سألته: "حسناً، أي واحد منهما أنت؟".

"الاثنين معاً. بالنسبة لي أنا مهم جداً، أما بالنسبة للآخرين فأنا جبان. لكن الأمور دائماً أكثر تعقيداً في العمق. كنت تناقشين العلاقة بين الحب والتقاليد والأخلاق. كيف يمكننا التمييز بين هذه الأمور الثلاثة؟ كل ثقافة، كل إدراك يعرّفها بشكل مختلف. النساء اللواتي تربّين بطريقة تقليدية جداً يتورّدن خجلاً عند رؤية

صدر رجل، بينما في النوادي الليلة هناك شابات يتبخترن شبه عاريات.

"أليست هذه مبالغة؟".

"مبالغة؟ إن عالم النساء مليء بتناقضات أكبر حتى. إن أردتِ التعمّق أكثر في فهم النساء يجب أن تحاولي الخروج من محطة الإذاعة هذه ومعاينة الحياة؛ فلا نفع من الجلوس في ستوديو ومكتب طوال اليوم.

شكّلت كلمات تشين العجوز مصدر إلهامٍ لي. كان محقاً. يجب أن أعاين أكثر حياة النساء العاديات وأترك آرائي ونظرياتي تنضج. لكن في زمنٍ كان السفر فيه محظوراً، حتى على الصحافيين، لم يكن من السهل القيام بذلك. بدأت باستغلال الفرص كلما استطعت، ورحتُ أجمع المعلومات حول السيدات اللواتي يسافرن في رحلات عمل، أقوم بزيارات للأصدقاء والعائلة، وعندما كنتُ أذهب في إجازة كنت أُدخل تلك المعلومات في برامجي وألاحظ نوع ردود الفعل التي تحدثها عند المستمعين.

ذات يوم، بينما كنت أغادر الجامعة التي كنت أدرّس فيها كأستاذة ضيفة مسرعة إلى الإذاعة، وكان حرم الجامعة مثل قفير نحل عند ساعة الغداء فاضطررت إلى دفع دراجتي عبر حشود من الطلاب، وفجأةً سمعتُ عدّة شابات يتحدثن عن أمرٍ يبدو أنه يتعلّق بي:

"تقول إن السيدات الصينيات تقليديات جداً. لا أوافقها. للسيدات الصينيات ماضٍ، لكن لهنّ مستقبل أيضاً. كم من النساء الصينيات اليوم تقليديات؟ على أي حال، ما معنى كلمة 'تقليدية'؛ أهو ارتداء معاطف مبطّنة تُزرَّر على الجانب؟ أم تسريح الشعر على شكل كعكة؟ أم لبس أحذية مطرّزة؟ أم تغطية الوجه في حضور رجل؟".

"برأيي، لا بد أن التقاليد التي تتكلم عنها هي أمر مفهوم، مبادئ انتقلت إلينا من الأجداد أو شيء من هذا القبيل. لم أستمع إلى البرنامج ليلة أمس، لذلك لستُ متأكدة".

"أنا لا أستمع أبداً إلى البرامج النسائية، أستمع فقط إلى تلك التي تحتوي على موسيقى".

"أنا استمعت إليه، أحبُّ أن اذهب إلى النوم وأنا أستمع إلى برنامجها. تضع موسيقى جميلة وصوتها مهدّئ، لكن لا تعجبني الطريقة التي تُكرّر فيها التكلم عن دماثة المرأة. من المؤكد أنها لا تعني أن الرجال متوحّشين".

"أعتقد أنها ربما تعني ذلك قليلاً. لا بد أنها من تلك النساء اللواتي يتصرّفن كأنهن أميرات مدلّلات بين أذرع أزواجهن".

"من يدري؟ من المحتمل أنها أيضاً واحدة من تلك النساء اللواتي يجعلن رجالهن يركعن عند أقدامهن كي تتمكن من تنفيس غضبها عليه".

صُعقت ممّا سمعت، إذ لم أكن أعلم أن الفتيات الشابات يتكلّمن بتلك الطريقة. وبما أنني كنت على عجلةٍ فلم أتوقف لأسألهنّ عن أرائهنّ كما أفعل عادةً، لكنني قررت أن أخصص بعض الوقت للتكلم مع طلبة الجامعة. وبما أنني كنت أعمل في الجامعة أحياناً كأستاذة ضيفة، كان من السهل عليّ أن أحصل على مقابلات هناك من دون التعرّض لأية مضايقات بيروقراطية. الثورات تبدأ دائماً بين صفوف الطلبة. كان هؤلاء الشباب يعكسون نجاح التغيير في الوعي الصيني الحديث.

أخبرني أحدهم عن شابة كانت عضواً مشهوراً في مجموعةٍ تتمتع بالشعبية في الجامعة، معروفة بمبادراتها وأفكارها وأرائها العصرية. كان لاسمها رنّة معبّرة عن ذلك: جين شواي (الجنرال الذهبي). دعوتُها لمقابلتي وشرب الشاي في أحد المقاهي.

بدت جين شواي أقرب إلى مديرة علاقات عامة أكثر منها إلى طالبة. ورغم أن ملامحها كانت عادية، لكنها كانت تسترعي الانتباه. كانت ترتدي بذلة كحلية أنيقة جداً تظهر جمال شكلها، وقميصاً عصرياً وجزمة جلدية طويلة ومثيرة. أما شعرها الطويل فكان مُنسدلاً.

ارتشفنا الشاي من أكواب صغيرة قرمزية اللون وبرّاقة.

"إذاً، شينران، هل أنت واسعة الاطّلاع بالقدر الذي يدّعيه الناس؟".

قلبت جين شواي أدوارنا على الفور عندما قامت هي بطرح أول سؤال.

توّاقةً لإثارة إعجابها، عددت بعض كتب التاريخ والاقتصاد التي قرأتها، لكنها لم تتأثر.

"ماذا يمكن لتلك المجلّدات العتيقة المغبّرة أن تعلّمك عن حاجات البشر ورغباتهم؟ فهي لا تتكلم إلا عن بعض النظريات الفارغة. إذا أردت قراءة بعض الكتب التي يمكنها أن تفيدك حاولي قراءة الإدارة التجارية الحديثة، دراسة العلاقات الشخصية، أو حياة المتعهد. ستساعدك على الأقل في كسب بعض المال. مسكينة، لديك كل تلك المعارف دون أن نذكر الآلاف من المستمعين وما زلت تعملين ليل نهار للحصول على راتبٍ زهيد. لقد أضعتِ الكثير من الوقت في قراءة تلك الكتب فأضعت فرصتك".

أصبحتُ دفاعية. "كلا، كل واحد يتّخذ قراراته الخاصة في الحياة ..."

"هيا، لا تستائي. ألا يتطلّب عملك الإجابة عن أسئلة مستمعيك؟ دعيني أطرح عليك أسئلة أخرى. ما هي فلسفة النساء؟ ما هي السعادة بالنسبة للمرأة؟ وما الذي يجعل من المرأة امرأةً جيدة؟" ثم شربت جين شواي كوبها دفعةً واحدة.

قرّرتُ أن أسلّمها زمام الأمور آملةً أن تكشف أفكارها الحقيقية، فقلت: "أودّ أن أسمع رأيك".

"أنا؟ لكنني طالبة علوم، ولا أملك أدنى فكرة عن العلوم الاجتماعية". تحولتْ بطريقة غريبة إلى متواضعة، لكنني شككتُ في أن ينجح لجوئي إلى مهاراتي في إجراء المقابلات في جعلها تكمل، لذا اقترحت قائلةً:

"لكن آراءك ليست مرتبطة فقط بالعلوم".

"نعم، حسناً، لدي بعض الآراء".

"ليست بضعة آراء فقط، فأنتِ معروفة بآرائك".

"شكراً لك". لأول مرة تتكلّم بالأسلوب المحترم الذي ظننتُ أن كل طلاب الجامعة يستخدمونه.

انتهزتُ الفرصة لأطرح عليها سؤالاً: "أنت ذكية وجذابة وشابة، فهل تعتبرين نفسك امرأةً صالحة؟".

"أنا"، بدت متردّدة للحظة ثم أجابت بحزم: "كلا".

أُهينت حشريتي فسألت: "لماذا؟".

"أيتها النادلة، كوبين آخرين من الشاي من فضلك". دلّت الثقة التي طلبت بها كوبَي الشاي على خلفية أسرية ثرية. "لا أملك الدماثة وحسّ القيام بالواجب المطلوبين. النساء الصينيات الصالحات ملزمات بالتصرف بطريقة ناعمة ووديعة وينقلن ذلك التصرف إلى السرير. ونتيجةً لذلك يقول رجالهن إنهن لا يتمتّعن بأية جاذبية جنسية. تخضع النساء للظلم مقتنعات أنهن السبب. عليهن أن يتحملن ألم الدورة الشهرية والولادة، والعمل مثل الرجال لإعالة العائلة عندما لا يجني أزواجهن الكثير. ويضع الرجال صور سيدات جميلات فوق أسرّتهم ليحصلوا على الانتصاب بينما تلوم نسائهن أنفسهن على أجسادهن المرهقة والقلقة. على أي حال، ليس هناك ما يسمّى المرأة الصالحة في نظر الرجال".

استفهمت منها عن ذلك، لكنها لم تكن بحاجة إلى إلى أي تشجيع.

"عندما تكون هرمونات الرجال في حالة هيجان، يقسمون أنّ حبهم خالد لا يموت. وقد أنتج ذلك الكثير من الشعر عبر العصور: حب عميق عمق البحار، وما إلى ذلك. لكن الرجال الذين يحبون بهذا الشكل موجودون في القصص فقط، أما في الحياة الواقعية فهم يتحججون بأنهم لم يلتقوا أبداً امرأةً جديرة بمثل تلك العاطفة. هم خبراء في استعمال ضعف النساء للتّحكم بهن. بضع كلمات حب ومديح من شأنها أن تُبقي بعض النساء سعيدات لفترةٍ طويلة، لكن ذلك كله وهم.

خذي مثلاً أولئك الأزواج الذين اعتمدوا على بعضهم بعضاً لعقود. يجعلك ذلك تعتقدين أن الرجل مكتفٍ، أليس كذلك، لكن إن أتته فرصة فسيتخلى عن الزوجة القديمة ليتزوج بأخرى جديدة، والعذر الذي سيقدّمه هو أن زوجته غير صالحة. في نظر الرجال الذين لديهن عشيقات، ما من نساء صالحات. في نظر أولئك

الرجال، النساء مجرد دمى. إنهم يحتقرون عشيقاتهم وإلا لكانوا تزوجوهن منذ زمنٍ طويل".

توقفت جين شواي عن الكلام قليلاً ثم اكتنفتها الجدية والوقار وقالت: "أتعرفين نوع المرأة التي يريدها الرجال؟".

أجبت بصدق: "أنا لست خبيرة".

أخذت جين شواي تتكلم بسلطة: "يريد الرجال امرأة فاضلة وعفيفة كزوجة، جيدة كأم، وتستطيع القيام بكل أعمال المنزل مثل خادمة. أما خارج المنزل فينبغي أن تكون جذّابة ومثقفة ومصدر فخرٍ له. وفي السرير، يجب أن تكون شَبِقَة. إضافةً إلى ذلك، يريد الرجال الصينيون من زوجاتهم الاهتمام بأمورهم المالية وكسب الكثير من المال ليتمكنوا من الاختلاط بالأثرياء وأصحاب السلطة. يتحسّر الرجال الصينيون العصريون على إلغاء تعدد الزوجات. في نهاية سلالة تشينغ قال ذلك العجوز كو هانغ مينغ إن "رجلاً واحداً مناسب لأربعة نساء، كما أن إبريق الشاي مناسب لأربعة أكواب". والرجال الصينيون العصريون يريدون كوباً آخر ليملأوه بالمال أيضاً.

قولي لي إذن، كم من النساء الصينيات بمقدورهن إنجاز كل تلك المتطلّبات؟ فبحسب هذه المعايير تُعتبر جميع النساء غير صالحات".

كان هناك رجلان جالسان إلى الطاولة المجاورة، راحا يستديران من وقتٍ لآخر لينظرا إلى جين شواي، التي واصلت كلامها في جسارة:

"هل تعرفين القول المأثور الذي يقول: زوجات الآخرين هنّ دائماً أفضل، لكن أولادك هم دائماً الأفضل؟".

أجبتُ "نعم" وارتحت لتمكّني أخيراً من ادّعاء معرفة شيءٍ ما.

فكرتْ قليلاً ثم قالت: "قرأتُ مرة كتاباً عن الحب يقول في مكانٍ ما فيه: "إن أسداً جائعاً سيأكل أرنباً إن لم يجد شيئاً أفضل، لكن ما إن يسحق الأرنب حتى يتركه ليطارد حماراً وحشياً ..." المأساوي في الأمر هو أن الكثير من النساء يرضخن لحكم الرجال عليهن بأنهن غير صالحات".

احمرّت وجنتاي قليلاً لشعوري أنّ جين شواي تعتبرني واحدة من تلك النساء، لكنها لم تلحظ ذلك.

"هل تعلمين يا شينران أن النساء غير الصالحات هنّ المحظوظات؟ أنا أؤمن بالقول القائل: "المال يجعل الرجل سيئاً؛ السوء يجعل النساء مالاً". لا تظنّي أننا جميعاً هنا طلاب مساكين، فالكثير منا نحن الشابات يعشن في ترف دون أن نأخذ فلساً واحداً من أهلنا. لم يكن باستطاعة البعض منهن، عندما أتين إلى الجامعة، تحمل نفقة تناول اللحم في مطعم الجامعة؛ لكنهن الآن يرتدين الكشمير ويضعن المجوهرات، يتنقلّن في سيارات الأجرة وينزلن في الفنادق. لكن لا تسيئي فهمي، فهذا لا يعني أن هؤلاء الشابات يبعن أجسادهن".

رأت جين شواي الصدمة على وجهي فأكملت مبتسمةً:

"اليوم أصبح الرجال الأثرياء أكثر تحديداً في متطلباتهم من حيث مرافقة أنثى لهم. يريدون استعراض 'سكرتيرة شخصية' أو 'مرافقة' ذات مستوى تعليمي. ومع افتقار الصين الحالي للمواهب، أين يمكن إيجاد العديد من أمينات السر الشخصيات إن ليس في الجامعات؟ المرأة التي لا تملك أي شهادات ستتمكن فقط من اجتذاب رجل أعمال غير مهم؛ فكلما زاد تعليمك زادت فرصك باقتناص رجل أعمال مهم. 'السكرتيرة الشخصية' تعمل لدى رجل واحد فقط، أما 'المرافقة' فتعمل لدى عدة رجال. وهناك ثلاثة مستويات من المرافقة: المستوى الأول يشمل مرافقة رجال إلى المطاعم والنوادي الليلية وإلى بارات الكاريوكي. المستوى الثاني يذهب أبعد من ذلك ليشمل مرافقتهم إلى مناسبات أخرى مثل المسرح والسينما وغيرهما؛ ندعو ذلك "بيع الفن وليس الذات"، وبالطبع السماح لأولئك الرجال بالعبث بثيابك هو جزء من الاتفاق. أما المستوى الثالث فيشمل أن تكوني تحت تصرف الرجل ليلاً نهاراً، حتى للجنس. إن كنت من هذا النوع من 'السكرتيرات الشخصيات' لا تنامين في مهجع الجامعة، إلا في حال ذهاب مديرك إلى المنزل، وهذا لا يحصل إلا نادراً. وحتى في ذلك الحين يسمح لك الرجل بالبقاء في غرفة الفندق

التي استأجرها ليسهل عليه إيجادك عند عودته. عندما تكونين 'سكرتيرة شخصية' يتم تأمين وجبات طعامك وملابسك وسكنك وسفرك، ولا يجرؤ أحد على إغضابك عندما تكونين قريبة هكذا من الرئيس. أنت تحت إمرة رجل واحد لكن الآلاف تحت إمرتك! إن كنت ذكية يمكنك الحصول على بعض السلطة في فترة قصيرة، وإن كنت حادة الذكاء فلن يكون عليك القلق بشأن المال أبداً".

سكبت لنفسها المزيد من الشاي.

"ألا يقولون إن الوقت يصنع الرجل؟ 'السكرتيرة الشخصية' في الصين هي من صَنَع سياسة دنغ شياوبينغ في الانفتاح والإصلاح.

ما إن انفتحت الصين على الخارج حتى أصبح الجميع يسعى وراء المال؛ أصبح الكل يريد أن يصبح رئيساً. كثيرون يحلمون بالثروة، لكن قلّة تنجح في الحصول عليها. هل لاحظت أن الجميع يحملون لقب 'مدير عام' أو 'مدير' على بطاقات عملهم. وبغض النظر عن حجم إعمالهم، فإن لشركاتهم أسماء ضخمة.

وكيف يستطيع كل هؤلاء الرجال إنشاء شركة من دون سكرتيرة - ألن يؤدي ذلك إلى فقدانهم ماء الوجه؟ لكن توظيف سكرتيرة لمدة ثماني ساعات في اليوم ليس بالأمر الكافي، إذ يجب على أحدهم أن يكون متواجداً هناك طوال الوقت حتى يهتم بكل الأمور. زيدي على ذلك قانون الانجذاب الجنسي والفرص الكثيرة للفتيات الجذّابات. شابات أنيقات وعصريات يسرعن في أروقة أقسام الدولة الرسمية القديمة والمضجرة ويسرّعن مجرى التطور الاقتصادي في الصين.

السكريترات الشخصيات مطلوبات أيضاً من قبل الأجانب الذين يتزاحمون فيما بينهم للمطالبة بحقهم المزعوم في اقتصادنا. إنهم لا يعرفون شيئاً أبداً عن الصين وعاداتها، ولولا مساعدة سكرتيراتهم لكان الموظفون الحكوميون الصينيون الفاسدون سحقوهم بكل سهولة منذ زمنٍ طويل. ولكي تحظى السكرتيرة بوظيفة سكرتيرة شخصية لأجنبي يجب أن تتقن لغةً أجنبية.

معظم السكرتيرات الشخصيات واقعيات في توقعاتهن، فهنّ يعلمن تماماً أن

مدرائهن لن يتخلّوا عن عائلاتهم أبداً. الحمقاء وحدها تصدّق كلامهم المعسول على أنه كلام حب. ورغم ذلك فإن هناك بعض الحمقاوات، ولا أعتقد أني أحتاج لإخبارك إلى أين أوصلتهن حماقتهنّ".

كنت أستمع فاغرة الفم إلى تقرير جين شواي المريع عن 'المرافقات' و'السكرتيرات الشخصيات'. لم أشعر أننا نعيش في القرن نفسه، ناهيك عن البلد نفسه. قلت بتلعثم: "هل ذلك يحصل حقاً؟".

صُدمت جين شواي لجهلي.

"طبعاً ذلك يحصل حقاً. دعيني أخبرك قصةً حقيقية. لي صديقة اسمها ينغ إر، فتاة جميلة، طيبة ولطيفة، طويلة القامة وذات قوام رشيق ووجه وصوت ناعمين. كانت ينغ إر طالبة موهوبة في كلية الفنون، تغني وتعزف على أي آلة موسيقية ونتيجة لذلك كانت تزرع الموسيقى والبسمة والضحكة أينما حلّت. أحب الرجال والنساء على حدٍّ سواء رفقتها. منذ سنتين، عندما كانت ينغ إر في سنتها الجامعية الثانية، التقت مدير شركة تايواني اسمه 'وو' في حفلة راقصة. كان وسيماً وذكياً. كانت شركة العقارات التي يديرها في شانغهاي ناجحة لذلك أراد أن يفتح فرعاً لها في نانجينغ، لكنه عندما وصل إلى هنا وجد صعوبةً في فهم كل القوانين التجارية. أنفق آلاف الدولارات الأميركية لكنه رغم ذلك وبعد ستة أشهر لم يتمكن من تأسيس الفرع.

أشفقت ينغ إر عليه، وتمكّنت، بذكائها وبراعتها وطريقتها السلسة ومعارفها المهمين، من إنهاء المعاملات والإجراءات الرسمية مع المكتب التجاري ومكتب الضرائب والمجلس البلدي والمصرف، وسرعان ما بدأ الفرع بالعمل. شعر 'وو' بالامتنان الشديد لها فاستأجر لها جناحاً في فندق أربعة نجوم ودفع كل نفقاتها. لم تكن ينغ إر امرأة ساذجة أو تنقصها الخبرة في الحياة، لكنها وقعت تحت سحر تصرف 'وو' المهذب والنبيل، فهو لم يتصرف مثل أولئك الهررة السمينة الذين يظنون أن المال يمكنه شراء أي شيء. قررت ينغ إر أن تتوقف عن مرافقة رجال آخرين وأن تكرّس نفسها لمساعدة 'وو' في أعماله في نانجينغ.

ذات يوم، عند حوالي الساعة الثالثة فجراً، اتصلت بي ينغ إر وهي تطير من الفرح وقالت بفرحٍ عارم: "هذه المرة وجدت الحب الحقيقي، لكن لا تجزعي لم أخبره بما أشعر به نحوه. أعلم أنه متزوج. قال إنها امرأة صالحة وأراني صور زفافهما: يليقان ببعضهما جداً. لا أريد أن أدمّر عائلته، يكفيني أنه يعاملني بطريقة جيدة. إنه محب جداً؛ ولا يغضب مني عندما أشعر بالإحباط أو أفقد أعصابي. عندما سألته عن سبب صبره ذاك قال: "كيف يمكن لرجل أن يسمّي نفسه رجلاً إن غضب من امرأة متألمة؟" هل سمعت في حياتك حناناً مماثلاً؟ حسناً، لن أزعجك أكثر من هذا، لكني أردت إخبارك كل شيء. تصبحين على خير يا صديقتي العزيزة".

لم أتمكن من النوم لليالٍ طويلة وأنا أتساءل إن كان ممكناً حقاً وجود حب مثالي كهذا بين الرجال والنساء. تمنّيت أن تتمكّن ينغ إر من إثبات ذلك وتمنحني القليل من الأمل.

لم أرَ ينغ إر خلال الأشهر القليلة التي تلت إذ انعزلت في نعيم الحب. وعندما رأيتها مجدداً صُدمت من منظرها، فقد كانت نحيلة جداً وشاحبة. أخبرتني أن زوجة 'وو' راسلته لتأمره أن يختار بين الطلاق وبين هجر ينغ إر. بكل سذاجة ظنّت ينغ إر أن 'وو' سيختار البقاء معها بما أنه بدا غير قادر على العيش من دونها. بالإضافة إلى ذلك، كانت ثروته ضخمة لدرجة أن اقتسامها مع زوجته لن يؤثر على أعماله كثيراً. لكنه عندما تواجه مع زوجته، التي أتت من تايوان، أعلن أنه لن يتخلى لا عن الزوجة ولا عن الثروة وأمر ينغ إر بالخروج من حياته. منحاها هو وزوجته ١٠,٠٠٠ دولار أميركي عربون امتنان لمساعدتها في الأعمال في نانجينغ.

كانت ينغ إر مُدمَّرة وطلبت من 'وو' الانفراد به لتسأله ثلاثة أسئلة. سألته إن كان قراره نهائياً فأجابها أنه كذلك. سألته إن كان صادقاً في تعبيره عن عاطفة الحب التي أظهرها نحوها من قبل، أجابها أنه كان كذلك. أخيراً، سألته ينغ إر كيف يمكن لمشاعره أن تتغير فأجاب بصراحة تامة أن العالم في حالة مستمرة من التغير، ثم أعلن أن الأسئلة الثلاثة التي يحق لها طرحها قد انتهت.

عادت ينغ إر إلى حياتها 'كمرافقة' وقد اقتنعت أن الحب الحقيقي غير موجود. هذه السنة، وبعد أقل من شهرين بعد تخرجها، تزوجت رجلاً أميركياً. في رسالتها الأولى إلي من أميركا كتبت:

"لا تفكري أبداً بالرجل على أنه شجرة يمكنك الاحتماء في ظلّها. النساء مجرد سماد يتعفن ويموت ليجعل الشجرة أقوى... لا يوجد حب حقيقي. إن الأزواج الذين يبدو عليهم الحب يبقون معاً من أجل المنفعة الشخصية، سواء كان المال أو السلطة أو النفوذ".

من المؤسف أن ينغ إر أدركت ذلك بعد فوات الأوان".

صمتت جين شواي متأثرةً بما آلت إليه أحوال صديقتها.

سألتها بفضول: "هل تنوين الزواج يا جين شواي؟".

"لم أفكر في الأمر كثيراً. لا يمكنني تخيّل الحب. لدينا أستاذ هنا في الجامعة يستغل سلطته ليقرر علامات الامتحانات. يستدعي الطالبات الجميلات من أجل حديث صريح وصادق يؤدي بهم إلى غرفة في الفندق. هذا سرّ علني، فالجميع يعلم ذلك ما عدا زوجته: يشتري لها كل ما تتمناه ويقوم عنها بالأعمال المنزلية مدّعياً أنه لا يستطيع رؤيتها هي تقوم بذلك. هل يمكنك تصديق أن البروفيسور الخائن والزوج المتفاني هما الشخص نفسه؟

يُقال إن "النساء يقدّرن العواطف، والرجال يقدّرون الجسد". إن كان هذا التعميم صحيحاً، فلمَ الزواج؟ إن النساء اللواتي يبقين مع أزواجهن الخائنين حمقاوات".

قلتُ إن النساء غالباً ما يكنّ عبدات لعواطفهن وأخبرتُ جين شواي عن أستاذة جامعية أعرفها. فمنذ عدة سنوات، رأى زوج هذه الأستاذة، الذي كان هو أيضاً أكاديمياً، أن الكثير من الناس يجنون أموالاً طائلة من تأسيس أعمال تجارية خاصة، فقرر ترك عمله والقيام بالمثل. قالت له زوجته إنه لا يملك مهارات إدارة الأعمال ليتمكن من المنافسة، وذكّرته بمهاراته: التعليم والأبحاث والكتابة، فاتّهمها زوجها

باحتقاره وصمّم أن يثبت أنها على خطأ. لكنه فشل في أعمال التجارة فشلاً ذريعاً: استنفذ كل مدّخرات العائلة ولم يكن لديه شيئاً آخر يعتمد عليه، فأصبحت المرأة هي المعيل الوحيد للعائلة.

كان زوجها العاطل عن العمل يرفض مساعدتها في المنزل، وعندما طلبت منه المساعدة كان يرفض بحجة أنه رجل ولا يمكنه القيام بأعمال أنثوية. كانت المرأة تذهب إلى العمل باكراً وتعود إلى المنزل في ساعة متأخرة منهكةً من التعب. زوجها، الذي لم يكن ينهض من السرير قبل الساعة الواحدة بعد الظهر ويمضي اليوم كله في مشاهدة التلفاز، كان يدّعي أنه كان أكثر انهاكاً بسبب ضغط بطالته. فهو لم يكن ينام جيداً وفقد شهيته للطعام، ولذلك كان بحاجة إلى طعام جيد وصحي ليستجمع قواه.

كانت زوجته تمضي كل أوقات فراغها في إعطاء دروس خصوصية للأولاد من أجل الحصول على مالٍ إضافي، وكان زوجها في المقابل ينتقدها لأنها تنهك نفسها، لكنه لم يُتعِب نفسه قط في التفكير حول كيفية حصول العائلة على الملبس والمأكل. كانت أستاذة الجامعة ترفض إنفاق المال على شراء ثياب جديدة لها أو أدوات تجميل، لكنها كانت تشتري لزوجها البذلات الأنيقة والأحذية الجلدية. إلاّ أنه لم يكن يُظهر لها أي اعتراف بالجميل أو تقدير للمجهود الذي تقوم به، بل كان يتذمر من أن زوجته لم تعد أنيقة ومرتّبة كما كانت من قبل، مقارناً إياها بسيدات أصغر سنّاً وأكثر جاذبية . ورغم مستواه الثقافي والعلمي العالي، كان يبدو مثل فلاحٍ قلق يريد أن يُثبت قوته وسلطته ومركزه كرجل.

كان زملاؤها في الجامعة يلومونها على تدليلها لزوجها بذلك الشكل. حتى أن طلابها عبّروا عن استيائهم وسألوها عن سبب تحمّلها كل ذلك الشقاء من أجل رجلٍ جاحد. فكانت تجيب في عجز: كان يحبني فيما مضى حبّاً جمّاً".

أغضبت قصتي جين شواي، لكنها أدركت أن ذلك كان حال معظم النساء.

"أعتقد أن أكثر من نصف العائلات الصينيات يتألّف من نساء يعملن فوق

طاقتهن ومن رجال يتذمّرون أو يتحسّرون على طموحاتهم التي لم تتحقق فيلومون زوجاتهم ويُصابون بثورات غضب. والأكثر من ذلك أن العديد من الرجال الصينيين يعتقدون أن قول بعض الكلمات المُحبّة والودودة لزوجاتهن يقلّل من شأنهم ويهين كرامتهم. أنا ببساطة لا أستطيع فهم ذلك. ما الذي حصل للاحترام الذاتي للرجل الذي يستطيع العيش على نفقة امرأة ضعيفة بكل راحة ضمير؟".

أغظتها قائلةً: "تبدين مثل مناصرةٍ لحقوق المرأة".

"أنا لست من مناصري حقوق المرأة، لكني ببساطة لم أجد أي رجال حقيقيين في الصين. أخبريني، كم من النساء كتبن إليك ليخبرنك أنهن سعيدات مع أزواجهن؟ وكم من الرجال الصينين كتبوا إليك طالبين منك أن تقرأي رسالةً يُعبّرون فيها عن مدى حبهم لزوجاتهم؟ لماذا يعتقد الرجال الصينيون أن قول كلمة "أحبكِ" لزوجاتهم يُضعف مكانتهم كرجال؟".

كان الرجلان الجالسان إلى الطاولة المجاورة يشيران إلى حيث كنا جالستين. تساءلتُ عن رأيهما في ما سمعاه من عبارات جين شواي العنيفة.

"حسناً، هذا قول يستعمله الرجال الغربيون ومرد ذلك إلى ثقافتهم"، قمت بمحاولة الدفاع عن واقع أنني لم أتلقَّ قط رسالة كتلك.

"ماذا، تعتقدين أن هذا مرّده إلى اختلاف الثقافات؟ كلا، إن لم يكن الرجل يملك الشجاعة لقول تلك الكلمة للمرأة التي يُحب أمام العالم كله، فهل يمكنك تسميته رجلاً؟ بالنسبة إلي، ليس هناك رجال في الصين".

صمتُّ. ماذا يمكنني أن أقول في مواجهة قلب امرأة شابة جداً لكن قاسٍ وباردٍ جداً؟ أما هي فضحكت.

"يقول أصدقائي إن الصين قد تمكنت أخيراً من مجاراة بقية العالم في ما يتعلق بمواضيع أحاديثنا. وبما أننا لم يعد لدينا سبب للقلق بخصوص عدم توفّر الطعام الكافي أو الملبس، فقد صرنا، عوضاً عن ذلك، نناقش العلاقة بين الرجال والنساء. يجب أن نتنافس مع أكثر من خمسين مجموعة إثنية، ومع تغيرات سياسية لا

محدودة ووصفات لسلوك ولباس النساء؛ حتى أننا نملك أكثر من عشر مفردات مختلفة لكلمة زوجة".

للحظة بدت جين شواي مثل فتاةٍ بريئة مرحة غير مهتمة بشيء. كان حماسها يليق بها أكثر من درع فتاة العلاقات العامة، وقد أعجبتني أكثر.

قالت: "هل يمكننا التحدث عن كل تلك الأقوال المشهورة التي تتناول النساء يا شيران. على سبيل المثال، "المرأة الصالحة لا تذهب مع رجلٍ آخر". كم من النساء الأرامل في تاريخ الصين لم يفكّرن حتى في الزواج مرةً ثانية كي يحافظن على سمعة عائلاتهن؟ كم من النساء "أخصَيْنَ" طبيعتهن الأنثوية من أجل المظاهر؟ آه، أعرف أن كلمة "أخصت" ليست كلمة تُستخدم للتكلم عن النساء، لكن هذا هو واقع الأمر. مازال هناك الآن نساء كهؤلاء في الأرياف. وهناك القول المتعلق بالسمكة..."

"أية سمكة؟" لم أكنت قد سمعت بهذا التعبير المجازي قط وأدركتُ أنني لا بدّ أبدو جاهلة تماماً في نظر الجيل الأصغر سناً.

تنهّدت جين شواي بتباهٍ ونقرت على الطاولة بأظفارها الملمّعة. "آه، مسكينة يا شينران. أنتِ حتى لا تعرفين تصنيف النساء المختلف بطريقة صحيحة. كيف يمكنك أن تأملي فهم الرجال؟ دعيني أُفهمك. عندما يشرب الرجال الكحول يبتكرون مجموعة من العبارات لتحديد النساء. العاشقات يشبهن 'سمكة أبو سيف'، لذيذة لكن عظامها حادة. 'السكرتيرات الشخصيات' كسمك الشبوط، كلما طُهيهت على نار هادئة زادت نكهتها أكثر. زوجات الرجال الآخرين هن السمك المُنتفخ الياباني، مجرد تجربة لقمة واحدة يمكنها أن تقضي عليك، لكن المجازفة في الموت هي مصدر فخر".

"وماذا عن زوجاتهم هم؟".

"سمك قدّ مُمَلّح".

"سمك قدّ مملّح، لماذا؟".

"لأن سمك القدّ المملّح يدوم لوقت طويل. عندما لا يتوفر أي طعام آخر يكون

سمك القدّ المملّح مناسباً وبخساً ويشكّل وجبة جيدة مع الأرز... حسناً، يجب أن أذهب إلى 'العمل'. لم يكن عليك أن تصغي إلي أتكلم مطوّلاً عن أمور غير مهمة بالنسبة إليك. لماذا لم تقولي شيئاً؟".

كنت صامتة وغارقة في التفكير في التشبيه المخيف بين الزوجات وسمك القدّ.

"لا تنسي أن تجيبي عن أسئلتي الثلاثة في برنامجك: ما هي الفلسفة التي تملكها النساء؟ ما هي السعادة بالنسبة للمرأة؟ وما الذي يجعل المرأة امرأة صالحة؟".

أنهت جين شواي فنجان الشاي، التقطت حقيبة يدها ورحلت.

تأمّلت في أسئلة جين شواي لفترة طويلة، لكني أدركت أنني لا أملك الأجوبة. يبدو أن هناك هوّة عميقة بين جيلها وجيلي. خلال السنوات القليلة التي تلت توفرت لي فرصة لقاء العديد من الطالبات الجامعيات. كانت طباع وذهنية وطرائق عيش الجيل الجديد من النساء الصينيات اللواتي كبرن خلال فترة "الإصلاح والانفتاح" مختلفة عن أهاليهن، لكن بالرغم من نظرياتهن المثيرة والمهمة عن الحياة كانت هناك طبقة عميقة من الفراغ خلف أفكارهن.

هل يمكن لومهنّ على ذلك؟ لا أعتقد ذلك. كان هناك شيء مفقود خلال نشأتهن جعلهن ما هنّ عليه، فهنّ لم يحصلن أبداً على بيئة طبيعية محبّة ينمين فيها.

منذ المجتمعات الأمومية في الماضي البعيد جداً، وموقع النساء الصينيات دائماً في المستوى الأدنى. فقد كن يُصنفن كأشياء وجزء من الملكية، ويتم تقاسمهن مع الطعام والأدوات والأسلحة. فيما بعد سُمح لهنّ بدخول عالم الرجال، لكن كان مسموحاً لهن بالتواجد فقط عند أقدام الرجال - معتمدات كلياً على طيبة أو ظلم الرجل. إن قمنا بدراسة الهندسة الصينية نجد أن سنوات عديدة مرّت قبل أن تتمكن النساء من الانتقال من الغرف الجانبية الموجودة في فناء العائلة (حيث يحتفظون بالمعدّات وينام الخدم) إلى غرف بجانب الحُجَر الرئيسية (حيث يعيش سيد المنزل وأبناؤه).

إن التاريخ الصيني طويل جداً، لكن مضى وقت قصير جداً منذ توفّرت الفرصة للنساء الصينيات كي يصبحن أنفسهنّ ومنذ أن بدأ الرجال بالتعرّف إليهن.

في الثلاثينيات، عندما كانت النساء الغربيات يطالبن بالمساواة الجنسية، كانت النساء الصينيات قد بدأن للتو بتحدي المجتمع الخاضع لسلطة الذكر، حيث رفضن أن تُربط أرجلهن أو أن تُدبّر زيجاتهن من قبل الأجيال الأكبر سناً. لكنهن لم يكنّ يعرفن ما هي مسؤوليات النساء وحقوقهن؛ لم يعرفن كيف يربحن لأنفسهن عالماً خاصاً بهن، ورحن يبحثن بجهل عن إجابات ضمن مساحتهن الخاصة الضيّقة في بلد كل شكل من أشكال التعليم فيه محدّد من قبل الحزب. إن الأثر الذي تركه ذلك على الأجيال الشابة مقلق. ومن أجل التمكن من العيش في عالمٍ قاس اعتمد الكثير من الشباب ذلك المظهر الصلب مثل مظهر جين شواي وقمعوا عواطفهم.

٤

الزبّالة

عند حائط محطة الإذاعة، ليس بعيداً عن الحراس، كان هناك صف من الأكواخ الصغيرة المبنيّة من الخردة والصوف والقماش والأكياس البلاستيكية. كانت النساء اللواتي يعشن فيها يُعلْنَ أنفسهن من جمع النفايات وبيعها. لطالما تساءلت من أين أتين وما الذي جمعهن معاً، وما الذي جرى لهنّ وأوصلهنّ إلى هذه الحال. على كل حال، كان اختيارهن مكاناً آمناً نسبياً لبناء أكواخهن قراراً حكيماً، فهن لا يحتجن إلاّ إلى صرخة واحدة في حال حصول أي أمر ليأتي إليهم الحراس المسلّحون الموجودون عند الجهة الأخرى من الجدار.

من بين تلك الأكواخ المبعثرة برز واحد هو الأصغر بينها. لم تكن المواد التي استُعملت لبنائه مختلفة عن المواد التي بُنيت بها الأكواخ الأخرى لكنه تميّز بالدّقة التي صُمِّم بها. كانت الجدران المؤلفة من قطع السيارات وغيرها من أنواع الخردة مطليّة بلون أصفر يشبه لون الغروب، وكان غطاء السطح على شكل برج قلعة. كانت هناك ثلاث نوافذ صغيرة مصنوعة من أكياس بلاستيكية حمراء وصفراء وزرقاء، وباب مصنوع من الكرتون الملون المنسوج بشرائط من الأغطية البلاستيكية التي تمنع دخول الريح والمطر. تأثرتُ بالدقة في التفاصيل التي استُعملت لبناء هذا الكوخ الهشّ، كما أني وجدت الأجراس المصنوعة من قطع الزجاج المكسور التي كانت ترنّ فوق الباب مؤثّرة بشكل خاص.

مالكة هذا الكوخ امرأة نحيلة وضعيفة تجاوزت الخمسين من العمر. لم يكن كوخها وحده فريداً وإنما مظهرها الخارجي أيضاً الذي كان يميزها عن الزبّالات الأخريات. كانت وجوه معظمهن متّسخة وشعورهنّ شعثاء وثيابهن رثّة جداً، أما تلك المرأة فكانت دائماً أنيقة ونظيفة وكانت ثيابها البالية نظيفة تماماً ومَرتبَة. أما الكيس الذي كانت تستعمله لجمع النفايات فلم يكن يدلّ قط على أنها امرأة مشرّدة تعتاش من الزبالة. كانت تهتم بشؤونها ولا تختلط كثيراً بالآخرين.

عندما أخبرتُ زملائي بما لاحظته عن تلك المرأة المشرّدة راحوا واحداً تلو الآخر يشيرون إلى أنهم هم أيضاً انتبهوا إلى ذلك إذ لم يريدوا أن يجعلوني أشعر أنني فريدة بأي شكل من الأشكال. حتى إن أحدهم أخبرني أن تلك النساء المشرّدات مستمعات متحمّسات لبرنامجي. لم أستطع معرفة إن كانوا يقولون الحقيقة أم يقصدون الهزء بي.

كان بيغ لي، الذي يغطي المسائل الاجتماعية، يصغي من الركن وراح ينقر سطح مكتبه بالقلم في حركة تدل على أنه على وشك إلقاء محاضرة على زملائه الأصغر منه سناً.

"لا يجب أن تشفقي على المشرّدات، فهن لسن فقراء أبداً. إن أرواحهن تتعالى فوق العالم المادي بطريقة لا يمكن للناس العاديين تصوّرها أبداً. ليس هناك في حياتهن مكان للممتلكات المادية، لذلك فإن رغباتهن المادية سهلة الاكتفاء. وإن أخذتم المال معياراً، تحكمون به على الناس، ستجدون أن حال بعض تلك النساء ليست أسوأ من حال أشخاص يشغلون وظائف أخرى". ثم أخبرنا أنه رأى مرةً امرأةً مشردة في نادٍ ليلي غالٍ، مغطاة بالمجوهرات وتحتسي البراندي الفرنسي الذي سعر الكأس الواحدة منه مئة يوان.

أجابت مينغشينغ، التي تهتم بالبرنامج الموسيقي، بسرعة وبسخرية: "يا لهذا الهراء!". بالنسبة لها كان فارق السن بينهما وحده كافياً لعدم تصديق أي شيء مما يقوله بيغ لي.

بيغ لي، الذي هو من أكثر الرجال حذراً في العادة، تخلّى عن حذره بشكل مفاجئ وعرض على مينغشينغ المراهنة بخصوص هذا الأمر. يحب الصحافيون إثارة الأمور لذلك بدأ الجميع بحماسة يقدمون اقتراحات حول ما يجب أن يكون الرهان، ثم قرروا أنه يجب أن يكون دراجة.

وللتمكن من تنفيذ الرهان كذب بيغ لي على زوجته وأخبرها أنه سيتأخر في العودة إلى البيت لأن عليه كتابة تقارير مسائية، وأخبرت مينغشينغ صديقها الحميم أن عليها القيام ببعض الأبحاث عن الموسيقى المعاصرة. كل ليلة، ولعدة أيام متتالية، كان الاثنان يذهبان إلى النادي الليلي الذي ادّعى بيغ لي أن المرأة المشرّدة ترتاده.

خسرت مينغشينغ الرهان. فقد أخبرتها المرأة المشردة، وهي تحتسي الويسكي، أن مدخولها من بيع النفايات بلغ ٩٠٠ يوان شهرياً. أخبرنا بيغ لي أن مينغشينغ بقيت في حالة صدمة بضع ساعات. فقد كانت تجني ٤٠٠ يوان في الشهر وكانت تُعتبر من الموظفات المحظوظات في فئتها. ومنذ ذلك الحين لم تعد مينغشينغ تهتم بقيمة العمل الفنية؛ طالما أنها كانت قادرة على جني المال، وكانت تقبل أي عمل مهما كان نوعه. قال الجميع في المكتب أن خسارتها درّاجتها هي التي أدّت إلى هذه الواقعية الجديدة.

رغم ملاحظتي للسيدة الأنيقة التي كانت تعيش في قلعة الخردة، لم أُعِرْ الطريقة التي كانت الزبّالات يمضين بها نهارهن أي انتباه. وبصراحة، كان جزء مني يتفاداهن. لكن بعد لقاء مينغشينغ المرأةَ الزبّالة في النادي الليلي صرتُ كل مرة أرى فيها أشخاصاً يفتشون في الزبالة أحاول أن أحزر إن كانوا فعلاً "أشخاصاً أثرياء". لربما كانت أكواخ النساء الزبّالات هي بكل بساطة أماكن عملهن وأن منازلهن كانت شققاً عصرية جداً.

كان حَمْلُ واحدة من زميلاتي، تزياو ياو، هو الذي جعلني أتعرّف إلى المرأة الزبّالة. فما إن علمت تزياو ياو أنها سترزق بطفل حتى بدأت البحث عن مربّية.

والبحث عن مربية قبل ولادة الطفل بتسعة أشهر هو أمر مفهوم إذ إن إيجاد من هو جدير بالثقة ليعتني بالطفل ويقوم بأعمال المنزل لم يكن بالأمر السهل أبداً.

المربّية التي تعمل لدي لطيفة ونزيهة ومجتهدة، فتاة ريفية عمرها تسعة عشر عاماً أتت وحدها من الريف إلى المدينة الكبيرة هاربةً من زواج إجباري. كانت تتمتع ببعض الذكاء الفطري لكنها لم تتلقَّ أي تعليم الأمر الذي شكّل ذلك عائقاً كبيراً لها: لم يكن باستطاعتها التفريق بين ورقة نقدية وأخرى أو فهم إشارات المرور، وفي المنزل كانت تغرق في بحرٍ من الدموع لعدم تمكنها من نزع غطاء طنجرة الأرز الكهربائية، أو لأنها لم تفرّق بين البيض المخلل الفاخر والبيض العَفِن فترميه في سلّة المهملات. وقد أشارت مرةً إلى سلة قمامة على جانب الطريق وأخبرتني بكل جدية أنها وضعت رسائلي في "صندوق البريد" ذاك. كنت كل يوم أترك لها تعليمات دقيقة عمّا يجب أن تفعله وما يجب أن لا تفعله، ثم كنت أتصل باستمرار من المكتب لأتأكد إن كان كل شيء على ما يرام. لحسن الحظ، لم تقم أبداً بشيء خاطئ أدى إلى أمر رهيب، وكانت تجمعها وبان بان علاقة ودودة مُحبّة. مرة واحدة فقط حصل أمر جعلني غير قادرة على ضبط نفسي وعدم الشعور بالغضب. كنا في فصل الشتاء، وحين وصلت إلى المنزل بعد الانتهاء من برنامجي وجدت بان بان، وكان عمره آنذاك ثمانية عشر شهراً، جالساً في بيت درج الطابق الخامس وليس عليه سوى ثياب نوم رقيقة. كان يرتجف من البرد القارس لدرجة أنه لم يكن قادراً على البكاء إلا بصوت متقطع. أخذته بسرعة بين ذراعي وأيقظت المربية النائمة وأنا ألوم نفسي لعدم قدرتي على إعطاء ابني الوقت والعناية اللذين يجب على الأم أن توفرهما لولدها.

لم أناقش أبداً صعوبات العناية بطفلي مع زملائي، لكني سمعت العديد من القصص المروّعة من أشخاص آخرين. كانت الصحف مليئة بتلك القصص. خادمات مُهمِلات تركن أطفالاً يقعون عن حافة نوافذ في الطابق الرابع ويموتون. أخريات، جاهلات وغبيات، وضعن الأطفال في الغسّالة لينظفوهم، أو وضعوهم في البراد

وأغلقوا الباب عليهم خلال لعبة "غُميضة". كانت هناك أيضاً بعض الحالات حيث اختُطف أطفال من أجل المال أو حيث كانوا يتلّقون ضرباً مبرحاً.

قلة فقط من الأزواج كانت مستعدة لطلب المساعدة من أهلهم للاعتناء بالأطفال لأن ذلك كان يعني العيش معاً تحت سقفٍ واحد. كانت الأغلبية مستعدة لأن تكون حياتهم أصعب وذلك تفادياً لعين الأجيال الأكبر سناً الناقدة. كانت الحموات الصينيات، خاصةً التقليديات وذات التحصيل العلمي المحدود منهن، مشهورات بترهيب زوجات أبنائهن، بعد أن عشن هنّ أنفسهن حالة خوف شديد في ظلّ حمواتهن. من جهة أخرى، لم يكن أمراً عملياً أن تترك امرأة وظيفتها وتصبح أماً بدوام كامل، إذ من المستحيل إعالة العائلة بدخل محدود واحد. كما أن بقاء الزوج في البيت للاعتناء بالأطفال هو أمر مستحيل آخر.

بعد أن سمع توسلات تزياو ياو لمساعدتها في إيجاد مربية أمينة ومحبّة ولا تتقاضى الكثير، أجاب تشين العجوز بعَبَث قائلاً: "هناك الكثير من النساء اللواتي يجمعن القمامة في هذا المكان، لِمَ لا تطلبين من إحداهن أن تأتي للعمل لديك؟ على الأقل لن تقلقي حول إمكانية هروبها وكذلك لن يكون عليك دفع الكثير من المال لها".

يقول الناس إن الرجال قادرون على رؤية الصورة بأكملها وأن النساء ماهرات في رؤية التفاصيل. مثل جميع الأحكام العامة، لم أعتقد أبداً أن هذا الحكم العام صحيح، لكن ملاحظة تشين العجوز غير الجدّية جعلتني أندهش من نوع العبقرية التي تنبع من الغباء والتي نجدها عند الرجال أحياناً. لم أكن الوحيدة التي شعرت بذلك، فقد تحمست كثيرات من زميلاتي أيضاً للفكرة جداً: "نعم! لماذا لم نفكر بذلك من قبل؟".

شاع هذا الأمر بسرعة، تأكيداً لكلمات الرئيس ماو الشهيرة: "شرارة واحدة قادرة على إشعال النار وانتشارها". فقد أصبح اختيار واحدة من الزبالات للعمل كمربية موضوعاً شيّقاً بشكل غريب لأحاديث زميلاتي على مدى عدة أيام. وبما

أن أولادهن كانوا من أعمار مختلفة فقد فكّرن أن بإمكانهن إيجاد واحدة تعتني بأولادهن جميعاً. ووضعن خططاً مفصّلة حول كيفية مراقبتها وتقييمها ونوع القوانين التي يجب وضعها لها.

بعد ذلك بفترة قصيرة طُلب مني أن أحضر اجتماعاً نسائياً في غرفة الاجتماعات الصغيرة الموجودة قرب حمامات النساء، ولم أكد أجلس وأسألهن إن كن قد قمن بدعوة الشخص الخطأ إلى ذلك الاجتماع حتى أعلنّ أنه تم اختياري بالإجماع لأنوب عنهن في اختيار مربية من بين النساء المشردات اللواتي يعشن قرب محطة الإذاعة، ثم وبطريقة مصممة وغير قابلة للنقاش شرحن المعايير التي أدّت بهن إلى اختياري كممثلة لهن. كانت تلك هي المرة الأولى التي تظهر فيها زميلاتي أي نوع من التقدير لي. فقد قُلن إنني أبدو صادقة وإن لدي لمسة إنسانية ورجاحة العقل وإنني كنت دقيقة ونظامية وأهتم لأمور الآخرين. ورغم شكي بدوافعهن السرية فقد تأثرت بالتقدير الذي أظهرنه لي.

خلال الأيام القليلة التالية بدأت باختلاق الأعذار للذهاب إلى أكواخ الزبّالات، لكن نتائج مراقبتي كانت مخيّبة: مراقبة النساء يفتشن في الزبالة عن نفايات صالحة للاستعمال جعلت من الصعب تخيّلهن كأشخاص عقلانيين مُحبين، فكيف بالحري دعوتهن إلى المنزل. كُنّ يمسحن أنوفهن بأي شيء في متناولهن، وتلك اللواتي لديهن أطفال كن يضعنهم تحت آباطهن ليتمكنّ من التقاط النفايات بسهولة، وبواسطة قطعة من الورق فقط كن ينظّفن أنفسهنّ بعد أن يتغوّطن على جانب الطريق.

كانت المرأة المشردة الوحيدة الجديرة بالتفكير بها للقيام بذلك هي المرأة صاحبة قلعة الخردة. فخلال نشاطها اليومي كانت تُظهر لطفاً ونظافةً ودفئاً. وبعد عدة محاولات فاشلة استجمعت شجاعتي واستوقفتها في طريق عودتها إلى بيتها.

"مرحباً، اسمي شينران. أنا أعمل في محطة الإذاعة. عذراً، لكن هل يمكنني التكلم معك؟".

"مرحباً. أنا أعرفك. أنت مقدمة برنامج 'كلمات على نسيم الليل'. أنا أستمع إلى برنامجك كل ليلة. كيف يمكنني أن أخدمك؟".

"ما في الأمر أن ..." أنا، مقدمة البرامج الإذاعية التي يمكنها أن تُسهب في الكلام دون توقف أمام الميكروفون، فجأةً أصبحتُ غير قادرة على صنع جملة واضحة لدرجة أنني، أنا نفسي، لم أتمكن من فهم ما كنت أقول.

فهمت المرأة الزبّالة بسرعة ما أردتُ قوله، وأجابتني بهدوء لكن بتصميم: "أرجو أن تشكري زميلاتك على رأيهنّ اللطيف بي، لكن سيكون من الصعب جداً علي أن أقبل عرضهنّ الكريم. أنا أحب أن أعيش حياة خالية من أي قيود". نسفت كل مواهب الإقناع التي رأتها زميلاتي فيّ بجملة واحدة هادئة.

عندما أخبرت زميلاتي بما قالته لم يصدّقن آذانهن. "مقدمة البرامج الإذاعية العظيمة لم تتمكن حتى من إقناع امرأة زبّالة ..."

لم يكن بمقدوري القيام بأي شيء. إن النظرة في عيني السيدة الزبّالة منعت أي مجال للنقاش. فقد شعرت أنّ على محيّاها كان هناك أكثر من مجرد رفض عادي، لكني لم أعرف ما هو.

منذ ذلك الحين أصبحت مراقبة قلعة الخردة ومالكته جزءاً من روتيني اليومي. في مساء أحد أيام الشهر الثاني من فصل الخريف، حصلتُ أخيراً على فرصة ثانية للاقتراب من الكوخ الصغير. بعد أن انتهيت من تقديم برنامجي مررت بجوار أكواخ الزبّالات كالعادة، وعندما مررت بجانب قلعة الخردة سمعت غناءً خافتاً - كانت الأغنية الشعبية الروسية 'غراسلاند'، وقد أثار ذلك فضولي بقوة. فبعد الثورة الثقافية دخلت الصين في حرب باردة أخرى مع روسيا، لذلك لم يكن الكثير من الناس يعرفون تلك الأغنية؛ حتى أن القليلين فقط كانوا يعرفونها جيداً ليتمكنوا من غنائها. درست أمي اللغة الروسية في الجامعة وعلّمتني تلك الأغنية. كيف للمرأة المشرّدة أن تعرف هذه الأغنية؟

اقتربت أكثر من قلعة الخردة فتوقف الغناء فجأةً وفتحت النافذة المزخرفة

بهدوء، وسألتني السيدة الزبّالة التي كانت مرتدية ثياب نوم مصنوعة يدوياً: "ماذا هناك؟ هل تحتاجين إلى شيء؟".

"أنا ... أنا آسفة، أردت فقط أن أستمع إليك تغنين، صوتك جميل جداً!".

"حقاً؟ هل تحبين هذه الأغنية يا شيزان؟".

"نعم، نعم! أحبها كثيراً. أحب الكلمات واللحن معاً، خاصةً في ساعة متأخرة من الليل. إنها مثل صورة متكاملة من كل النواحي".

"هل يمكنك أن تغنيها؟"

"قليلاً، لكن ليس جيداً. يبدو أن ليس باستطاعتي إيصال نكهتها".

"أنتم الذين تعملون في الإذاعة أشخاص غريبون؛ تُحْيُون الكلمات لكن لا يمكنكم الغناء. كيف هي نكهة الأغنية إذاً؟ حلوة؟ مرّة؟ حادّة؟".

"اعذريني، لكن بماذا يجب أن أناديك؟".

"جميعكم تدعوننا الزبّالات، أليس كذلك؟ أظن أنها طريقة جيدة لتدعوننا بها. لذلك ناديني بالزبّالة. الزبّالة، مناسبة لي تماماً".

"أليس ذلك خالٍ من اللياقة؟".

"لا تقلقي بشأن ذلك يا شيزان. ناديني فقط بالزبّالة 'أ' أو 'ب' أو 'ث'، لا فرق. إذاً كنت تستمعين إليّ وأنا أغني لنفسي. ألم يكن هناك شيء آخر تريدينه؟".

"كلا، كنت مارّة من هنا في طريق العودة إلى منزلي بعد انتهائي من تقديم البرنامج، وعندما سمعتك تغنّين تلك الأغنية الروسية الشعبية ظننت أن ذلك غير اعتيادي قليلاً. اعذريني، لكن هل يمكنني سؤالك من أين تعرفين هذه الأغنية؟".

"زوجي علّمني إياها؛ لقد تابع دراسته في روسيا".

لم تقل الزبّالة أكثر من ذلك، ولم تدعني لدخول قصرها، لكنني لم أهتم، لأن الأغنية الروسية أعطتني مفتاحاً صغيراً إلى داخل ذكرياتها.

بعد حديثنا تلك الليلة، لم تُظهر المرأة المشرّدة أي حماسة عندما رأتني مجدداً. كان رأسي يعجّ بالأسئلة: إذا كان زوجها طالباً في الخارج، فما الذي جرفها إلى حياة

التشرد؟ كان حديثها مثقّفاً وحركاتها راقية - من أي نوع من العائلات هي؟ أي نوع من التعليم تلقّت؟ هل لديها أولاد؟ إن كان لديها أولاد فأين هم؟

بعد ذلك بوقتٍ قصير، وبمناسبة اقتراب حلول رأس السنة، ذهبتُ في رحلة صحافية إلى بكين. اقترحت علي صديقة لي في إذاعة بكين زيارة مركز "لوفتهانسا"، وهو مركز تسوق يبيع ماركات أجنبية معروفة. وجدت علبة شوكولاتة روسية محشوّة بالكحول. كانت باهظة الثمن لكنني، رغم ذلك، قررتُ شراءها. سخرت صديقتي من جهلي: الجميع يعلم أن أفضل أنواع الشوكولاتة المحشوّة بالكحول هي الشوكولاتة السويسرية، ولم يسمع أحد من قبل قط بالشوكولاتة الروسية المحشوة بالكحول. لكنني أردت شراءها من أجل المرأة الزبّالة، فقد كنت متأكدة من أن الشخص الذي يستطيع غناء أغنية روسية شعبية بتلك الجودة سيقدّر علبة الشوكولاتة هذه ويفرح بها.

عند عودتي من بكين لم أستطع منع نفسي من التوجّه مباشرةً إلى قلعة الخردة بدلاً من الذهاب إلى المنزل أولاً. ترددت قبل أن أطرق باب السيدة الزبّالة. يقول الصينيون: "في هذا العالم، ليس هناك حب من دون سبب، وليس هناك كره من دون قضية". كيف يمكنني شرح سبب شرائي هديةً لها، بينما لم يكن باستطاعتي شرحه لنفسي؟

تأثرت السيدة الزبّالة جداً وتناولت العلبة مني باحترام بيديها الاثنتين. هي التي لا تنفعل عادةً بدا عليها التأثير الشديد عند رؤية الشوكولاتة. أخبرتني أن زوجها كان يحب هذا النوع من الشوكولاتة المحشوة بالكحول - تماماً مثلما خمّنتُ، فالأشخاص الذين ينتمون إلى ذلك الجيل يعتقدون أن أفضل الأشياء هي السوفييتية - وأنها لم ترها منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

عاد الهدوء تدريجياً إلى وجهها، وسألتني أخيراً عن سبب تقديمي لها هدية باهظة الثمن كهذه؟

أجبت بصراحة أدهشتني: "لأننا نحن الاثنتان سيدتان، ولأنني أريد سماع قصتك".

"... حسناً إذن!"، بدا أن الزبّالة أخذت قراراً فورياً، "لكن ليس هنا، فلا توجد جدران هنا. لا أحد، خاصةً إذا كانت امرأة، سيسمح للجميع بأن يروا الندوب على صدرها".

مشينا إلى تلة صغيرة في إحدى الحدائق حيث لا يمكن إلا للأشجار وأنا سماع قصة المرأة الزبّالة.

كانت قصتها مجزّأة. لم تتطرّق إلى الأسباب والنتائج، وبدا لي بقوة أنها ما زالت غير مستعدّة للإفصاح عن كل شيء. فتحت كلماتها العلبة التي حبست نفسها داخلها فقط، لكنها لم ترفع الوشاح عن وجهها.

في شبابه، تابع زوج السيدة الزبّالة دراسته في موسكو لمدة ثلاث سنوات، ثم دخل معترك السياسة بعد عودته بقليل. وقد تزامن ذلك مع الأحداث الرهيبة للحملة الشيوعية الاقتصادية والاجتماعية. وتحت رعاية الحزب، الذي مهّد له الطريق ودعمه، تزوّج السيدة الزبّالة. وبينما كانت عائلتها كلها تحتفل بولادة ولدها الثاني توفي زوجها جرّاء نوبة قلبية. وفي نهاية العام التالي توفي ولدها الأصغر جرّاء الحمّى القرمزية. جعل ألم فقدانها لزوجها وولدها المرأة الزبّالة تفقد الشجاعة والقدرة على المضي في حياتها، وفي أحد الأيام أخذت ولدها الذي ما زال على قيد الحياة وذهبت إلى ضفة نهر يانغتزه مصممةً على الانضمام إلى زوجها وولدها في الحياة الأخرى.

عند ضفة نهر يانغتزه، وكانت على وشك أن تودّع الحياة سألها ابنها ببراءة: "هل نحن ذاهبان لنرى بابا؟".

صُعقت المرأة الزبّالة: كيف يمكن لابن خمس سنوات أن يعلم مكنونات قلبها؟ سألت ابنها: "ما رأيك أنت؟".

أجاب بصوتٍ عالٍ: "بالطبع سنذهب لرؤية بابا، لكنني لم أجلب معي سيارتي اللعبة لأريه إياها!".

راحت تبكي ولم تسأل ابنها أي أسئلة أخرى، فقد أدركت أنه كان واعياً تماماً لما

تشعر به، وأنه يدرك أن أباه لم يعد موجوداً في العالم حيث هما موجودين، لكنه مثل كل الأطفال لم يكن يعي الفرق بين الحياة والموت. أحيت دموعها مشاعر أمومتها وحسّ الواجب عندها، فبكت والطفل بين ذراعيها تاركةً مياه النهر المندفعة تجرف معها ضعفها وتمدّها بالقوة، ثم تناولت رسالة انتحارها وعادت بابنها إلى المنزل.

سألها ولدها: "ألن نذهب لرؤية بابا؟".

أجابت: "بابا موجود في مكان بعيد جداً، وأنت صغير جداً لتذهب إلى هناك. ستساعدك ماما حتى تكبر لكي تتمكن من أخذ أشياء أكثر وأفضل له".

بعد ذلك فعلت المرأة الزبّالة كل ما باستطاعة أم عزباء القيام به لتومّن لولدها أفضل الأشياء. قالت إنه حقق أفضل الإنجازات والنجاحات.

لكن لماذا يسمح ابنها، الذي لا بدّ أنه الآن متزوج ولديه مهنة، أن تصبح أمه، التي كدحت كل حياتها من أجله، زبّالة؟ سألتها بتردّد: "أين ولدك؟ لماذا...؟".

لم تعطِ الزبّالة جواباً مباشراً واكتفت بالقول إن أحداً لا يمكنه وصف قلب الأم، ولمّحت بحزم أنني لا يمكنني أن أسأل أسئلة أخرى.

انتهى رأس السنة واقترب موعد مهرجان الربيع، وهو أهم مهرجان في السنة عند الصينيين وكثير من الناس يستغلّونه لتمتين علاقاتهم العملية. ففي كل سنة يستفيد موظفو الإعلام الرسميون جداً من المهرجان، وبغض النظر عن مراتبهم فإنهم يتلقّون العديد من الهدايا وعشرات الدعوات إلى مناسبات اجتماعية. ورغم أنني لم أكن في ذلك الحين سوى مقدمة برامج ولا أتمتع بأي سلطة رسمية، فقد كان الأشخاص الأثرياء والنافذون يسعون ورائي بسبب نجاح وشعبية برنامجي. ولم يكن اهتمامهم نابعاً من تقديرهم لإنجازاتي الخاصة وإنما بسبب أهمية مستمعيّ. كل المسؤولين الرسميين في الصين يعرفون الأمثولة القديمة التي تعود إلى سلالة تانغ: "يحمل الماء القارب، لكنه يستطيع أن يقلبه أيضاً". الأشخاص العاديون مثل مستمعيّ هم الماء، أما المسؤولون الرسميون فهم القارب.

من ضمن بطاقات الدعوات الذهبية والحمراء الزاهية التي تلقّيتها كانت

هناك واحدة من مسؤول طموح وناجح عُيّن مؤخراً في مجلس البلدية. كانت الإشاعات تقول إن هذا الرجل الشاب لديه قدرات على إنجاز أمور عظيمة. وكانت لديه آمال بأن يصبح واحداً من المختارين القلائل الذين يصلون إلى كادر الهيئة الإقليمية. أردت بشدة أن أعرف أي صفات مميزة كان هذا الرجل - الذي يكبرني ببضعة أعوام فقط - يملكها ليتمكن من شق طريقه عبر دهاليز السياسة الصينية، فقررت أن ألبّي الدعوة إلى العشاء الذي يقيمه. ذُكر في الدعوة أن العشاء سيكون عبارة عن بوفيه ذات نمط غربي يعتمد الخدمة ذاتية، مما سيكون شيئاً جديداً.

كان العشاء في منزل السياسي، الذي، مع أنه ليس قصراً، لكنه مذهل. كان من الممكن أن تشكّل غرفة الجلوس وحدها أربع أو خمس شقق مفروشة لأشخاص غير متزوجين مثلي. ولأني تأخرت في الوصول فقد كانت الغرفة قد امتلأت بثرثرة الجمع وصوت نقر الكؤوس. قدّمتني سيدة المنزل بعناية إلى عدة أشخاص مهمين بحسب مكانتهم الاجتماعية، ولمعت فكرة غير لائقة في رأسي: عندما تذهب هذه الشخصيات المبجّلة إلى الحمام، هل عليهم أن يذهبوا بحسب الترتيب الهرمي؟ إن كان الأمر كذلك، فلا شك أن ذوي المراتب المنخفضة يعانون جداً.

كان البوفيه الغربي فاخراً وبدا حقيقياً كفاية، وقد تفوّق على الصور التي رأيتها في المجلات. لتظهر أنها كانت تولي الإعلاميات اهتماماً خاصاً دعت المضيفة المتلهّفة، في لفتة ودٍّ، الصحافيات القليلات الموجودات إلى غرفة نومها، ثم أخرجت علبة من الشوكولاتة المحشوة بالكحول كانت قد احتفظت بها خصيصاً لنا.

أُصبتُ بالذهول: كانت الشوكولاتة مطابقة لتلك التي أهديتها للزبّالة. فتحت المضيفة العلبة. كان الغطاء يحتوي من الداخل على كلمات الأغنية الروسية الشعبية 'غراسلاندز' التي كنت نسختها بيدي من أجل الزبّالة في لفتة نيّة حسنة في العام الجديد.

كانت هذه العائلة البارزة بعيدة عن قصر خردة الزبّالة بُعد السماء عن الأرض، فكيف وصلت علبة الشوكولاتة هذه إلى هنا؟ راح دماغي يغلي بالأسئلة وتسارع

نبضي. لم تعد لدي رغبة في البقاء أكثر من ذلك في مأدبة العشاء، لذلك اختلقت عذراً وأسرعتُ راكضةً إلى قلعة الخردة كامرأةٍ ممسوسة.

لم تكن الزبّالة هناك. انتظرت وقتاً طويلاً إلى أن عادت في وقت متأخر تلك الليلة، وما إن رأتني حتى صرخت بحماسة: "رأس السنة ومهرجان الربيع هما الفصل الأكثر انشغالاً لجمع القمامة. في جميع حاويات القمامة، كبيرة أم صغيرة، هناك الكثير من الطعام الذي ما زال موضّباً وأغراض صالحة للاستعمال رماها الناس. بصراحة، إن العصر الذي نعيش فيه... لم يعد الناس يعرفون معنى الأيام الصعبة".

لم أعد أستطع السيطرة على نفسي أكثر فقاطعتها لأسألها مباشرةً: "لماذا رأيتُ للتو علبة الشوكولاتة التي أهديتها إياها في منزل سياسيٍّ واعد؟ هل سُرقت منها؟ ما الذي يجري؟".

استمعت الزبّالة إلى هذا السيل من الأسئلة بارتباكٍ كبير. كانت ترتجف بوضوح لكنها قامت بمجهود عظيم لكي تسيطر على نفسها وأجابت: "يمكننا أن نلتقي بعد مهرجان الربيع، وحينها سأخبرك".

بعد ذلك أغلقت بابها في وجهي بلا مبالاة. وقفت هناك مصدومة. أيقظني أخيراً صوت الأجراس، وهي ترنّ في الريح القارسة، من ذهولي، فاستدرت عائدةً إلى منزلي.

بدا كأن مهرجان الربيع لن ينتهي أبداً. كان الندم يتأكّلني. وحيدة في ذلك الكوخ الهشّ الذي ينوء تحت ضربات الريح والمطر، دون أصدقاء أو عائلة، آخر ما تحتاجه الزبّالة هو وزر أسئلتي الوقحة. فكرت في زيارتها، لكني كنت أعلم أن كلماتها كانت نهائية: نلتقي بعد مهرجان الربيع.

بعد عودتي إلى العمل، في أول يوم بعد انتهاء العطلة، أسرعت إلى المكتب باكراً جداً. وعندما مررت أمام قلعة الخردة وجدت الباب موصداً بالقفل. كانت الزبّالة تذهب دائماً إلى العمل باكراً جداً أيضاً، ولم يكن ذلك مفاجئاً: فمن قد يرغب في

البقاء نائماً إلى ساعة متأخرة في كوخ صغير جداً لا يؤمّن الحماية لا من الحر أو البرد؟ عند مدخل محطة الإذاعة ناداني الحارس ليقول لي إن أحدهم ترك لي رسالةً البارحة. كان الكثير من المستمعين يتكبدون مشاق تسليم رسائلهم بأنفسهم. يبدو أنهم كانوا يظنون أن ذلك أكثر أماناً، والأرجح لجذب انتباهي. شكرت الحارس، لكنني لم أعر الرسالة اهتماماً خاصاً ووضعتها في درج الرسائل الواردة.

ذلك اليوم، ذهبت إلى الخارج وعدت بسرعة حوالي أربع أو خمس مرات لأتفقد قلعة الخردة، لكن الباب كان دائماً موصداً ولم يظهر أي أثر للزبّالة. بدأت أشعر بالانزعاج قليلاً لعدم وفائها بوعدها، لكني كنت مصمّمة على انتظارها. فقد أردتُ الاعتذار منها وإيضاح الأمر المتعلق بحادثة الشوكولاتة، لذا قررّتُ البقاء في المكتب حتى المناوبة الليلية المتأخرة وقراءة رسائلي.

عند حوالي الساعة الثامنة والعشرين دقيقة مساءً خرجت مرةً أخرى أتفقدها، لكن باب قلعة الخردة كان لا يزال موصداً. تساءلتُ عن سبب بقائها في الخارج حتى الآن: هل وُفّقت بنفايات كثيرة وجيدة؟ عدت إلى المكتب وتابعت قراءة الرسائل. كانت الرسالة التالية التي فتحتها مكتوبة بخط جميل ودقيق، من الواضح أن كاتبتها كانت امرأة ذات مستوى علمي عالٍ، امرأة تلّقت أفضل تعليم. ما قرأته جعلني أتسمّر في مكاني.

عزيزتي شينران،

شكراً لك، وشكراً على برنامجك. أنا أستمع إليه يومياً. شكراً على صدقك، فقد مرّت أعوام كثيرة منذ أن كانت لي صديقة. وشكراً على علبة الشكولاتة المحشوة بالكحول، فقد ذكّرتني أنني امرأة كان لها زوج في ما مضى.

لقد أعطيت الشوكولاتة لابننا. اعتقدت أنه سيفرح بها مثلما كان أبوه يفعل في الماضي.

من الصعب جداً على الابن أن يعيش مع أمه، كما أن ذلك صعب جداً أيضاً على زوجته. لا أريد أن أعرقل حياة ابني، أو أن أجعل حياته بائسة وهو يحاول أن

يوفّق بين أمه وزوجته. لكني أجد أن من المستحيل أن أهرب من طبيعتي كأنثى ومن عادات الأم التي لا تتغير. أعيش الحياة هذه لأكون قريبة من ابني، لألمحه عندما يذهب إلى العمل باكراً كل صباح. أرجوك أن لا تخبريه بهذا، فهو يظن أنني أعيش في الريف طوال هذا الوقت.

شيزان، أنا آسفة، لكني سأغادر. أنا مدرّسة لغات أجنبية ويجب أن أعود إلى الريف لأعلّم المزيد من الأطفال. كما قلت مرة في برنامجك، يجب أن يكون للأشخاص الكبيرين في السن مساحة خاصة بهم حيث يغزلون فيها شيخوخة جميلة لأنفسهم.

أرجو أن تعذريني على معاملتي الباردة لك. لقد منحتُ ابني كل الدفء الذي في داخلي، هو استمرار لوالده.

أتمنى لك مهرجان ربيع سعيداً وهادئاً،

الزبّالة،

كوخ القمامة.

استطعت أن أفهم سبب مغادرة الزبّالة. لقد سمحت لي أن أرى داخل قلبها ولن يسمح لها خجلها بمواجهتي مجدداً. شعرت بالأسف لأنني أبعدتها عن عالمها المبني بعناية، لكني شعرت بالأسف أيضاً لأنها أحرقت نفسها ليحصل أولادها على ضوء ينير حياتهم، فقط لتستسلم بعدها لواقع أنه تمّ التخلص منها. تخلصوا منها. كان إيمانها الوحيد في هويتها كأم.

احتفظت بسرّ الزبّالة ولم أخبر ابنها أبداً كيف كانت تسهر عليه، لكني لم أذهب إلى منزله مجدداً أبداً. بما أن الزبّالة، التي ذكراها عزيزة عليّ، لم تعبر عتبته قط. ورغم أنه كان يبدو غنياً جداً، لكن في الحقيقة كانت هي الثرية حقاً.

٥

الأمهات اللواتي قاسين من الزلزال

عندما أنجبت زميلتي شياو ياو طفلها تدبّرتُ أمر زيارتها في المستشفى مع عدة نساء أخريات من المكتب. كانت مانغشينغ متحمّسة جداً، بما أنها لم تزر من قبل أبداً قسم ولادة. وقد أنذرها المدير تزانغ من مكتب الشؤون الخارجية بعدم الذهاب قائلاً: في الصين، يعتقدون أن النساء اللواتي لم يلدن من قبل يجلبن الحظ السيئ للمولودين الجدد. لكن مانغشينغ اعتبرت ذلك خرافات وسبقتنا إلى المستشفى.

وصلنا المستشفى محمّلين بالطعام لشياو ياو: سكّر بنّي وجنسينغ من أجل دمها، أقدام خنازير وسمك ليساعدها في الإرضاع، ودجاج وفاكهة من أجل تقوية بنيتها. عندما دخلنا الغرفة رأينا مانغشينغ تتحدث إلى شياو ياو، وكانت تأكل بيضة مسلوقة مصبوغة بالأحمر رمزاً للسعادة التي تحملها ولادة طفل جديد.

كان والدا شياو ياو ووالدا زوجها موجودين هناك أيضاً، وكانت الغرفة مليئة بالهدايا. بدت شياو ياو سعيدة ومنتعشة بطريقة غير متوقّعة بعد محنتها. أعتقد أن إنجابها صبياً كان أحد الأسباب التي جعلتها تشعّ فرحاً وصحة.

على مدى أجيال لا تُحصى في الصين بقي القول التالي صحيحاً: "توجد ستٌّ وثلاثون فضيلة، لكن بقاء المرء دون وريث شرٌّ ينقضها كلها". المرأة التي أنجبت ابناً هي امرأة كاملة.

عندما كانت شياو ياو في المخاض وُضعت في جناح مع سبعة نساء أخريات. طلبت شياو ياو من زوجها عدة مرات نقلها إلى غرفة خاصة لكنه رفض، وعندما تلقى خبر إنجابها صبياً دبّر على الفور نقلها إلى غرفة منفردة.

كانت الغرفة ضيّقة لكن مضاءة بشكل جيد. وجدت كل واحدة منا مكاناً تجثم فيه، وبدأت زميلاتي بالتكلم بحماسة. لست جيدة في المحادثات لأنني لا أستمتع بالتكلم عن حياتي الخاصة التي هي حكاية العائلات الناقصة. عندما كنت طفلة فُصلت عن أبي وأمي؛ عندما كبرت لم تكن لدي عائلة حقيقية، سوى ابني. بينما كنت أستمع إليهن بصمت طويت ورقة تغليف هدايا على شكل أرنب على طريقة الأوريغامي. وبينما كانت زميلاتي يتحدثن سمعت أصواتاً آتية من الممر.

كان رجلٌ يتكلم بصوتٍ منخفض لكن حازم: "أرجوك أن تغيّري رأيك. سيكون ذلك خطيراً جداً".

"لست خائفة. أريد أن أختبر الإنجاب" أجابت امرأة.

"ربما أنتِ لست خائفة، أما أنا فبلى. لا أريد أن يكبر ولدي من دون أم".

"إذا لم ألد ولادة طبيعية، فكيف لي أن أدعو نفسي أماً؟" بدت المرأة مزعوجة.

"لكنك تعلمين أنك في حالتك لا يمكنك..."

قاطعته المرأة قائلةً: "لم يقل الأطباء أن الأمر مستحيل مئة في المئة! أريد فقط أن أقوم بالأمر بنفسي..." وخفتت الأصوات تدريجياً وهما يبتعدان.

عندما كنت أهمّ بالمغادرة وضعت حماة شياو ياو في يدي خفيةً قطعة قماش حمراء وطلبت مني أن أحرقها. "من أجل إبعاد التأثيرات الشريرة التي جلبتها مانغشينغ". لم أجرؤ على عصيانها. وحين غادرت المستشفى رميتُ قطعة القماش في فرن كُشك لبيع الطعام على جانب الطريق، لكنني لم أخبر مانغشينغ، فهي تكره الاعتراف بالهزيمة.

بعد ثلاثة أشهر تلّقيت دعوة إلى عشاء جنازة من عائلة لا أعرفها. كان المستمعون يدعونني غالباً إلى مناسبات عائلية، لكنها كانت في معظمها حفلات

أعراس. ونادراً ما يُدعى الغرباء إلى عشاء جنازة، لذلك تقاجأتُ كثيراً. كان العشاء سيقام في مطعم وليس في صالون جنازة أو في محرقة، وطُلب في الدعوة أن يُحضِر كلٌّ من المدعوين معهم اسم صبي. لم أصادف مثل هذه الممارسات أبداً من قبل.

قررتُ الحضور وأحضرت معي اسم "تيانشي" (مفتاح السماء). استقبل المضيف المدعوين وبين ذراعيه طفل عمره شهر؛ توفيت زوجته خلال ولادته. عندما عرف من أكون سألني والدموع تملأ عينيه عن سبب عدم قبول زوجته بإجراء عملية قيصرية وهي تعلم أن الولادة الطبيعية كانت تشكل خطراً على حياتها. هل اختبار ولادة طبيعية مهم جداً لدرجة أنه أهم من الحياة؟

تساءلت بيني وبين نفسي إذا كان من الممكن أن يكونا الزوجين اللذين سمعتهما يتحدثان في المستشفى. صُدمت لقرار تلك المرأة المجهولة لكنني في العمق فهمت رغبتها في المرور بتلك الخبرة الفريدة. زوجها المفجوع لم يستطع ولن يستطيع فهم ذلك.

لا أدري إن كان قد أطلق على ابنه اسم تيانشي، لكنني عندما غادرت الجنازة أملت أن تكون السماء قد أرسلته كمفتاح ليفتح الباب إلى عقول النساء من أجل والده.

فهمتُ حقيقة ما معنى أن تكون المرأة أماً عندما قمت، في عام ١٩٩٢، بزيارة مدينة تانغشان الصناعية، التي أُعيد بناؤها بعد أن دُمّرت تماماً في الزلزال الرهيب الذي ضربها في الثامن والعشرين من شهر تموز/يوليو عام ١٩٧٦ وقضى على حياة ٣٠٠,٠٠٠ شخص.

بما أن محطة الإذاعة في نانجينغ كانت من أهم محطات الإذاعة في الصين، فقد كنت غالباً ما أسافر في أنحاء البلاد من أجل حضور المؤتمرات المحلّية حول تطوير البرامج الإذاعية والتلفزيونية. وكان هدف هذه المؤتمرات الوحيد هو ترداد ما تقوم عليه سياسة الحزب بدلاً من الخوض في أي مناظرة حقيقية، وللتعويض عن النقص في التحفير الفكري كان المنظّمون يقومون في أغلب الأحيان بتدبير رحلات

للمشتركين ليجوبوا الريف خلال المؤتمرات. وقد منحني ذلك الكثير من الفرص لإجراء مقابلات مع نساء من مختلف المناطق الصينية.

خلال واحدٍ من تلك المؤتمرات، في مدينة تيانجن، اغتنمت الفرصة لأزور مدينة تانغشان المجاورة. كان زلزال عام ١٩٧٦ قد اشتُهرت في ذلك الوقت في إعطاء المثل عن الانهيار الكلي في التواصل في الصين. ففي سنة ١٩٧٦ تعاملت الحكومة الصينية مع موت ثلاث شخصيات مهمة: ماو تسي تونغ، ورئيس الوزراء دجوانغلاي، والقائد العسكري دجو ده. وقد أدّى انهماكهم بتلك المحنة، التي رافقها عدم كفاءة التكنولوجيا الصينية، إلى جهل تام بحصول الزلزال، ولم يدركوا حصوله حتى أتى رجل من تانغشان إلى بكين ليخبرهم بما جرى، عندها بدأت أخبار الزلزال تُعرَف تدريجياً. ومع ذلك ظنّ الناس أنه مجنون. كانت وكالة الأخبار المحلية شينخوا، التي كانت تغطي تانغشان، هي التي علمت بأمر الزلزال، ليس من مكتب الحكومة الرئيسي بل من الصحافة الأجنبية التي تلّقت تقارير من مراكز مراقبة الزلازل الأكثر تقدماً في بلدان أخرى.

عندما كنت موجودة في تانغشان سمعت عن ميتم غير عادي أسّسته وتديره أمهات فقدن أولادهن في الزلزال، وقيل لي إنهن يموّلونه من مال التعويض الذي حصلن عليه، فاتصلتُ لتحديد موعد لزيارة المكان. بُني الميتم بمساعدة حامية عسكرية محلية وكان يقع في إحدى الضواحي بالقرب من مصحٍّ عسكري. سمعت أصوات أولاد عندما كنت أقترب من السياج الخشبي المنخفض والشجيرات التي كانت تحيط بالمكان. كان ميتماً من دون موظفين رسميين؛ فكان بعضهم يسمّيه "عائلة بلا رجال"، ويعيش فيه بضع أمهات وعدد كبير من الأطفال.

وجدت الأطفال يقومون بتمارين رياضية في الباحة والأمهات يصنعن الزلابية في المطبخ. رحّبت بي النساء بأيدي مغطّاة بالطحين وعبّرن لي عن إعجابهن الكبير ببرنامجي، ثم أخذنني في جولة في الميتم وهن ما زلن يرتدين مآزرهن.

كانت كل أم تعيش مع خمسة أو ستة أطفال في غرفة واسعة ذات أثاث بسيط

لكن مريح. هذا النوع من المساكن شائع في شمال الصين: يشغل نصف الغرفة سرير هو في الوقت نفسه فرن مصنوع من القرميد أو الطين، ويدعى 'كانغ'. في الشتاء، يمكن إشعال نار تحت الكانغ لإبقائه دافئاً وفي الليل ينام كل أفراد العائلة عليه. تحدّد اللحف الفردية مناطق النوم. وخلال النهار تُطوى اللحف وتوضع جانباً وتوضع طاولة على الكانغ لتشكّل غرفة معيشة وغرفة طعام للعائلة. يشغل النصف الآخر من الغرفة خزانات الثياب وكنبة وكراسٍ لاستقبال الضيوف.

خلافاً للمنازل العادية زُيّنت الغرف في الميتم بألوان صاخبة بحسب اهتمامات الأطفال. وكان لكل غرفة أسلوب زخرفة خاص بها، لكن ثلاثة أشياء كانت موجودة في جميع الغرف. الأول كان إطاراً يحوي صور كل الأطفال الذين عاشوا في الميتم؛ والثاني لوحة بدائية لعين تفيض بالدمع مع كلمتين مكتوبتين على البؤبؤ - "المستقبل"؛ والثالث كتاب سُجّل فيه تاريخ كل طفل من الأطفال.

كانت النساء فخورات جداً بالأولاد ومتّعنني بقصص عن مآثرهم، لكنني كنت متلهّفة لسماع قصص النساء أنفسهن.

خلال زيارتي الأولى تمكنت من إجراء مقابلة مع أم واحدة فقط، هي السيدة تشين. كانت السيدة تشين تعتمد في معيشتها على الجيش وكان لديها ثلاثة أولاد. تكلمت معها بينما كنت أساعدها في تحضير الزلابية للأولاد وقد توجهت إليها بـ"خالة" لأنها كانت في سن والدَيّ.

"خالة تشين، هل يمكنني أن أسأل عن اليوم الذي ضرب فيه الزلزال؟ أنا آسفة، أعلم أنها ذكريات أليمة..."

"لا بأس. لا يمر يوم واحد دون أن أفكر بذلك اليوم. لا أظن أن أحداً من الذين نجوا يمكنهم أن ينسوا ذلك اليوم أبداً. كان كل شيء غير حقيقي... في ذلك الصباح، قبل أن ينبلج الفجر، أيقظني صوت غريب، صوت دوّي وزعيق، وكأن قطاراً كان يتجه إلى منزلنا. ظننت أنني أحلم - في العادة تكون الأحلام غريبة - لكن بينما كنت على وشك الصراخ انخسف نصف الغرفة مع زوجي في سريره، وفجأةً ظهرت

أمامي غرفة الأولاد الموجودة في الجهة الأخرى من المنزل وكأنها خشبة مسرح. كان ابني البكر يحدّق فاغر الفم، وكانت ابنتي تبكي وتصرخ مادّةً يديها نحوي، بيمكا كان ابني الصغير نائماً بعذوبة.

حصل كل شيء بسرعة كبيرة... فجأةً انزلق المشهد الذي أمامي واختفى مثل هبوط ستارة. ارتعبت، لكني ظننت أنني أرى كابوساً. قرصت نفسي بقوة لكني لم أستفق. وليأسي طعنت رجلي بمقص. وعند رؤية الدم وشعوري بالألم أدركت أن ذلك لم يكن حلماً. لقد اختفى زوجي وأولادي داخل هوّة ساحقة.

صرختُ مثل امرأةٍ مجنونة، لكن لم يسمعني أحد. ملأ صوت الجدران المنهارة والأثاث المحطّم الجو. وقفت مجرجرةً رجلي النازفة أمام الحفرة الواسعة التي كانت فيما مضى الجزء الآخر من منزلي. لقد اختفى زوجي وأولادي الأحباء أمام عيني. أردت البكاء، لكن لم تكن هناك دموع. بكل بساطة، لم أرد أن أستمر بالعيش".

امتلأت عيناها بالدمع.

تأتأت متأثرةً: "خالة تشين، أنا آسفة..."

هزّت رأسها قائلةً: "لقد مضى عشرون عاماً تقريباً، لكنني أسمع دوي وزعيق قطار مصحوباً بصراخ أولادي تقريباً كل يوم عند الفجر. أحياناً أرتعب من تلك الأصوات لدرجة أنني أذهب إلى الفراش باكراً مع الأولاد وأضع المنبّه تحت مخدّتي ليوقظني قبل الساعة الثالثة. وعندما يدّق أجلس في سريري إلى أن يطلع الضوء. أحياناً أعود إلى النوم بعد الساعة الرابعة. لكن بعد بضعة أيام على هذه الحال صرت أشتاق لتلك الأصوات المسبّبة للكوابيس مجدداً لأن أصوات أولادي أيضاً كانت بينها".

"هل يجعلك وجود أولاد كثيرين حولك الآن تشعرين بحال أفضل؟".

"أفضل بكثير، خاصةً في الليل. فأنا أراقبهم وهم نيام وأشعر براحة لا يمكنني تفسيرها. أمسك بأيديهم وأضعها على وجهي عندما أجلس إلى جانبهم. أقبّلهم وأشكرهم لإبقائي على قيد الحياة".

"ولسوف يشكرونك عندما يكبرون - إنها دورة الحب".

"هذا صحيح، من العجوز إلى الشاب والعكس. حسناً، الزلابية جاهزة الآن، يجب أن أنادي الأولاد ليدخلوا. هل ستتناولين القليل منها أيضاً؟".

استأذنتها بالانصراف قائلةً إنني سأعود غداً. كان قلبي مثقلاً جداً ولن أتمكن من التحدث إلى أحد، شعرتُ أنني منهكة عاطفياً وجسدياً.

تلك الليلة سمعت في أحلامي صوتاً مدوّياً وصراخ الأولاد الذي وصفته الخالة تشين واستفقت مبتلةً تماماً بعرقٍ بارد. كان ضوء الشمس يتسلل من خلال الستائر الشبكية، وكذلك صوت الأولاد في طريقهم إلى المدرسة. غمرني شعور بالارتياح.

انتهى اجتماع اليوم باكراً. رفضت بتهذيب دعوة أحد الأصدقاء في تيانجن إلى العشاء وأسرعت لآخذ القطار إلى تانغشان. في الميتم تحدّثت إلى امرأة تدعى السيدة يانغ، المسؤولة عن تحضير وجبات الأولاد، وكانت تشرف على تناول الأولاد طعام العشاء عندما وصلت.

قالت: "انظري كم يستمتع الأولاد بتناولهم الطعام".

"لا بد أن سبب ذلك يعود لأنك طبّاخة جيدة".

"ليس بالضرورة. يستمتع الأولاد بأشياء معيّنة، مثل الطعام المعدّ بأشكال خاصة. قد يكون مجرد خبز مصنوع على البخار على شكل أرنب أو جرو كلب صغير، لكنهم سيتناولون منه أكثر بتلك الطريقة. إنهم يحبون أيضاً الأطعمة الحلوة، لذلك فهم يستمتعون بتناول الأطباق الحلوة والحادة أو لحم الخنزير المحمّر. ويحبون كذلك الطعام السهل المضغ مثل كرات اللحم أو كرات الخضار. يظن الأولاد دائماً أن ما يملكه أصدقاؤهم أجمل مما لديهم، لذلك أدعهم يختارون طعامهم ويتبادلونه كما يشاؤون، فذلك يحفّز اهتمامهم بالطعام. كانت ابنتي مثلهم تماماً؛ كانت تتحمّس عندما أعطيها كمية واحدة من الشيء نفسه في عدة أطباق مختلفة"، وهزّت رأسها بحنان.

قلتُ في تردد: "سمعت أن ابنتك..."

"سأخبرك قصة ابنتي إذا أردت، لكني لن أفعل ذلك هنا. لا أريد أن يراني

الأولاد أبكي. إن رؤيتهم يأكلون ويضحكون بسعادة هو مصدر راحة كبير لي، إنهم يجعلونني حقاً..."، توقفت وقد اختنق صوتها فجأةً بالدموع.

حاولتُ حثّها برّقة: "خالة يانغ!".

"ليس هنا، هيا إلى غرفتي".

"غرفتك؟".

"نعم، أنا الوحيدة هنا التي لديها غرفة خاصة بها لأن عملي الآخر هو الاهتمام بسجلات الأولاد الصحية وأغراضهم الشخصية. لا يمكننا أن ندع الأولاد يقتربون من تلك الأشياء".

كانت غرفة السيدة يانغ صغيرة جداً؛ وكان أحد الجدران مغطى كلياً تقريباً بصورة مكبّرة بشكل كبير لدرجة أنها كانت تبدو كأنها لوحة مرسومة بنقط صغيرة من الألوان. كانت لفتاة ذات عينين حيويتين وفم مفتوح قليلاً يجعلها تبدو كأنها على وشك الكلام.

قالت السيدة يانغ وهي تحملق في الصورة: "هذه ابنتي. التُقطت الصورة عندما تخرّجت من المدرسة الابتدائية. إنها الصورة الوحيدة لها التي أملكها".

"إنها جميلة جداً".

"نعم. حتى عندما كانت في الروضة كانت دائماً تمثّل وتلقي خطابات".

"لا بد أنها كانت ذكية جداً".

"أعتقد ذلك. لم تكن أبداً الأولى في صفّها، لكنها لم تجعلني أقلق أبداً"، كانت السيدة تربّت على الصورة بينما تتكلم، "لقد مرّت عشرون عاماً تقريباً منذ تركتني. أعلم أنها لم تكن ترغب في الرحيل. كان عمرها أربعة عشر عاماً. كانت تفهم الفرق بين الحياة والموت: لم تكن ترغب في الموت".

"سمعتُ أنها نجت من الزلزال؟".

"نعم، لكن كان الأفضل لها لو أنها سُحقت وماتت على الفور. انتظرت أربعة عشر يوماً - أربعة عشر يوماً وساعتين، وهي تعلم أن الموت يقترب. كانت فقط

في الرابعة عشرة من عمرها..."، انهارت السيدة يانغ.

قلت وأنا عاجزة عن حبس دموعي: "خالة يانغ، أنا آسفة" ووضعت يدي على كتفها.

بكت لبضع دقائق. "أنا... أنا حقاً بخير. شينران، لا يمكنك أن تتخيلي أبداً مدى تعاسة المشهد. لن أنسى أبداً ذلك التعبيرعلى وجهها"، حدّقت في الصورة مجدداً بعينين مُحبتين، "كان فمها مفتوحاً قليلاً، هكذا مثل هنا..."

أحزنتني دموعها وأقلقتني فسألتها: "خالة يانغ، كنت تعملين طوال النهار، أنت متعبة، لذا دعينا نكمل حديثنا المرة القادمة، اتفقنا؟".

استعادت السيدة يانغ هدوءها وقالت لي: "لا، سمعت أنك مشغولة جداً. لقد أتيتِ من مكانٍ بعيد جداً فقط لتستمعي إلى قصصنا؛ لا يمكنني أن أدعك تذهبين خاوية الوفاض".

طمأنتها قائلةً: "لا يهم، لدي ما يكفي من الوقت".

كانت مصممة. "لا، لا. سأخبرك الآن". أخذت نفساً عميقاً. "كان زوجي قد توفي قبل عام تقريباً وكنا أنا وابنتي نعيش في شقة في الطابق الخامس منحتنا إياها وحدة العمل. كانت لدينا غرفة واحدة فقط ومطبخ وحمام مشتركان. لم تكن الغرفة كبيرة لكننا لم نجدها ضيقة. ولأنني كنت أكره حدّة البرد والحر فقد أخذت نصف الغرفة القريب من الجدار الداخلي، وأخذت ابنتي النصف القريب من الجدار الخارجي. وفي ذلك الصباح استيقظت فجأةً على صوت دويّ وقرقعة واهتزاز عنيف. صرخت ابنتي وحاولت الخروج من سريرها لتأتي إلي. حاولتُ الوقوف لكني لم أتمكن من الوقوف مستقيمة، فقد كان كل شيء يميل وكان ذلك الحائط يميل نحوي. وفجأةً اختفى الحائط الذي إلى جانب ابنتي ووجدنا نفسينا في العراء على حافة الطابق الخامس. كان الجو حاراً جداً لذلك لم نكن نرتدي سوى ملابسنا الداخلية. صرخت ابنتي ووضعت ذراعيها حول صدرها، لكنها، قبل أن تتمكن من القيام بأي شيء آخر، دُفعت عن الحافة بواسطة جدار منهار آخر.

صرخت مناديةً اسمها وأنا أتشبّث ببعض مشابك الملابس على الحائط. لم أدرك أنها هزة أرضية إلا بعد أن توقف التأرجح وتمكنت من الوقوف دون حراك على الأرضية المنحدرة. بحثت بجنون عن طريقة للنزول إلى الأسفل ورحت أمشي مترنّحةً وأنا أصرخ "ابنتي".

لم أنتبه إلى أنني لم أكن أرتدي ملابسي، وكان جميع الناجين الآخرين يرتدون القليل أيضاً، بل حتى إن بعضهم كان عارياً، لكن أحداً لم يكن يفكر بتلك الأشياء. فقد كنا جميعنا نركض مثل المجانين في الضوء الخافت نبكي ونصرخ منادين أقربائنا.

في تلك المعمعة من الأصوات بُحّ صوتي وأنا أصرخ سائلةً جميع من وقع عليهم نظري عن ابنتي. بعض الأشخاص الذين كلّمتهم سألوني إن كنت قد رأيت أقربائهم. كان الجميع مصدومين ويصرخون. لم يستوعب أحد أي شيء، وعندما بدأ الناس تدريجياً بإدراك فظاعة الموقف سيطر صمتٌ حزين بحيث كان بالإمكان سماع صوت وقوع دبوس على الأرض. لم أجرؤ على التحرك مخافة أن أجعل الهزة الأرضية تتحرك مجدداً. وقفنا نعاين المشهد أمامنا: أبنية منهارة، أنابيب مياه مكسورة، حفر واسعة وعميقة في الأرض، جثث في كل مكان، ممدّدة على الأرض، معلّقة فوق أعمدة السطوح وخارج المنازل. بدأت غيمة كثيفة من الغبار والدخان تتصاعد في المكان حجبت الشمس والقمر، ولم يعد أحد يعلم أي وقت من النهار الآن. كنا نتساءل إذا كنا ما زلنا في أرض الأحياء".

طلبتُ من السيدة يانغ أن تشرب كأساً من الماء.

"ماء؟ آه، نعم... لا أدري كم دامت الهزة لكني بدأت أشعر بالعطش بسبب الصراخ الذي مزّق حنجرتي. ردد أحدهم أفكاري بصوتٍ ضعيف قائلاً: "ماء..." مذكّراً الجميع بالعودة فوراً إلى مسألة البقاء. تقدم رجل متوسط العمر من وسط الجمع وقال: "إذا أردنا البقاء أحياءً فيجب أن نتعاون وننظّم أنفسنا"، فهمسنا كلنا بالموافقة.

كان النهار قد بدأ يطلع وأصبح كل شيء أمامنا أكثر وضوحاً وأشدّ هولاً. فجأةً

صرخ أحدهم: "انظروا هناك، أحدهم ما زال حيّاً!"، وفي الضوء الشاحب رأينا فتاة مثبّتة في الهواء بين جداري مبنى منهار، ورغم أن شعرها كان يغطي وجهها، وأن أسفل جسمها كان عالقاً وغير ظاهر، عرفت من لون وشكل حمّالة صدرها ومن نضال حركة جذعها أنها كانت ابنتي، فصرخت: "شياو بينغ!". ناديتها مراراً وتكراراً، مجنونةً من الفرح والأسى. استمرت بالتلوّي بيأس وأدركت أنها لا تستطيع سماعي أو رؤيتي. شققت طريقي عبر الجمع مشيرةً نحوها وأنا أجهش بالبكاء صارخةً: "إنها ابنتي"، لكن الأنقاض كانت تسدّ طريقي. بدأ الناس بالمساعدة محاولين تسلّق الجدار الذي كانت ابنتي عالقةً فيه، لكنه كان بعلو طابقين على الأقل ولم تكن لديهم أي معدّات. صرخت مناديةً باسمها مجدداً ومجدداً، لكنها كانت لا تزال غير قادرة على سماعي.

انضمت إلي بضع نساء في مناداتها، ومن ثم بعض الرجال، وبعد قليل كان الجميع تقريباً ينادي: "شياو بينغ! شياو بينغ!".

أخيراً تمكنت شياو بينغ من سماعنا، فرفعت رأسها واستخدمت يدها الحرة - اليسرى - لتزيح شعرها عن وجهها. أدركتُ أنها كانت تبحث عني، وبدت مرتبكة؛ لم تستطع إيجادي بين الجمع العاري أو العاري تقريباً. بدأ رجل بالقرب مني يدفع كل من حولي بعيداً. في البدء لم يفهم أحد ماذا كان يفعل، لكن بعد قليل فهمنا أنه كان يحاول خلق مساحة خالية حولي لتتمكن شياو بينغ من رؤيتي. ونجح الأمر؛ فقد صرخت شياو بينغ: "ماما!" ولوّحت لي بيدها الحرة.

صرخت لها بدوري لكن صوتي كان أجشّ وضعيفاً، وعوضاً عن ذلك رفعت ذراعيّ ولوّحت لها. لا أعلم كم من الوقت بقينا نلوّح وننادي. أخيراً جعلني أحدهم أجلس. كانت مساحة كبيرة حولي لا تزال خالية لتتمكن شياو بينغ من رؤيتي. كانت متعبة أيضاً، وكان رأسها متدلياً وكانت تلهث محاولةً التنفس. عندما أتذكر الأمر أتساءل لماذا لم تصرخ لي أبداً طالبةً مني إنقاذها. لم تقل شيئاً أبداً مثل: "ماما، أنقذيني"، ولا كلمة واحدة".

"متى بدأت بعدّ الأربعة عشر يوماً والساعتين التي ذكرتها؟".

"صرخ أحدهم لشياو بينغ قائلاً: "إنها ٥,٣٠ صباحاً، سيأتي أحدهم لإنقاذك قريباً!" أراد طمأنتها ليساعدها على الصمود. لكن الثواني مرّت والدقائق والساعات ولم يأتِ أحد لإنقاذها".

"ذلك لأن الناس لم يعلموا بما حصل إلا بعد فترة"، قلتُ وقد تذكّرت كم من الوقت احتاج بثّ التقرير الإخباري.

أومأت السيدة يانغ برأسها. "أي نوع من البلدان كان هذا البلد سنة ١٩٧٦؟ مدينة كبيرة تقبع بين الركام وثلاثمئة ألف شخص فقدوا حياتهم، ومع ذلك لم يعلم أحد بالأمر. كم كانت الصين متخلّفة! أعتقد أننا لو كنا أكثر تقدماً لما مات العديد من الناس في ذلك الوقت، وكان من الممكن أن تنجو شياو بينغ".

"متى وصل رجال الإنقاذ؟".

"لا يمكنني التحديد. أتذكّر فقط أن الجيش أتى أولاً. كان الجنود جميعهم مبللين بالعرق جرّاء الركض، لكن لم يتوقف أيٌّ منهم ليلتقط أنفاسه قبل أن يتفرقوا ويبدأوا عملية الإنقاذ. بدأ جنديان مزوّدان بحبال وفؤوس بتسلق الجدار المحشورة فيه شياو بينغ، فقد بدا الجدار على وشك الانهيار في أي لحظة وسحقهم جميعاً. كدت أتوقف عن التنفس وأنا أراهما يقتربان منها أكثر فأكثر..."، صمتت بضع لحظات.

"عندما رأت شياو بينغ أن هناك من جاء لإنقاذها انفجرت بالبكاء. أول جندي وصل إليها نزع سترة بدلته العسكرية ليغطيها، وكانت إحدى ذراعيها فقط حرة، لذلك لفّ نصف السترة حولها كرهبان التيبت، ووضع الجندي الآخر قنينة ماء على فمها ثم أخذا يزيلان الحجارة من حولها وسرعان ما حررا ذراعها اليمنى التي كانت مغطّاة بالكدمات والدماء. لكنهما، لسببٍ ما، توقفا فجأةً عن التنقيب فصرخت فيهما أسألهما عن السبب، لكنهما لم يتمكنا من سماعي.

بعد قليل، نزلا عن الجدار واتجها نحوي، وأخبراني، وهما يشيران بيدين ملطّختين

بالدماء، أن الجزء السفلي من جسم شياو بينغ محشور بين كتل الجدران الإسمنتية التي لم يتمكنوا من حفرها بأيديهم. سألتهما عن سبب تلطّخ يديهما بالدم فوضعا أيديهما خلف ظهريهما وقالا لي إنه لا يُسمح لهم باستعمال المعدّات للتنقيب في عمليات إنقاذ الأشخاص مخافة تعريضهم للأذى.

بعد أن انتهى كل شيء اكتشفت أن أظافر وأطراف أصابع بعض الجنود قد تآكلت بسبب الحفر، لكنهم لفّوا أيديهم ببعض القماش وأكملوا التنقيب. بعض الجنود كانوا يصرخون مثل المجانين وهم ينقّبون لأنهم كانوا يسمعون أنيناً وصرخات تطلب المساعدة آتيةً من تحت الأنقاض. ماذا يمكنهم أن يفعلوا بأيديهم المجرّدة؟ فمعدّات الإنقاذ الثقيلة لم تتمكن من بلوغ المدينة لأن الطرقات كان قد دُمّرت بالكامل". تنهّدت ثم أضافت: "كم من الأشخاص ماتوا وهم ينتظرون رجال الإنقاذ؟" ثم مسحت الدموع من عينيها.

"لا بدّ أن شياو بينغ كانت قوية جداً".

"نعم. فقد كانت دائماً تبكي إذا ما خدشت نفسها بغصن شجرة، ويمتقع لونها عند رؤية الدم، لكن خلال تلك الأيام الأربعة عشرة الأخيرة كانت قوية جداً، حتى أنها كانت تواسيني قائلةً: "ماما، أنا خدرة، لذلك لا أتألم ولو قليلاً!". عندما تمكنوا من إنقاذها أخيراً رأيت أن رجليها كانتا مسحوقتين تماماً مثل عجينة. الشخص الذي حضّرها من أجل الجنازة قال إن حوضها تهشّم جرّاء الضغط. أرجو أنها كانت حقاً خدرة ولم تكن تشعر بأي شيء في الجزء السفلي من جسمها خلال تلك الأيام الأربعة عشرة عندما كانت في حالتها تلك. لقد أحصيت كل دقيقة، وطوال ذلك الوقت جرّب الناس كل الطرق لإنقاذها، وعملوا على مدار الساعة، لكن شيئاً لم ينفع.

أخيراً ساعدني الجنود على تسلّق الجدار حيث كانت شياو بينغ وصنعوا لي مقعداً مؤقتاً لأتمكن من الجلوس وحملها بين ذراعي لفترات طويلة. كان جسمها الصغير الضعيف بارداً جداً رغم أننا كنا في فصل الصيف.

في الأيام الأربعة الأولى كانت شياو بينغ لا تزال قادرةً على التحدث إلي وتحريك يديها وهي تخبرني قصصاً، لكنها قواها بدأت أكثر وأكثر بعد اليوم الرابع إلى أن أصبحت بالكاد تستطيع رفع رأسها.

رغم أنها كانت تحصل على الطعام والدواء بشكل يومي، كما أن ممرضة أتت لتعتني بها، لكن لا بدّ أن الجزء السفلي من جسمها كان ينزف طوال الوقت، وكانت الغنغرينا قد بدأت بالانتشار. كان العديد من الناس قلقين حول مصيرها، لكن لم يكن هناك أي شيء يمكن لأحد عمله. كانت تانغشان بأكملها قابعة تحت الأنقاض: لم يكن هناك عددٌ كافٍ من عمال الطوارئ أو المعدّات، وكانت الطرقات المؤدية إلى المدينة غير صالحة للعبور. ابنتي المسكينة..."

همست: "خالة يانغ"، كنا نحن الاثنتين نبكي.

"أعتقد أن شياو بينغ أدركت خلال الأيام الأخيرة أن لا أمل لها، رغم أن الناس اختلقوا كل أنواع الأعذار ليبقوا الأمل حياً في قلبها ويرفعوا من معنوياتها. كانت مستلقيةً بعجز بين ذراعي غير قادرة على الحراك. وفي صباح اليوم الرابع عشر رفعت جذعها بجهد وقالت لي: "ماما، أشعر أن الأدوية التي كنت تعطينني إياها بدأت تعطي مفعولاً. أشعر ببعض القوة، انظري!".

عندما رآها الناس، الذين كانوا يراقبونها بانتباه مدة أربعة عشر يوماً، تجلس بدأوا جميعهم بالتصفيق والتهليل. ظننتُ أن أعجوبةً ما قد حصلت، وحين رأت شياو بينغ كم كان الجميع متحمّسون بدا أن بعض القوة دبّت فيها. فقد تدفق اللون في وجهها الذي كان شاحباً شحوب الموت وأصبح أحمر، وتكلمت مع الناس الذين كانوا يتمنون لها التحسّن بصوتٍ قوي وشكرتهم وأجابت عن أسئلتهم. اقترح أحدهم أن تغني أغنية وصفق الجميع موافقين. خجلت شياو بينغ في البدء لكن الناس راحوا يشجعونها هاتفين: "غنّي أغنية يا شياو بينغ! شياو بينغ، غني أغنية!" أخيراً أومأت بضعف وبدأت بالغناء: "النجمة الحمراء تشعّ بضوءٍ رائع، النجمة الحمراء تشعّ في قلبي..."

كان الجميع يعرف تلك الأغنية في ذلك الوقت وبدأ الكثير من الناس بغناء "النجمة الحمراء تشعّ". كان صوت الغناء بين ألم الفراق والحزن أشبه بانبثاق الأمل، ولأول مرة، منذ أيام عدة، كان الناس يبتسمون. وبعد غناء بضعة مقاطع ضَعُفَ صوت شياو بينغ وغرقت ببطء مجدداً بين ذراعَي".

صمتت السيدة يانغ لفترة طويلة. وأخيراً استجمعت قوتها وأكملت: "لم تستفق شياو بينغ بعد ذلك أبداً. ظننتُ أنها نائمة لكن عندما اكتشفت أنني كنت مخطئة كان قد فات الأوان. لم تقل أي كلمات أخيرة؛ خبرتها الأخيرة في هذا العالم كانت أشخاصاً يغنّون ويبتسمون من حولها. عندما أخبرني الطبيب أنها ماتت بقيتُ هادئة - كانت تلك الأيام الأربعة عشر والساعتين قد أضنتني وجعلت الدمع يجفّ في عيني. لم أبدأ بالبكاء إلا بعد أربعة أيام عندما أخرجوا جثة شياو بينغ التي كانت بدأت تفوح منها رائحة. كان جسدها في حالة مزرية... لحمي ودمي... تألمت، آه كم تألمت!".

انتحبتُ معها: "أنا آسفة يا خالة يانغ، أنا آسفة".

"الطفلة المسكينة، خلال سنواتها الأربعة عشر شاهدت ثلاثة أفلام فقط، *Tunnel Warfare, Mine Warfare, The Battle of North and South*، وثمانية عروض أوبرا. لم تقع عيناها قط على فستان جميل أو زوج أحذية عالية الكعب".

"ذلك حزن عظيم في تاريخ الصين. أنا ابنة تلك الفترة أيضاً، ولم تكن لدي أي تجربة فعلية في ما يخصّ سنّ الشباب أو الجمال".

تنهّدت السيدة يانغ. "يقول بعض الناس إن الزلزال كان عقاباً إلهياً بسبب أحداث الثورة الثقافية. لكن من هم الآلهة الذين كانوا ينتقمون منا؟ فأنا لم أقم مطلقاً بأي شيء يسيء إليهم أو يهينهم ولم أفعل أي شيء غير أخلاقي أبداً. فلماذا أهلكوا ابنتي؟".

"آه يا خالة يانغ، لا تقولي هذا! لم يكن موت شياو بينغ عقاباً أبداً. لا تفكري على هذا النحو أبداً. إذا علمت شياو بينغ، حيث هي الآن، أنك تتألمين بهذا الشكل

ستقلق كثيراً. يجب أن تعيشي بأفضل شكل وسعيدة قدر ما تستطعين، فذلك سيكون أفضل مكافأة لتضحية شياو بينغ، ألا تتفقين معي على ذلك؟".

"نعم، هذا صحيح... لكن أنا... آه حسناً، دعينا لا نتكلم عن ذلك. أنت مشغولة، اذهبي واهتمي بأعمالك، لا تعيري أقوالي السخيفة بالاً".

شددتُ على يدها قائلةً: "أشكرك خالة يانغ. أعتقد أنك ترين الكثير من السعادة والبسمة في الأطفال هنا، وأنا متأكدة من أنهم خلال نموهم سيكونون امتداداً لروح شياو بينغ والأشياء الجميلة التي تركتها للعالم". نظرتُ إلى صورة شياو بينغ وشعرتُ أنها كانت تتوسّلني ألاّ أترك والدتها وحدها... كانت كأنها تكلّمني من خلال صوت ابني بان بان.

عدتُ بعد عدة أيام إلى تانغشان لإجراء مقابلة مع المسؤولة عن الميتم، واردن دينغ.

عملت واردن دينغ موظفةً إدارية في الجيش لأكثر من عشر سنوات. كان زوجها قد ترك الجيش بسبب صحته السيئة وكانت قد انتقلت مع عائلتها من جنوب غرب الصين إلى تانغشان قبل عام من حدوث الزلزال، وكانت فقدت ابنتها في الكارثة وخسر ابنها رجليه الاثنتين. بعد ذلك مات زوجها جرّاء سكتة قلبية، فقامت بتربية ابنها الكسيح بمساعدة الحكومة. درس ابنها علم المحاسبة بمفرده وتطوّع للمساعدة في إجراء الحسابات عندما تباحثت عدة أمهات حول فكرة إنشاء الميتم. وبعد زيارتي بوقتٍ قصير توفي على أثر التهاب في جراحه.

في محاولة لتجنيب واردن دينغ استعادة ذكريات أليمة حاولت إجراء مقابلة مع ابنها عوضاً عنها، لكنه قال إنه كان صغيراً جداً في ذلك الحين ولا يمكنه تذكّر الزلزال. أخبرني أن أمه لم تخبره قط بالسبب الحقيقي خلف موت شقيقته، فقد سمع أنها لم تمت في الزلزال وإنما انتحرت بعده. أراد بقوة أن يسأل أمه عن ذلك لكنه في كل مرة كان يحاول أن يفاتحها بالأمر كانت أمه تسكته على الفور.

لم يبقَ إلاّ أن أسأل واردن دينغ نفسها إن كانت تقبل بإجراء مقابلة معها.

وافقت لكنها اقترحت أن أنتظر وأعود في عطلة العيد الوطني، وعندما سألتها عن السبب قالت: "لن أحتاج وقتاً طويلاً لأخبرك قصتي، لكن ذلك سيجعلني متوترة وغير متماسكة لعدة أيام فيما بعد، وسأحتاج بعض الوقت كي أستعيد توازني". صادف أن العيد الوطني في ذلك العام كان قبل نهاية الأسبوع مما منحنا ثلاثة أيام متواصلة. كانت تلك عطلة طويلة بالنسبة للصين حيث لم تكن العُطَل أمراً رائجاً آنذاك.

في مساء يوم العطلة، وكنت قد وصلتُ للتو إلى تنغشان، اتصلت واردن دينغ تدعوني لملاقاتها.

ذهبت إلى الميتم، وأردت طمأنتها بالقول إن بإمكاننا التوقف في أي لحظة خلال المقابلة إذا شعرت بأي صعوبة.

ابتسمت ابتسامةً واهنة: "شكراً على لطفك يا شينران، لكن لا تنسي أنني جندية رأت الكثير خلال الحرب الكورية".

أومأت قائلةً: "سمعت أنك لم تفقدي أحداً من أفراد عائلتك في الزلزال؟".

"صحيح، لكن الاستمرار بالبقاء كان كارثة بالنسبة لنا كلنا".

"هل يكون تفكيري صحيحاً إن قلت إن زوجك مات حزناً بسبب الفاجعة التي حلّت بابنتك؟".

"نعم، وكدت أن أموت أنا أيضاً، وما منعني عن ذلك هو التفكير بابني المُقعد. فقد فكّرت في نفسي كجزء أساسي منه، وعندها فقط تمكنتُ من الاستمرار بالعيش".

حاولت حثّها على المواصلة بصوت متقطّع: "انتحرت ابنتك بسبب..."

"إلى هذا اليوم ثلاثة فقط يعلمون السبب: زوجي وابنتي وأنا".

"آه؟".

"نعم. لا بدّ أنك سمعت كثيراً عن الدمار الكبير الذي سببه الزلزال - لا أحتاج أن أتطرق إلى ذلك مجدداً. ففي الواقع لا يمكن للكلمات أن تصف المشهد كما يجب، إذ لا يمكن للمرء فهم ماذا يعني أن يكون عند الطرف الآخر من العالم إلا

إذا اختبره بنفسه. وفي حالة كتلك، تفكرين في عائلتك أولاً.

لم تكن الهزات التي تتبع الهزّة الأساسية قد اختفت تماماً عندما تمكنّا أنا وزوجي من مغادرة المبنى الذي كنا نعيش فيه وكان على وشك الانهيار. اكتشفنا أن الغرفة حيث ينام أولادنا قد دُمّرت تماماً لكننا لم نجد لهم أثراً، فانقبض قلبي من الخوف. بسبب وجودنا على مقربة من مطار عسكري، تمّ إنقاذنا بسرعة من قبل جنود الحامية، وسرعان ما سحبوا ابني من تحت الأنقاض لكن رجليه كانتا قد سحقتا فتم بترهما من فوق الركبة كما ترين اليوم. كان محظوظاً لأنه أُنقذ في الوقت المناسب، وإلا في يوم حار كذلك اليوم لكانت جراحه أصيبت بالغنغرينا وعرّضت حياته للخطر. وبعد مرور يومين، وعندما لم يتم خلالهما إيجاد ابنتي، كدت أفقد عقلي. رأيت أشخاصاً مصابين ومشوّهين وأمواتاً يُنتشلون كل يوم؛ لم ينتشلوا أحداً تقريباً غير مُصاب أو لم يفقد أعضاء من جسده.

عندما فقدت الأمل تقريباً أخبرني أحدهم أن الكثير من الأشخاص المُصابين قد نُقلوا إلى مدارج المطار، وطالما هناك بصيص أمل كان يجب أن أذهب وألقي نظرة.

لكني صُعقت عندما وصلت المطار ولم أستطع النطق: كانت المدارج مكتظّة بالأجساد التي تئن ممددةً في أربعة أو خمسة صفوف. عندها فقط أدركت أن الزلزال لم يضرب منازلنا فقط وإنما دمّر المدينة بأكملها وقضى على المئات بل الألوف من الناس. امتلأ قلبي بالرعب ورحت أفتش محاولةً التعرّف إلى ابنتي بين صفوف الجثث والمصابين. لا بدّ أنهم كانوا كلهم أحياء عندما وصلوا إلى هنا، لكن بعضهم توفي قبل أن يسنح الوقت لإجراء الإسعافات الأولية لهم. كان من الصعب التعرّف إلى أي أحد: كان معظمهم بالكاد يرتدي ملابس؛ بعض وجوه النساء كانت مُغطّاة بشعرهن، وكان الوحل يغطي بعض الناس. بعد نصف يوم كنت قد فتشت أقل بقليل من نصف أحد المدارج، وعند الغسق ذهبتُ إلى الخيم التي أمّنها الجنود لنا، مقررةً أن أتابع البحث صباح اليوم التالي.

الكثير من الناس كانوا نائمين في الخيمة ذاتها، ولم يكن هناك فرق بين رجل

أو امرأة أو بين غني وفقير. كان الناس يسقطون من التعب في أي بقعة خالية يجدونها وقد أنهكهم التفتيش المتواصل دون طعام أو ماء، يتغذّون فقط بالأمل.

كنت على وشك أن أغفو عندما سمعت رجلين يتكلمان على مقربة مني:

- ماذا تفعل؟ ألم تنم بعد؟

- إني أفكر بتلك الفتاة...

- ما زلت؟

- لست أفكر "في ذلك"، بل كنت أتساءل وحسب أن من الممكن للمرء أن يموت بعد أن رُميَ في ذلك المكان.

- اللعنة، لم أفكر في ذلك.

- ما فعلناه كان سيئاً كفاية، ماذا لو ماتت؟

- ماذا تعني بذلك؟ هل تريد أن تذهب وتتفقدّها؟ إذاً، الأفضل أن نذهب بسرعة. وعندما نعود سيكون قد بقي مكان نستطيع النوم فيه، فالمطر سيبللنا إذا نمنا في الخارج.

التفتُّ لأرى من الذي كان يتكلم وصُدمتُ عند رؤيتي رباطاً ملوّناً يتدلى من السروال القصير لأحد الرجلين، فقد بدا مثل الرباط الذي تستعمله ابنتي لتربط به شعرها إلى الوراء. لم أشأ أن أصدق أن الفتاة التي يتكلمان عنها هي ابنتي، لكن ماذا لو كانت هي؟ أسرعتُ إلى الرجلين وسألتهما من أين حصلا على الرباط، لكنهما لم يرغبا أن يعطياني جواباً صادقاً، مما زاد من شكوكي، فصرخت فيهما وسألتهما بشراسة عن مكان الفتاة التي كانا يتكلمان عنها؛ ارتعبا وتمتما شيئاً عن خندقٍ ما عند مدرجٍ بعيد، ثم هربا. لم أتمكن من سؤالهما عن تفاصيل أخرى، فكيف بالحري الإمساك بهما؛ كل ما أردت هو معرفة إن كانت الفتاة ابنتي.

ركضتُ في الاتجاه الذي أشار إليه الرجلان، وحين وصلت إلى حافة خندق سمعتُ أنيناً خافتاً، لكنني لم أستطع رؤية من كان في الظلمة. وفي تلك اللحظة وصل جنديان في دورية واتجها نحوي. كانت معهما مصابيح ضوئية وكانا يحرسان

المصابين على المدارج. طلبتُ منهما أن يسلّطا ضوء مصباحيهما ناحية الخندق، وفي ضوء المصباحين الخافت رأينا فتاةً عارية. في تلك اللحظة كانت مشاعري مرتبكة تماماً، فقد تمنّيتُ أن تكون الفتاة ابنتي وأن لا تكون في الوقت نفسه، وعندما ساعدني الجنديان على حملها إلى المدرج أدركتُ أنها كانت ابنتي بالفعل.

صرختُ باسمها "شياو ينغ، شياو ينغ!" لكنها نظرت إلي بارتباك ولم تقم بأي رد فعل.

"شياو ينغ، أنا ماما!" فجأةً لاحظت أن الجزء الأسفل من جسمها كان لزجاً ورطباً، لكن لم يكن هناك وقت للتفكير في الأمر أكثر من ذلك. ألبستها بسرعة بعض الثياب التي أعطانا إياها الجنود، واستغربتُ عندما أنزلت شياو ينغ السروال مجدداً.

حين سألتها لماذا فعلت ذلك، أغمضت عينيها وهمهمت. كانت متعبةً جداً، وسرعان ما غلبها النعاس ونامت. بقيت ممدةً بذهول لفترة طويلة قبل أن أغفو بدوري.

استيقظت عند الفجر على دوّي إحدى الطائرات، وحين رأيت شياو ينغ ممدّدةً إلى جانبي صُعقتُ: كانت تجذبُ سروالها إلى تحت بينما ارتسمت ضحكة غبية على فمها وكان ساقاها وأُربيّتها مغطاة بالدم. عندها فقط تذكرت كلام الرجلين. هل استغلاّ الكارثة ليغتصبا شياو ينغ؟ لم أجرؤ على تصديق الأمر. وابنتي، الفتاة المُفعمة بالحيوية والمتألقة، كانت قد فقدت عقلها.

قال الطبيب إن شياو ينغ تعرّضت لصدمة كبيرة وأخبرنا، أنا وزوجي، أن من المؤكد أن شياو ينغ قد تعرّضت لاغتصاب جماعي. كان ذلك كل ما سمعته قبل أن أفقد الوعي، وعندما استفقت كان زوجي يمسك بيدي ووجهه رطب من كثرة البكاء. نظرنا إلى بعضنا بعضاً بصمت وأجهشنا بالبكاء: ابنتنا تعرّضت لاغتصاب وحشي وفقدت عقلها، وابننا فقد ساقيه..."

توقفت واردن دينغ عن الكلام.

سألتها بهدوء: "هل يمكنني أن أسأل إن كنتما أرسلتما شياو ينغ للعلاج؟".

"فعلنا ذلك، لكننا لم نفهم أنها كانت ستظل تشعر بفظاعة ما حصل حتى بعد أن تتعافى. وبعد سنتين ونصف، بعد أن كانت ذاكرتها بدأت تعود إلى طبيعتها، قبل اليوم الذي كنا نخطط فيه لإعادتها إلى المنزل لتبدأ حياةً جديدة، شنقت نفسها في غرفتها بالمستشفى.

في الرسالة التي تركتها لنا قالت:

ماما وبابا العزيزان،

أنا آسفة، لم أعد أستطيع الاستمرار بالعيش. لم يكن ينبغي عليكما إنقاذي. لم يتبقَّ لي من ذكريات سوى انهيار كل شيء ووحشية وعنف أولئك الرجال. هذا كل ما تبقى لي في هذا العالم، ولا أستطيع العيش مع تلك الذكريات كل يوم. التذكّر مؤلم جداً. أنا راحلة.

ابنتكما، شياو ينغ.

سألتها: "كم كان عمر شياو ينغ في ذلك الوقت؟".

"ستة عشر، وشقيقها أحد عشر عاماً"، توقفت واردن دينغ عن الكلام للحظة، "نتف زوجي شعره من الحزن والأسى، وكان يقول إنه هو السبب في ما حصل لابنتنا، لكن بالطبع لم يكن خطأه. تلك الليلة لم يذهب للنوم إلا في ساعة متأخرة. كنت منهكة فذهبت إلى النوم، لكن عندما استيقظت كان جسده بارداً ووجهه جامداً من الحزن. قالت شهادة الوفاة التي أصدرها الطبيب إنه مات جراء سكتة قلبية بسبب الإعياء الشديد".

لم أعد قادرة على التنفس. "من الصعب تخيّل كيف تتحمّلين هذا يا واردن دينغ".

أومأت برأسها ببؤس.

"وأردتِ ألاّ يعلم ابنك؟".

"كان قد تعرض للضرر في جسده، فكيف يمكنه تحمل الضرر نفسه في عقله ومشاعره؟".

"لكنك استمريت بشجاعة".

"نعم، لكني لم أكن شجاعة. أنا من أولئك الأشخاص الذين يظهرون أقوياء أمام الآخرين، برج مزعوم من القوة بين النساء، لكني أبكي طوال الليل حين أكون وحدي: على ابنتي، وزوجي، وابني، وعلى نفسي. أحياناً لا أعود قادرة على التنفس لشدّة اشتياقي إليهم. بعض الناس يقولون إن الزمن يشفي كل شيء، لكنه لم يشفني".

في طريق عودتي إلى المنزل، بكيت في القطار طوال الطريق. وبكيت مجدداً عندما أمسكت بالقلم لأسجّل التجارب التي مرّت بها تلك الأمهات. أجد أن من الصعب جداً تخيل شجاعتهن. فهن لم يزلن على قيد الحياة، وحملهم الزمن إلى الحاضر، لكن في كل دقيقة، كل ثانية، مرّت، كنّ يصارعن مشاهد تركها لهنّ الموت؛ وكل نهار وكل ليل يتحملّن الذكريات المؤلمة لفقدان أولادهن. هذا النوع من الألم لا يمكن إزالته بواسطة إرادة كائن بشري: أصغر الأشياء المنزلية - خيط وإبرة، وعاء وعيدان تناول الطعام - يمكن أن تعيدهن إلى الوجوه الضاحكة لمن فقدنهم الضاحكة وإلى أصواتهم. لكن يجب أن يبقين أحياء؛ يجب أن يخرجن من ذكرياتهن ويَعُدن إلى الواقع. الآن فقط أدركتُ سبب وجود صورة عين في كل غرفة في الميتم - تلك العين الكبيرة الممتلئة بالدمع؛ تلك العين التي كُتب على بؤبؤها "المستقبل". لم يحبُسن عطف الأم الذي بداخلهن داخل ذكرياتهن عن أولادهن؛ لم يُغرقن أنفسهنّ في دموع الألم منتظرين الشفقة، بل أنشأن، بعظمة الأمهات، عائلات جديدة لأولاد فقدوا أهلهم. بالنسبة لي، تلك النساء كن برهاناً على قوة النساء الصينيات التي لا يمكن تخيّلها. وكأم، يمكنني أن أتخيل الشعور بالفقدان الذي شعرن به، لكنني لا أعلم إن كنت سأتمكن من العطاء بهذا الشكل في خضمّ وجع كوجعهنّ.

عندما قدّمتُ برنامجاً مرتكزاً على هذه المقابلات، تلقّيت أكثر من سبعمئة

رسالة خلال خمسة أيام. طلبت مني بعض الناس أن أرسل إلى الأمهات في الميتم احترامهم وأن أشكرهنّ، وبعضهم أرسل مالاً طالباً مني أن أشتري به هدايا للأولاد. شاركوا المشاعر التي أثارها البرنامج فيهم: قالت لي إحدى السيدات إنها شعرت بالامتنان على أولادها. كما قالت لي فتاة إنها أرادت أن تحضن أمها لأول مرة، وقال فتى، كان قد ترك المنزل منذ بضعة أشهر، إنه قرر العودة إلى أهله وطلب الغفران منه أبويه. كل طاولة من طاولات غرفة المكتب كانت مغطّاة بهذه الرسائل وكانت علبة كرتون كبيرة وُضعت إلى جانب الباب ممتلئة بهدايا للأولاد وأمهاتهنّ. فيها أشياء من العجوز تشين، بيغ لي، مينغشينغ، شياو ياو، العجوز جانغ... ومن زملاء كثيرين آخرين.

٦

معتقدات النساء الصينيات

لم أنسَ أسئلة الطالبة الجامعية جين شواي الثلاثة: ما الفلسفة التي تملكها النساء؟ ما السعادة بالنسبة للمرأة؟ وما الذي يجعل المرأة امرأة صالحة؟ وحاولت الإجابة عنها خلال الأبحاث التي كنت أقوم بها من أجل برامجي.

اعتقدتُ أنه سيكون مثيراً للاهتمام أن أسأل زملائي الأكبر مني سناً والأوسع خبرةً، مثل بيغ لي والعجوز تشين، عن رأيهما حول الفلسفات التي تقود حياة النساء. بالطبع في زمن كانت عقيدة الحزب تأتي فيه دائماً أولاً كان يجب أن أكون حذرة حول الطريقة التي أطرح بها سؤالي، فكنت أطرحه على النحو التالي: "طبعاً، تؤمن النساء بعقيدة الحزب قبل أي شيء، لكن هل لديهنّ أي اعتقادات أخرى؟".

كان العجوز تشين متلهفاً لمناقشة الموضوع، وقال "إن النساء الصينيات لديهنّ إيمان ديني، لكن يبدو أنهن قادرات على اعتناق عدة أديان في وقت واحد. النساء اللواتي يؤمنّ بممارسات التشي غونغ الجسدية والروحية يبدّلن نوع التشي غونغ الذي يمارسنه باستمرار وكذلك المعلم الذي يتبعنه؛ آلهتهن أيضاً تأتي وتذهب. لا يمكنك لومهنّ، فمشقّات الحياة تجعلهنّ يتُقنَ لإيجاد طريقة للهرب. وكما قال الرئيس ماو: "الفقر يمنح الرغبة في التغيير". الآن نحن نؤمن بماو تسي تونغ والشيوعية، لكننا قبل ذلك كنا نؤمن بالسماء، بالإمبراطور السماوي، ببوذا ويسوع ومحمد. فرغم تاريخنا الطويل إلاّ أننا لا نملك ديناً خاصاً بنا. كان الناس يعتبرون

الأباطرة والحكّام آلهة، لكنهم كانوا يتغيّرون باستمرار فاعتاد الناس عبادة آلهة مختلفة. وكما يقول المثل: "لكل مئة شخص هناك مئة عقيدة". في الواقع، يمكنك القول إنه ليست هناك أي عقيدة حقيقية على الإطلاق. النساء أكثر واقعيةً وعمليةً من الرجال، ومن هنا يعتمد سلوكهنّ على تغطية كل الأسس. لا يستطعن أن يقررن أي إله لديه السلطة وأي روح هي نافعة أكثر، لذلك يضعن إيمانهن في كلٍّ منهم، فقط لتجنّب أي مجازفات".

كنت أعلم أن ما يقوله صحيح، لكنني تساءلتُ كيف تمكّن الناس أن يوفّقوا بين مذاهب معادية لبعضها بعضاً. وكأن العجوز تشين حزر أفكاري فقال: "أعتقد أن أي امرأة بالكاد تستطيع فهم معنى الدين، فمعظمهن يحاولن فقط مجاراة الآخرين خوفَ أن يجدن أنفسهن في موقفٍ حرج".

شاطر بيغ لي العجوز تشين الرأي، وقال إن بيتاً واحداً قد يكون فيه عدة مذابح مخصّصة لآلهة مختلفة، خاصةً بعد إعلان الحرية الدينية عام ١٩٨٣، وأن معظم الناس الذين يصلّون يفعلون ذلك من أجل طلب الثروة ومنافع أخرى. أخبرنا عن جيرانه: كان الجدّ بوذياً والجدّة طاوية (Taoist، تتبع تعاليم الفلسفة الطاوية)، لذلك كانا في شجارٍ دائم. وبعيداً عن عيدان البخور علّقت الحفيدة صليباً؛ فكان جدّاها يؤنّبانها باستمرار بشأن ذلك قائلين إنها تسبّبت لهما بلعنة ستودي بهما إلى موتٍ مبكر. كانت والدة الفتاة تؤمن بنوع من التشي غونغ والوالد كان يؤمن بإله الثروة، وهما أيضاً كانا يتشاجران بشكل مستمر: المرأة تقول إن رغبة زوجها في الحصول على المال دمّرت مكانتها الروحية، ويتّهم الرجل الزوجة بأن تأثيراتها الشريرة هي التي تمنع عنه البحبوحة والثروة. وقد أنفقت هذه العائلة المال القليل الذي كانت تملكه على الطقوس الدينية أو الصور المقدسة، لكنهم لم يصبحوا أكثر غنىً أو سعادة.

أخبرنا بيغ لي أيضاً عن امرأة تشغل منصب مديرة كان يُقال إنها متدينّة. وخلال الخطابات العلنية كانت تمجّد وتمدح الحزب الشيوعي على أنه أمل الصين

الوحيد؛ وما إن تنزل عن المنصّة حتى تبدأ بالتبشير بالبوذية، وتقول للناس إنهم سيثابون في الحياة الأخرى بحسب أعمالهم في هذه الحياة. وحين تغيّر التيار أخذت تنشر تعاليم بعض أنواع التشي غونغ العجائبية. قال أحد الذين يعملون معها إنها كانت تضع شعار الحزب الشيوعي على معطفها، وتربط صورة لبوذا على صدريّتها، وتشبك صورة المعلم العظيم يانغ من بدعة "يانغ مي غونغ" في حمّالة صدرها. وعندما رأى بيغ لي تعابير عدم التصديق على وجهي أكّد لي أن هذه المرأة كانت غالباً ما تُذكر في الصحف. فقد كانت تُنتخب كعاملة نموذجية كل سنة، كما أنها اختيرَت كعضو بارز في الحزب عدة مرات.

قلت بنبرة فيها بعض الاستخفاف: "لا يمكن أن يرضى الحزب عن تديّنها السري".

ضرب العجوز تشين الطاولة بيده وقال بحزم: "كوني حذرة يا شينران، فإن ذلك قد أن يؤدي إلى قطع رأسك".

"هل ما زال علينا أن نخاف؟".

"لا تكوني ساذجة! ففي الخمسينيات دعانا الحزب "لنجعل مئة زهرة تتفتح ومئة مدرسة فكر تتجادل". ماذا حصل وقتها؟ أولئك الذين لبّوا النداء سُجنوا جميعاً أو أُرسلوا إلى القرى الجبلية الفقيرة. بعضٌ منهم كان قد عبّر عن أفكاره في مفكراتهم اليومية فقط، لكنهم هم أيضاً تعرّضوا للتشهير والسَجن".

كان العجوز تشين في الأساس رجلاً طيباً، وقد حذّرني قائلاً: "لا يجب أن تتكلمي عن العقيدة والدين كثيراً، فذلك لن يجلب لك سوى المتاعب".

خلال السنوات القليلة التي تلت أجريت مقابلات مع عدد من النساء حول معتقداتهن، وقد أكّدن واقع أنهن كنّ قادرات على الإيمان بمجموعة مختلفة من الأديان في الوقت نفسه. فقد التقيت، في مدينة جينغجاو، امرأةً في الملاك الوظيفي متقاعدة تمكّنت أن توفّق بين ولائها للحزب الشيوعي وإيمانها القوي بالفانغ شيانغ غونغ (تشي غونغ الرائحة والعطر) - نوع من التشي غونغ حيث تكون الفكرة هي السبب بإصدار المعلم رائحة يتنشّق المرء من خلالها طيبته ويبني قوته الجسدية.

قبل ذلك كانت تؤمن بالتمارين الرياضية التي تساعد الجسم على المحافظة على رشاقته وصحته وبالعلاج بالأعشاب، وحين سألتها إن كانت تؤمن بالبوذية طلبت مني أن أخفض صوتي، لكنها اعترفت أنها كانت تؤمن بها. إذ لطالما قال كبيرو السن في عائلتها إن الإيمان بكل شيء هو أفضل من عدم الإيمان. قالت لي أيضاً إنها في آخر السنة كانت تؤمن بيسوع الذي هو سانتا كلوز الذي يزور منازلنا ليُساعدنا. عندما أبديت استغرابي من فكرة أن يسوع هو نفسه سانتا كلوز قالت لي إنني شابة جداً لأعرف وطلبت مني ألاّ أخبر أحداً بحديثنا: "نقول في المنزل: آمنوا بآلهتكم الخاصة وافعلوا ما يحلو لكم؛ وخارج المنزل نقول: آمنوا بالحزب وانتبهوا لما تقولونه. لكنني لا أريد أن يعلم أحد بما قلته لك، لا أريد أن يزعجني الناس مجدداً الآن وقد أصبحت عجوزاً".

طمأنتُها بالقول: "لا تقلقي، لن أخبر أحداً بأنك المصدر الذي استقيتُ منه معلوماتي".

نظرت إلي المرأة في شك وقالت: "هذا ما تقولينه، لكن لا يمكن الوثوق بأحد في هذه الأيام".

كانت ممارسة التشي غونغ تزداد شعبيةً في الصين في ذلك الحين. كان الناس يؤمنون كلياً بالمعلّمين الذين يمارسون التشي غونغ لكنني كنت أشك بسلطتهم. في عام ١٩٩٥ التقيت أستاذة تدرّس في جامعة بكين وكانت مناصرة متحمّسة جداً لنوع جديد من التشي غونغ يدعى "فالون غونغ" - أو يجب أن أقول إن مؤسسها هو لي هونغ جي. كانت تعاليم لي هونغ جي تقول إن العالم مقسوم إلى ثلاثة مستويات: مستوى حارس البوابة - هو نفسه؛ المستوى الذي تنتمي إليه أرواح تتمتع بفضيلة غير عادية - الإله المسيحي، البوذا، إلخ؛ والمستوى الثالث حيث يعيش الناس العاديون. قالت لي: "المعلم لي هو الإله الذي سينقذ البشرية من مكبّ النفايات الذي تحوّل إليه العالم قبل أن ينفجر. هو لا يعتمد على السحر لإنقاذ الناس بل يعطيهم تمارين روحية لتنمية فضائل الحقيقة والطيبة والتسامح،

ولتجعلهم مؤهّلين للارتقاء إلى السماء. قالت إنها كانت أيضاً تؤمن بالإله المسيحي وارتبكت عندما سألتها كيف يمكنها فعل ذلك إن كانت تعاليم لي هونغ جي تقول إنه لممارسة فالون غونغ يجب أن لا تكون هناك أي آلهة أو أرواح أخرى في قلب المؤمن.

وماذا عن الشبيبة؟ التقيتُ مرّة فتاتين شابتين في العشرين من العمر تقريباً أمام كنيسة Taiping South Road البروتستانتية في نانجينغ. كانت إحداهما ترتدي ثياباً أنيقة، وتركت شعرها اللامع ينسدل على كتفيها، بينما الفتاة الأخرى لم تكن ترتدي ثياباً أنيقة وكانت تربط شعرها إلى الخلف على شكل ذيل حصان. أعتقدت أن الفتاة الأنيقة كانت تأتي إلى الكنيسة لأن تلك هي الموضة، وأن صديقتها قد أتت بدافع الفضول، لكنني كنت مخطئة.

سألتهما إن كانتا تأتيان إلى الكنيسة في أغلب الأحيان.

نظرت الفتاة الأنيقة إلى صديقتها وأجابت: "إنها المرة الأولى التي آتي بها، لقد أجبرتني على الحضور معها".

قاطعتها الفتاة ذات الشعر المربوط مثل ذيل الحصان قائلةً: "إنها المرة الثانية فقط التي أحضر فيها".

سألتها: "هل أتيت من تلقاء نفسك في المرة الأولى أم أن أحداً أحضرك معه؟".

أجابت: "لقد أتيت مع جدتي، هي مسيحية".

سألتها صديقتها: "أليست أمك مسيحية أيضاً؟".

"حسنا، تقول أمي أنها مسيحية لكنها لم تذهب أبداً إلى الكنيسة".

سألتهما معاً: "هل تؤمنان بالمسيحية؟".

أجابت الفتاة الأنيقة: "لم أومن بها قط، لقد سمعت فقط أنها مثيرة للاهتمام".

سألتها: "ماذا تعنين بمثيرة للاهتمام؟".

"العديد من الناس في العالم يؤمنون بيسوع والمسيحية، أعتقد أنْ لا بدّ أنّ فيها ما يستحق الاهتمام".

سألت: "حسناً، هناك العديد من الناس الذين يؤمنون بالإسلام وبالبوذية، ماذا عنهم؟".

هزّت كتفيها قائلةً: "لا أعلم".

قالت صديقتها: "في كل حال، يجب على النساء أن يومنّ بشيء عندما يبلغنَ سن الأربعين".

تفاجأتُ بذلك المنطق: "حقاً؟ لماذا؟".

"انظري إلى الأشخاص الذين يصلّون في الكنائس وأولئك الذين يُشعلون عيدان البخور في المعابد. كلهنّ نساء متوسّطات العمر".

"ما هو برأيك السبب وراء ذلك؟".

قاطعتها الفتاة الأنيقة بغموض قائلةً "يكدّ الرجال بالعمل من أجل المال، وتكدّ النساء بالعمل لأن ذلك قدرهنّ".

قالت صديقتها: "تقول جدتي إنها لم تكن تؤمن بالله عندما كانت صغيرة، لكن بعد أن بدأت تؤمن به لم تعد تقلقها أشياء كثيرة كما في السابق. وتقول أمي إنها بعد أن بدأت تؤمن بالله توقفت عن التشاجر مع أبي. ذلك صحيح، فقد كانا يتشاجران بشراسة، لكن الآن إذا غضب أبي تذهب أمي وتصلي عند الصليب، ويهدأ أبي".

قالت الفتاة الأنيقة: "على كل حال، لا تستطيع النساء إنجاز شيء عظيم. الصلاة لإله ما هي دائماً أفضل من لعب 'ماه جونغ'".

ذُهلتُ من ملاحظتها الوقحة. "هل يجوز التكلم عن الماه جونغ والدين بنفس الطريقة؟".

قالت الفتاة ذات الشعر المربوط بشكل ذيل حصان: "ليس الأمر بهذا الشكل. تقول أمي إن الناس الذين لا يؤمنون بشيء يعيشون الحياة كل يوم بيومه. إذا كانوا يملكون المال فسيتمكنون من التمتع بوقتهم، لكن ليس لديهم ما يكفي للسفر أو حتى للخروج لاحتساء كأس شراب، لذلك يلازمون منازلهم ويلعبون الماه جونغ. على الأقل، يمكن أن يربحوا القليل من المال".

سألتُ: "ماذا عن النساء المتديّنات؟".

قالت الفتاة الأنيقة وهي تُرجعُ رأسها إلى الوراء: "الناس الذين يؤمنون بدين ما مختفلون".

أكّدت صديقتها ذلك: "مختفلون جداً. فالنساء المتديّنات يقرأن الكتب المقدّسة ويشاركن في النشاطات الدينية ويساعدن الآخرين".

سألتهما معاً: "ف هل ستعتنقان ديناً ما إذاً عندما تبلغان الأربعين من عمركما؟".

هزّت الفتاة الأنيقة كتفيها ولم تُجب لكن صديقتها أجابت بحزم: "إن كنت غنية فلن أعتنق أي دين، أما إن كنت لا أزال فقيرة هكذا فسأفعل".

سألتُ: "وأي دين ستعتنقين؟".

أجابت: "ذلك يعتمد على أي دين يكون 'موضة' ذلك الحين".

بعد ذلك غادرت الفتاتان فيما بقيت واقفة خارج الكنيسة فاغرة فمي.

٧

المرأة التي كانت تعشق النساء

كان زملائي يتداولون القول التالي فيما بينهم: "يصبح الصحافيون أقل شجاعة مع الوقت". بعد أن اكتسبتُ خبرة حول كيفية عمل البث الإذاعي ومحاولتي توسيع حدود برنامجي بدأتُ أفهم ماذا كانوا يقصدون بذلك. فقد كان من الممكن أن يرتكب صحافي في أي لحظة خطأ من شأنه تعريض مهنته للخطر، هذا إن لم تُعرّض حريته للخطر ويوضع في السجن. كانوا يعيشون داخل شبكة من القوانين المُحدّدة بدقة تؤدي مخالفتها إلى عواقب وخيمة. وأول مرّة قدّمت فيها برنامجاً إذاعياً بدا المشرف علي قلقاً لدرجة ظننتُ أنه سيُغمى عليه. لم أكتشف إلا لاحقاً، بعد أن أصبحتُ بدوري رئيسة قسم، أنه، في ظلّ أنظمة وقوانين المختصّة بالبث وبالإذاعة الصينية، إذا قُطِع البثّ أكثر من ثلاثين ثانية فإنّ اسم المسؤول عن تلك المناوبة يُعمَّم عبر البلاد، وهو عمل تأديبي من شأنه منع أي ترقية مستقبلية. حتى أصغر الأخطاء كانت تؤدي إلى تخفيض المُكافأة الشهرية (التي كانت أكبر بكثير من الراتب نفسه)؛ أما الأخطاء الكبيرة فغالباً ما كانت تؤدي إلى تخفيض الرُتبة وأحياناً الطرد.

كان على صحافيي الإذاعة أن يحضروا صف تثقيف سياسي مرتين أو ثلاثة أسبوعياً، وكانت تلك الصفوف تتضمّن آراء دينغ شياو بينغ حول سياسة الإصلاح والانفتاح ونظرية جيانغ زيمين حول السياسة في خدمة الاقتصاد. كانت المبادئ

والأهمية السياسية للأخبار تعاد على مسامعنا كل مرة، ولا تكتمل أي جلسة دون إدانة بعض الزملاء بسبب عدة تجاوزات: عدم إذاعة أسماء القادة بالترتيب الصحيح خلال البرنامج، أو إظهار عدم فهم لأساسيات الحزب خلال تعليق ما، عدم احترام الأكبر سناً، عدم تصريحهم عن حبهم للحزب، التصرف غير اللائق؛ كل هذه الأمور وغيرها. وكنت أشعر خلال تلك الجلسات كأن الصين كانت لا تزال في قبضة الثورة الثقافية: ما زال السياسيون يتحكّمون بكل جانب من جوانب الحياة اليومية، بإخضاع بعض المجموعات من الناس للرقابة والحكم كي يشعر الآخرون أنهم ينجزون شيئاً.

كنت أجد صعوبةً في حفظ كل تلك المعلومات السياسية، لكنني كنت أحرص على تذكير نفسي مراراً بالمبدأ الأهم: "الحزب يقود كل شيء"، وجاء الوقت الذي امتُحِنَ فيه مفهومي لهذا المبدأ.

جلب نجاح برنامجي شهرةً واسعة لي، وكان الناس يدعونني "أول مقدمة برامج 'ترفع الستار' عن النساء الصينيات. أول امرأة صحافية تُعنى بمسائل النساء وتغوص إلى عمق حقيقة حياتهن". قامت الإذاعة بترقيتي وتلّقيتُ الكثير من الدعم المالي. كما أني تمكنتُ أخيراً من إنشاء برنامج خط ساخن يتلقى اتصالات المستمعين على الهواء مباشرةً.

كانت كل استوديوهات البثّ المباشر تتألف من غرفتين، واحدة تحتوي وحدة البث الإذاعي الخاصة بالمقدّم والموسيقى والملاحظات، والغرفة الأخرى هي غرفة التحكّم. كانت اتصالات الخط الساخن تصلني عبر مُراقِبة البثّ التي كانت تقوم بضبط آلية تأخير الوقت. فقد كانت لديها حوالي عشر ثوانٍ لتقرر إن كان الاتصال مناسباً للبث أم لا وقطعه دون أن ينتبه المستمعون لذلك.

في مساء أحد الأيام، وكنت على وشك إنهاء برنامجي مع بعض الموسيقى الهادئة التي كنت أضعها عادةً في آخر عشر دقائق من البرنامج ، تلقّيت اتصالاً أخيراً:

"مرحباً شينران، أنا أتصل من مآنشان. شكراً على برنامجك، فهو يمنحني الكثير

لأفكر به ويساعدني ويساعد الكثير من النساء غيري. اليوم أود أن أسألك رأيك بالمثلية. لماذا يتحيّز الناس ضدّ الأشخاص المثليين؟ لماذا جعلت الصين المثلية غير قانونية؟ لماذا لا يفهم الناس أن المثليين لهم نفس الحقوق والخيارات في الحياة مثل أي شخصٍ آخر؟..."

بينما كانت المتّصلة تكمل سلسلة أسئلتها، أخذتُ أتصبّبُ عرقاً بارداً. كانت المثلية موضوعاً محرّمٌ تناوله في قوانين وأنظمة الإعلام؛ تساءلتُ بيأس عن سبب عدم قطع المُراقِبة الاتصال فوراً.

لم يكن هناك مجال أبداً لتجنب الرد على هذا السؤال، فقد كان آلاف الناس ينتظرون ردّي ولم أكن قادرة على إعلامهم بأن الموضوع محرّم. كما أني لا أستطيع أن أقول إن وقت البرنامج قد انتهى، فمازالت هناك عشر دقائق على انتهائه. رفعتُ صوت الموسيقى بينما رحتُ أسترجع يائسةً كل ما قرأته عن المثلية وحاولتُ التفكير بطريقة تمكّنني من التعامل مع الموضوع بدبلوماسية. كانت المرأة قد سألت للتو سؤالاً لاذعاً لا شك أنه بقي في ذهن المستمعين:

"المثلية لها تاريخ خاص بها، منذ روما القديمة في الغرب وسلالات تانغ وسونغ في الصين إلى يومنا هذا. هناك جدالات فلسفية تقول إن كل ما هو موجود هو موجود لسبب، فلماذا إذاً تُعتبر المثلية غير منطقية في الصين؟".

في تلك اللحظة رأيت، عبر الزجاج الذي يفصل غرفتي عن غرفة التحكّم، المُراقبة تجيب على الهاتف الداخلي. اصفّر لونها وقطعت الاتصال في منتصفه متجاهلةً القاعدة الصارمة التي تنصّ على عدم عمل ذلك. وبعد ثوانٍ قليلة اندفع المدير المناوب إلى غرفة التحكّم وقال لي عبر نظام الاتصال الداخلي: "احترسي شينران!".

تركت الموسيقى تعزف دقيقةً أخرى قبل أن أشغّل الميكروفون. "مساء الخير، أيها الأصدقاء الذين تجلسون إلى جانب الراديو، أنتم تستمعون إلى برنامج 'كلمات على نسيم الليل'. اسمي شينران، وأنا أناقش مباشرةً على الهواء عالم النساء معكم. يمكنكم أن تستمعوا هنا إلى قصص النساء من العاشرة حتى الثانية عشرة كل ليلة،

وأن تستمعوا إلى قلوبهنّ وتتعلّمو من حياتهنّ". فعلت ما بوسعي لأملأ وقت الهواء بينما كنت أنظّم أفكاري.

"لقد تلقّينا للتو مكالمة من مستمعة تعرف الكثير عن المجتمع والتاريخ، وتتفهّم خبرات مجموعة من النساء اللواتي لديهنّ نمط حياة غير تقليدي.

على حدّ علمي، فإن المثلية، كما قالت المتّصلة، ليست فقط نتاج مجتمع عصري: هناك تأريخات عن المثلية في التاريخين الغربي والشرقي. ويُقال إنّ حتى الحكّام شجّعوا جنودهم على ممارسة المثلية خلال حروب الغزو في روما القديمة، لكن في ذلك الوقت ربما كانت المثلية بالنسبة إليهم مسألة منفعة أكثر منها مسألة قبول. لقد ساعدت العلاقات المثلية الجنود على تحمل الحرب واشتياقهم لعائلاتهم، وفي تحوّلٍ قاسٍ منحت تلك الارتباطات العاطفية التي تكوّنت بين الجنود حافزاً إضافياً للانتقام لعشّاقهم الأموات أو الجرحى.

في الصين، لم تكن المثلية محصورةً بسلالتي تانغ وسونغ؛ فهناك سجلاّت عن المثلية تعود إلى سلالة واي الشمالية، وقد صدرت كل تلك السجلات عن البلاط الأمبراطوري. لكن المثلية لم تسد في المجتمع قط، ربما لأن البشرية تملك حاجة طبيعية للحب بين رجل وامرأة، وحاجة للإنجاب. وكما يقول المأثور الصيني: "الكل يتنافس للحصول على بقعة خاصة به، والقدر يختار".

نتّفق كلنا على أن لكل شخص الحق في اختيار نمط حياته، والحق في حاجاته الجنسية، لكن الإنسانية في حالة تحوّل مستمر. فكل البلدان والمناطق والمجموعات الإثنية تسير نحو مستقبل البشرية بأفضل ما يمكنها، باحثةً عن النظام المتكامل. لا أحد منا يستطيع بعد أن يَخْلُص إلى نتيجة حاسمة حول الخطأ أو الصواب المتعلقين بهذه الرحلة، ولبلوغ الكمال نحتاج إلى الإرشاد والتوجيه، كما أننا نحتاج أيضاً إلى التسامح والتفهّم.

لا أعتقد أن الوراثة هي المسبِّب الوحيد للمثلية ، كما أني لا أعتقد أن البيئة العائلية هي الوحيدة المسؤولة عن ذلك أيضاً، بل أعتقد أن مصادر المثلية عديدة

ومتنوّعة. كلنا نملك خبرات مختلفة في الحياة، ونقوم باختيارات مماثلة لكن مختلفة. الاعتراف بالاختلاف يعني أنه لا يجب أن نتوقّع من الآخرين أن يتفقوا معنا في الرأي حول المثلية، لأن توقّعات كتلك يمكنها أن تؤدي إلى إجحاف من نوع آخر.

إلى أصدقائنا المثليين الذين تعرّضوا للإجحاف، أود أن أقول "متأسّفة" بالنيابة عن كل الأشخاص اللامُبالين الذين التقيتموهم، فكلنا نحتاج إلى التفهّم في هذا العالم".

رفعت صوت الموسيقى وأطفأت الميكرفون وأخذتُ نفساً عميقاً. فجأةً أدركتُ أن غرفة التحكّم في الجهة الأخرى من الفاصل الزجاجي كانت مكتظّة بمعظم موظفي الإذاعة الكبار. هرع رئيس المحطّة ومدير البرامج إلى الاستوديو فأمسكا يديّ وصافحاني بقوّة.

"شكراً، شكراً يا شينران! لقد أجبتِ بطريقة جيدة جداً جداً!". كانت راحتا رئيس المحطّة رطبتين لشدة التعرّق.

تمتم مدير البرامج قائلاً: "لقد أنقذتنا" وكانت يداه ترتجفان.

"كفى كلاماً، هيا بنا نذهب لنأكل شيئاً! يمكننا أن نضع الفاتورة على حساب المكتب"، قال العجوز وو، رئيس الإدارة. أذهلني الاهتمام الذي غُمرتُ به.

لاحقاً اكتشفت ما حدث. فقد أخبرتني مراقِبةُ البثّ أنها كانت قلقة بشأن امتحانات دخول ابنها إلى الجامعة فلم تنتبه للاتصال إلى أن اتصل بها المدير المناوب وهو في حالة من الذعر. كان العجوز وو يستمع إلى البرنامج من المنزل كما يفعل كل يوم، وحين أدرك أن البرنامج قد دخل حقل ألغام اتصل على الفور بمدير البرامج الذي أسرع إلى الاتصال برئيس المحطّة: فأن يكون مدركاً للحالة ولا يُبلِّغ عنها كان من شأنه أن يجعل الخطأ أكثر جسامة. انطلقوا جميعهم إلى الاستوديو وهم يستمعون إلى برنامجي في الطريق، وعندما وصلوا إلى غرفة التحكّم كانت الأزمة قد حلّت نفسها بنفسها.

أول مرة سمعت فيها عن المثلية كانت في الجامعة. فبسبب جمال لون بشرتي أطلقت عليّ الطالبات لقب "بيضة" أو "كرة الثلج"، وغالباً ما كنّ يربّتن على خديّ وذراعيّ بإعجاب. وقد لاحظ أحد الأساتذة فقال لي مرّة مُمازحاً: "انتبهي لئلا تتعرّضي لاعتداء مِثْلّي!".

كنت أعلم ما تعنيه كلمة اعتداء من حيث العنف الجسدي، لكن لم تكن لدي أي فكرة عمّا قصده الأستاذ، فشرح لي قائلاً: "المثلية هي عندما تحب امرأة امرأةً أخرى أو عندما يحب رجل رجلاً آخر، وهذا منافٍ للقانون".

اعترضتُ بالقول: "ماذا؟ هل حب الأمهات لبناتهنّ أو حب الآباء لأبنائهم منافٍ للقانون؟".

هزّ الأستاذ رأسه وقال: "تلك هي علاقات روابط الدم وليس حبّاً جنسياً. آه، لا جدوى من التكلم معك، وكأنني أعزف الموسيقى لثور. انسي الأمر، انسي الأمر".

بعد ذلك سمعت عن المثلية في اجتماع لبعض زميلات أمي السابقات. فقد تبيّن أن أمي عملت في الماضي مع سيدتين كانتا تتشاركان نفس الغرفة، وعندما تحسنت الأحوال وأمّنت وحدة العمل لكل واحدة منهما غرفة منفردة رفضتا العرض. كانتا تتصرفان كأختين، لذلك لم ينتبه أحد للمسألة في ذلك الحين. كانت الفتيات الأخريات المعاصرات لهن مشغولات بالمغازلة، والزواج والأولاد، وبعدها بالأحفاد. وتحت وطأة الانهاك العقلي والجسدي الشديدة التي يرزحنَ تحتها جرّاء متطلّبات عائلتهن، تذكّرن في شيخوختهن المرأتين وحسدنهما على حياة الهدوء والاسترخاء التي تعيشانها معاً. كل تلك الثرثرة والافتراضات التي لم يكلّفوا أنفسهم بها في شبابهنّ ظهرت، واستنتجت مجموعة الزميلات السابقات أن المرأتين كانتا مثليتين.

وأنا أستمع إلى النساء العجائز يخلُصن إلى تلك الاستنتاجات، فكّرتُ كم كانت تلك المرأتان حرّتين وبلا هموم: ربما لم تكن لديهما أي مشاعر من المرارة تجاه الرجال، ومن المؤكد لم يكن لديهما أي قلق قاتل بشأن أولادهما. وفكّرت أن المثلية ربما لم تكن شيئاً سيئاً وأنها ربما كانت مسلكاً آخر في الحياة. لم أفهم

لماذا كان منافياً للقانون، لكن لم يبدُ أن بامكاني سؤال أي أحد عن هذا الأمر.

مرةً استجمعت شجاعتي وسألتُ رئيسة قسم الأمراض النسائية عن الأمر، فنظرت إلي بذهول وقالت: "ما الذي جعلك تفكّرين بذلك؟".

"لماذا، هل من السيئ أن أسأل؟ أردتُ فقط أن أعرف ما الذي يجعل تلك النساء مختلفات عن الأخريات؟".

"ما عدا الفرق في العقلية والسلوك الجنسي، هن لسنَ مختلفات عن النساء العاديات"، قالت الطبيبة النسائية ذلك دون أن تشدّد على الموضوع كثيراً.

ضغطتُ عليها. "إن كانت عقلية امرأة وسلوكها الجنسي مختلفَيْن عن عقلية وسلوك النساء بشكل عام، فهل لا يزال بالإمكان اعتبارها امرأة عادية؟". إما أن الطبيبة النسائية لم تكن تعرف الشرح المناسب أو أنها لم تكن مستعدّة لذلك.

المرة الثالثة التي صادفت فيها مسألة المثلية كانت عندما أرسلتني الإذاعة لأغطّي حملة نظام عام على مستوى المدينة كلها.

عندما رآني منظّم العملية هتف قائلاً: "كيف يمكن أن تكون الإذاعة قد أرسلت امرأة؟ لا بد أن هناك خطأ ما! آه، حسناً، بما أنك هنا فيمكنك أن تبقي، لكني أخشى أنك ستقدّمين تقريراً مسجّلاً وليس تقريراً فورياً".

انفجر زملاؤه بالضحك، لكني لم أفهم. وعندما بدأت العملية أصبح سبب ضحكهم واضحاً: كانوا يقومون بمداهمات مراحيض الرجال العامة - التي كانت رائحتها كريهة جداً جداً - ويعتقلون الرجال الذين كانوا يمارسون المثلية داخلها.

كانت لدي شكوكي حول الحملة: ألم يكن هناك ما يكفي من اللصوص وغيرهم من المجرمين ليعتقلوهم؟ إذ من المؤكد أنه لن يكون هناك عدد كبير من الرجال يمارسون الجنس في المراحيض في الوقت نفسه. ورغم صعوبة تصديق الأمر، لكن تم القاء القبض على مئة رجل تلك الليلة. وعندما كانت المهمة على وشك الانتهاء سألتُ أحد موظفي النظام العام بذهول: "هل هناك أشخاص مسؤولون عن حفظ النظام في مراحيض النساء أيضاً؟".

"كيف برأيك يمكننا أن نتحقق من مراحيض النساء؟ أنت تمزحين، أليس كذلك؟" أجاب وهو يهزّ رأسه متعجّباً من سذاجتي.

المتّصلة التي سألت عن المثلية على خط برنامجي الساخن كانت أول شخص يمنحني فهماً حقيقياً للمسألة.

بعد أسبوع تقريباً من اتصالها عدتُ إلى المنزل مليئةً بالحماسة جراء تقديم برنامجي. وحوالي الساعة الثانية فجراً، عندما بدأت أشعر بالنعاس أخيراً، فجأةً رنّ جرس الهاتف.

جاءني صوت امرأة يقول: "هل تتذكّرينني يا شينران؟ يجب أن تتذكريني: سألتك سؤالاً صعباً جداً على الهواء ذلك اليوم؟".

اجتاحني الغضب وتساءلتُ كيف حصلت المرأة على رقم هاتف منزلي. كان يجب أن يمنع الإدراك السليم أياً كان في الإذاعة من إعطائها رقمي الخاص، لكن فات الأوان الآن على عمل أي شيء حيال الأمر.

كان الغضب يتآكلني بصمت وهي تقول: "اسمعي، أعرف بمَ تفكرين. لا تلومي المنتجة المناوبة لأنها أعطتني رقمك. قلت لها إنني قريبتك من بكين وأن سُرقت حقيبتي وأنا أغادر القطار، وكان دفتر أرقام الهاتف موجوداً فيها، وأنني بحاجة إليك لتأتي وتقلّيني. ليس سيئاً، أليس كذلك؟".

رددتُ ببرود: "ليس سيئاً، ليس سيئاً. هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟ أتذكّرك، أنت من ماهانشان أليس كذلك؟".

"نعم، عرفتُ أنك لن تنسيني. هل أنت متعبة؟".

كنت مرهقة جداً. "قليلاً. ماذا تريدين؟".

يبدو أنها فهمت التلميح فقالت: "حسناً، أنت متعبة. لن أقول شيئاً الآن. سأتصل بك مجدداً غداً بعد انتهائك من برنامجك"، وأقفلت الخط.

في الليلة التالية، كنت قد نسيت تقريباً اتصالها، لكن بعد أن عدتُ إلى المنزل بحوالي أقل من ساعة رنّ جرس الهاتف.

"شيزان، أنا أتّصلُ في وقت أبكر اليوم، أليس كذلك؟ أرجوك لا تقلقي، لن أطيل الكلام. أردتُ فقط أن أعبّر لك عن امتناني لاعتذارك من الأشخاص المثليين بسبب الإجحاف الذي تعرّضوا له. حسناً، هذا كل شيء الآن، تصبحين على خير!".

وهذه المرة أيضاً أقفلت الخط قبل أن يتسنى لي قول أي شيء، فواسيتُ نفسي قائلةً: كانت نيتها حسنة ويبدو أنها شخص يراعي مشاعر الآخرين.

ثم صارت المرأة تتصل بي كل ليلة في نفس الوقت على مدى ثلاثة أسابيع، وقد أخبرتني عن رأيها ببرنامجي ذلك المساء واقترَحتْ كتباً وموسيقى يمكن أن تكون مفيدة للبرنامج، أو كانت تقدّم لي نصائح رزينة حول الحياة بشكل عام. كانت تتكلم لدقيقتين فقط كل مرة ولم تكن تعطيني قط فرصة لأتكلم. كما أنها لم تفصح عن اسمها.

في أحد الأيام، بينما كنت أغادر الإذاعة حوالي الساعة الواحدة فجراً، وجدتُ جاري في انتظاري عند البوابة. كان ذلك غريباً جداً. أخبرني أن المربّية طلبت منه أن يأتي لأنها كانت مذعورة. هناك امرأة غريبة ظلّت تتّصل بها باستمرار طوال الليل وتقول لها: "اتركي شيزان!".

شعرتُ بالانزعاج.

في الوقت نفسه تلك الليلة، كما في الأسابيع الثلاثة الأخيرة، رنّ جرس الهاتف، وقبل أن تتمكن المتّصلة من قول أي شيء قلت بسرعة: "هل أنت من اتصل قبل الآن؟".

قالت بهدوء تام: "نعم، تكلّمتُ مع المربيّة وقلت لها إن من الأفضل لها أن تتركك".

سألتها بغضب: "ولِمَ فعلتِ ذلك؟".

"لِمَ لا؟ لا يجب أن تحتفظ بك لنفسها فقط. يجب أن تكوني مُلكاً لنساء أكثر".

أجبتها: "اسمعي، أنا سعيدة أننا نتبادل الأفكار أو نتكلّم عن الحياة بشكل عام، لكن إن تدخّلتِ في حياتي فعندها لن أتكلم معك مجدداً. أنا لا أتدخّل في حياة الناس، ولا يتدخّل الناس في حياتي".

صمتت للحظة ثم قالت بصوتٍ متوسّل: "سأفعل ما تقولين، لكن لا يمكنك التخلّي عن حبّنا".

فكرة أن تكون هذه المرأة مغرمة بي أقلقتني جداً. لم أُجب على الهاتف لعدّة أيام وفكّرتُ بيني وبين نفسي أنها، مثل معجبي نجوم الموسيقى المهووسين، ستضع حداً لهيامها. لم يكن هناك داعٍ للقلق.

في عصر أحد الأيام طلبني رئيس الإذاعة إلى مكتبه وقال لي: "لقد حاولت مقدمة برامج من إذاعة مآنشان تدعى تاوهونغ الانتحار، وأرسل إلي والدها رسالة الانتحار التي كتبتها. تقول إنها تحبك بعمق، لكنك رفضت حبها".

لم أتمكن من التفوّه بأي كلمة. لا بد أن هذه المرأة التي تدعى تاوهونغ هي المتصلة الغامضة. لم أكن أعلم أنها هي أيضاً مقدّمة برامج إذاعية، وحتماً لم أظن أن تجاهلي لاتصالاتها سيؤدي إلى هذا.

اقترح رئيس الإذاعة أن أحتجب عن الأنظار قليلاً. يبدو أن أول ما تفوّهت به تاوهونغ بعد أن استعادت وعيها كان: "يجب أن أرى شينران!".

بعد أيام قليلة، بينما كنتُ في اجتماع مع قسم الإعداد، أتى مقدّم برامج ليخبرني أن هناك زائرة في انتظاري.

عندما رافقني إلى غرفة الاستقبال وجدتُ امرأةً شابة ترتدي ثياباً تشبه ثياب الرجال، شعرها قصير جداً، لذلك كان من المستحيل معرفة أنها سيدة من الخلف. وقبل أن يتمكن المقدّم الذي اصطحبني من تقديمي إليها أتت إلي وأمسكت بذراعي بيديها الاثنتين وهي تقول بتأثر: "لا تقولي شيئاً، دعيني أستوعب الأمر. عرفتُ على الفور أنك شينران!".

سأل المقدّم: "حبيبتك شينران؟".

"نعم إنها حبيبتي شينران! أنا تاوهونغ، حبيبتك تاوهونغ!".

تسلّل زميلي إلى خارج الغرفة. كان يعلم قصة تاوهونغ ولذلك أعتقد أنه ذهب ليحضر المساعدة.

كانتا عينا تاوهونغ مثبتتين علي بينما كانت تكمل حديثها:

"أنت حتى أجمل مما تخيلتك، ناعمة جداً وأنثوية جداً. التقيتك أخيراً! تعالي، تعالي، اجلسي. دعيني أنظر إليك جيداً. لقد مرّ أكثر من نصف عام... لم آتِ إلى هنا طوال ذلك الوقت. أردت أن أتعرّف إليك وأفهمك أكثر من خلال برنامجك، ومن خلال صورتك في قلبي.

ما تقولينه صحيح، النساء هنّ القوة الخلاّقة في الكون. فهنّ يمنحن العالم الجمال والإحساس والرقة. إنهنّ نقيّات وطاهرات. النساء هنّ أفضل المخلوقات..."

كان زميلي قد عاد مع ثلاثة أو أربعة مقدّمين آخرين، وجلسوا جميعهم على مقربة منّا يتحدّثون وهم يراقبونني.

"انظري ماذا أحضرتُ لك. هذه الكتب مليئة برسوم لنساء. انظري كم هي جميلة أجسادهنّ. انظري إلى هذه الصورة، ذلك التعبير، هل ترين كم هو مُغرٍ ذلك الفم. أحضرتها خصّيصاً لك؛ يمكنك الاحتفاظ بها وتأملها في وقتك الخاص. أحضرتُ لك هذا أيضاً... ليمنحك اللذة الجنسية، وهذا أيضاً. عندما أدلّك جسدك به ستشعرين أنك تقتربين من الجنّة!".

كان زملائي يختلسون النظر إلى الأشياء التي كانت تاوهونغ تضعها أمامي. شعرتُ بإحراجٍ كبير. لطالما اعتقدتُ أن ممارسة الجنس دون أي عاطفة هو شيء حيواني؛ لم أكن أعلم حتى بوجود آلات تثير الأحاسيس الجنسية بهذه الطريقة الميكانيكية.

كانت تاوهونغ لا تزال تسترسل في الكلام: "بمساعدة الأدوات العصرية يمكننا إنجاز أمور كان أجدادنا يتمنّونها لكنهم لم يتمكنوا من الحصول عليها. على عكسهم، يمكننا أن نتمادى بمشاعرنا إلى أبعد الحدود..."

حاولتُ أن أصرف انتباهها فأشرتُ إلى كومة أوراق كانت تحملها، وكانت تبدو كنوع من مواد دعائية.

"ما هذا يا تاوهونغ؟ لم تقولي شيئاً عن هذا".

"آه، كنت أعلم أنك ستسألين عن هذه. هذه هي المبادئ التوجيهية للرابطة الصينية للمثليين. هل سمعت بها؟ خططّنا لعقد مؤتمر منذ عام ونصف. الفنادق، جدول الأعمال، وغيره، كل شيء كان جاهزاً، لكن الحكومة أغارت عليه. لم نهتم للأمر كثيراً، فقد كنا قد حققنا تقريباً كل ما أردنا تحقيقه: خلال عدة عشاوات سبقت المؤتمر، حددنا مبادءنا، وجدنا حلولاً وناقشنا حاجاتنا الجسدية، وكيف يمكن الاستفادة من الجنس..."

تذكّرتُ المؤتمر الذي كانت تاوهونغ تتكلم عنه. كدتُ أذهب إلى بكين لأغطّيه، وقبل ذهابي بيوم اتصل بي شخص من مكتب الأمن العام في نانجينغ ليخبرني أنهم سيرسلون عناصر لمساندة شرطة بكين في وضع حدّ للمؤتمر. كانوا سيفتشون ويغلقون فندقاً ضخماً ويلقون القبض على عدة أعضاء رئيسيين في الرابطة. اتصلتُ فوراً ببعض علماء النفس والأطباء الذين كنت أعلم أنهم تمّت دعوتهم إلى المؤتمر لأحذرّهم من الذهاب. فقد كنت أخشى أن تنتهي الأمور بإراقة الدماء.

لحسن الحظ، كما أخبرتني تاوهونغ الآن، لم يؤدّي فضّ المؤتمر إلى العنف. فمن أجل تفادي تحوّل الأمر إلى حالة خطيرة سرّبت الشرطة معلومات حول العملية، لذلك ألغت الرابطة المؤتمر. حقق الطرفان القسم الأكبر من أهدافهما: سيطرت الحكومة على الوضع، وتمكنت الرابطة من اللقاء خلال تنظيمها المؤتمر. بات الصينيون أكثر حنكةً في مناوراتهم السياسية.

اجتاحتني موجة من الغثيان عندما قرأتُ عنواناً ملفتاً في إحدى المناشير التي كانت تاوهونغ متشبّثة بها: "أساليب الجنس الفموي، القسم الرابع: استعمال الفكّ الأعلى". وجدتُ صعوبةً في تقبّل مناقشات صريحة كهذه عن الجنس. لاحظت تاوهونغ الاشمئزاز على وجهي فقالت بصوتٍ صبور: "لا تشعري أن عليك أن تنظري الآن. جرّبي ذلك لاحقاً وستكتشفين متعة الجنس".

أطلق زملائي ضحكات مكبوتة.

"لنتمشَّ قليلاً"، قلت في محاولة يائسة للهروب من ضحكات زملائي المزعجة.

"حقاً؟ بالطبع، كان يجب أن نذهب في نزهة في الشوارع قبل الآن. سنكون ثنائياً جميلاً".

غادرنا الإذاعة وسألت تاوهونغ عن مكان توجّهنا. طلبت منها عدم السؤال وأنها ستعلم عندما نصلُ. أصبحت متحمّسة أكثر وقالت إن ذلك هو نوع المغامرات التي تحبها بالتحديد، أن تكون مليئة بالغموض؛ وأغرمت بي أكثر بسبب ذلك.

أخذتها إلى معبد "صياح الديك" Cock Crow، وهو معبد قديم في نانجينغ كانت أجراسه تُسمع من مسافة بعيدة. عندما كنت أشعر بالضطراب والإحباط كنت آتي أحياناً لأجلس في "باغودا (برج ذو طوابق عديدة) بوذا الشافي"، فقد كان الاستماع إلى الأجراس بينما أحدّق في السماء الزرقاء والغيوم البيضاء يبدّد همومي ويمنحني العزم والثقة والفرح، واعتقدتُ أن تاوهونغ أيضاً ستتأثر بأصوات الأجراس. توقفت تاوهونغ عند بوبة المعبد وسألتني بقلق: "هل سيطهّرني إذا دخلت؟ هل سيمحو بعضاً من صفاتي؟".

قلتُ: "إن أي شيء يمكن محوه لا معنى له. وأعتقد أن عاطفة الإنسان وجوره لا يمكن للتطهير أن يمحوهما".

وما إن عبرت تاوهونغ بوابة المعبد حتى أخذت الأجراس تقرع. تأملت ملياً وقالت: "لقد تأثر قلبي للحظة، لماذا؟".

لم أعرف كيف أردّ على سؤالها.

وقفنا في باغودا بوذا الشافي صامتتين لفترة طويلة، وعندما قرعت الأجراس مجدداً سألتُ تاوهونغ سؤالين: متى بدأت تحب النساء؟ ومن كانت عشيقتها الأولى؟

تدفّقت قصة تاوهونغ:

كان والد تاوهونغ يشعر بالعار الشديد لعدم إنجابه صبياً. فبعد ولادتها أصيبت أمها بسرطان الرحم ولم يعد باستطاعتها إنجاب المزيد من الأولاد؛ وقد ماتت فيما بعد من السرطان. تألم والدها جداً لأن نسل عائلته قد انقطع، لكن لم

يكن باستطاعته عمل شيء، لذلك اعتبر تاوهونغ مثل ابن وربّاها كصبي من كل الجوانب، ابتداءً من ثيابها وتسريحة شعرها إلى الألعاب التي كانت تلعبها. لم تدخل تاوهونغ المراحيض العامة قط لأنها لم تتمكن أبداً أن تقرر أيهما يجب أن تستعمل حمامات النساء أم حمامات الرجال. كانت فخورة بسلوكها الذكوري لكنها لم تكن تشعر بأي عشق تجاه النساء في ذلك الوقت.

لكن حين بلغت تاوهونغ سن الرابعة عشرة غيّرت أحداث إحدى الليالي الصيفية نظرتها إلى الرجال والنساء كما غيّرتها هي أيضاً بالكامل. كان الصيف الذي سبق دخولها المدرسة الثانوية. قيل لها إن المدرسة الثانوية هي أسوأ فترة: ستحدّد مسار حياتها، الإنجاز الذي تحققه هناك سيؤدي إلى نجاح مستقبلي. كانت مصممة أن تستمتع بالصيف إلى أقصى الحدود قبل أن تبدأ المدرسة الثانوية ويبدأ العمل الشاق لمدة ثلاث سنوات، فكانت تمضي الكثير من الأمسيات خارج المنزل مع أصدقائها.

في تلك الليلة بالذات كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً عندما انطلقت عائدةً إلى المنزل. لم يكن الطريق طويلاً أو نائياً، وعلى بعد بضع خطوات فقط من المنزل وثبت عصابة من أربعة رجال من الظلام وأمسكو بها، فكمّموها وعصبوا عينيها ثم أخذوها إلى ما يشبه غرفة للمعدّات في موقع بناء. نزعوا العصبة عن عينيها لكنهم أبقوها مكمّمة. كان هناك ثلاثة رجال آخرون في الغرفة مما جعل عدد العصابة سبعة رجال. أخبروا تاوهونغ أنهم أرادوا أن يعرفوا ما هي في الحقيقة، رجل أم امرأة، وبدأوا بنزع ثيابها. وصُعقوا مؤقتاً عند رؤية جسدها الأنثوي الفتي، لكن بعدها احمرّت وجوههم وانقضّ السبعة عليها. فقدت تاوهونغ وعيها.

وعندما استفاقت وجدت نفسها ممدّدة على منضدة الورشة عارية وملطّخة بالدم. كان الرجال مستلقين على الأرض يشخرون؛ وكانت سراويل بعضهم لا تزال مُسدَلَة حول كواحلهم. جلست تاوهونغ في ذعر لبعض الوقت قبل أن تتمكن أخيراً من النزول بارتباك عن المنضدة. جمعت ببطء ثيابها عن الأرض وهي ترتجف

وتترنح. داست على يد أحد الرجال وهي تتنقل فأيقظت صرخة الألم التي أطلقها الرجال الآخرين الذين راحوا يراقبون تاوهونغ وقد شلّهم الذنب وهي تلتقط ثيابها وترتديها قطعةً قطعة.

لم تنطق تاوهونغ بكلمة واحدة خلال الثلاثين دقيقة التي استغرقتها لارتداء ثيابها بصعوبة.

منذ ذلك الحين كرهت كل الرجال حتى والدها. بالنسبة إليها، كانوا كلهم قذرين، شهوانيين، همجيين ومتوحّشين. وفي تلك الفترة كانت دورتها الشهرية قد حصلت مرتين فقط.

استمرّت في ارتداء ثياب مثل ثياب الصبية، دون أن تستطيع تفسير السبب، ولم تخبر أحداً أبداً بما حصل. الاغتصاب الجماعي الذي تعرّضت له تاوهونغ جعلها تُدرك تماماً أنها امرأة، وبدأت تتساءل كيف تبدو النساء. لم تعتقد أنها تملك جمالاً أنثوياً، لكنها أرادت أن تراه.

محاولتها الأولى لفعل ذلك كان مع أجمل فتاة في صف السنة الثانوية الأولى. أخبرت زميلتها أنها خائفة من البقاء وحدها في البيت لأن والدها كان مسافراً في رحلة عمل، وسألتها إن كانت تستطيع أن تبيت عندها.

وقبل أن تناما أخبرت تاوهونغ زميلتها أنها تنام عارية. انزعجت الفتاة قليلاً من فعل نفس الشيء، لكن تاوهونغ أخبرتها أنها ستدلّك لها جسمها، لذلك وافقت على خلع ثيابها. ذُهلت تاوهونغ من نعومة ومرونة جسد الفتاة، بخاصة ثدييها ووركيها. أقل احتكاك بها جعل الدم يتدفّق بسرعة إلى رأس تاوهونغ واجتاحتها إثارة عارمة. وبينما كانت تاوهونغ تدلّك جسد الفتاة التي كادت تتقطع أنفاسها، دخل والد تاوهونغ الغرفة.

بهدوء غير متوقّع سحبت تاوهونغ الغطاء وغطّت جسديهما العاريين وسألته: "لماذا عدت، ألم تقل إنك ذاهب في رحلة عمل؟". خرج والدها مصعوقاً دون أن ينبس بكلمة.

لاحقاً، عندما أجريت مقابلة مع والد تاوهونغ على الهاتف، أخبرني أنه، منذ ذلك اليوم، عرف أن تاوهونغ قد كبرت وأنها أصبحت كذلك تنتمي إلى مجموعة خاصة. لم يستطع أن يسأل تاوهونغ عن سبب كونها مثليّة، لكنه غالباً ما كان يسأل أمها المتوفّاة عن ذلك عندما كان ينظّف قبرها خلال مهرجان السطوع النقي كل سنة.

منذ ذلك الحين بدأت تاوهونغ تحضر فتيات إلى المنزل من أجل التدليك. كانت تعتقد أن النساء مخلوقات رائعات، لكنها لم تكن تكنّ لهنّ أي مشاعر.

وقعت في الحب أول مرة خلال التحضير للمؤتمر الذي أخبرتني عنه. فقد خُصصت لها غرفة في الفندق مع امرأة تكبرها بأربعة عشر عاماً، وكانت امرأةً لطيفة وهادئة وودودة جداً. سألت تاوهونغ عن سبب حضورها المؤتمر وعلمت أنها تحب النساء، فأخبرتها أن ممارسة الجنس هي من أجمل الحالات الذهنية وأهمها، وأن الممارسة الجنسية بين النساء هي أثمن حب على الإطلاق. وحين ألغي المؤتمر أخذت تاوهونغ معها إلى فندق مختلف لحضور دورة "تدريب جنسي".

اختبرت تاوهونغ إثارة ومتعة جنسية لم تختبرهما من قبل. كما أن هذه المرأة أعطت تاوهونغ إرشادات حول الصحة الجنسية وكيفية استعمال الأدوات الجنسية، وأخبرتها الكثير عن تاريخ المثليين في الصين وفي خارجها.

قالت تاوهونغ إنها وقعت في حب هذه المرأة لأنها كانت أول شخص يشاركها الأفكار والمعرفة لحمايتها ومنحها المتعة الجسدية. لكن المرأة أخبرت تاوهونغ أنها لم تقع في حبها وأنها لا تستطيع ذلك؛ إذ لا يمكنها أن تنسى أو تستبدل عشيقتها السابقة، وهي أستاذة جامعية ماتت قبل بضع سنوات في حادث سيارة. تأثرت تاوهونغ كثيراً وقالت إنها كانت تعلم أن الحب أكثر طهارةً من الجنس منذ كانت طفلة.

بعد أن أجابت تاوهونغ عن سؤالَيّ غادرنا معبد "صياح الديك". أخبرتني تاوهونغ في الطريق أنها كانت تبحث عن امرأة تستطيع أن تتشارك وإياها نفس

نوع العلاقة التي كانت تجمعها بعشيقتها الأولى. لقد قرأت كثيراً واجتازت الامتحان لتصبح مقدمة برامج في إذاعة مآنشان منذ ثمانية أشهر. كانت تقدم برنامج خط ساخن عن الأفلام والتلفزيون. أخبرتني أن أحد مستمعيها راسلها مقترحاً أن تستمع إلى برنامج "كلمات على نسيم الليل"، وأنها استمعت إليه كل ليلة لمدة ستة أشهر، وأنها علّقت آمالها علي كشخص يمكنها أن تكون عشيقتها الجديدة.

قلت لتاهونغ قولاً غالباً ما أردّده على الهواء: "إن لم يكن باستطاعتك جعل إنسان سعيداً فلا تعطهم أملاً بذلك". وقلت لها بصراحة: "أشكرك يا تاوهونغ. أنا سعيدة جداً بالتعرف عليك، لكني لا أنتمي إليك ولا يمكنني أن أكون عشيقتك. صدّقيني، إحداهنّ في انتظارك. تابعي القراءة وتوسيع آفاقك وستجدينها. لا تجعليها تنتظرك".

كانت تاوهونغ صامتة، ثم سألت بهدوء: "حسناً، هل يمكنني اعتبارك عشيقتي الثانية السابقة؟".

قلتُ: "كلا، لا يمكنك، لأنه لم يكن هناك أي حب بيننا. يجب أن يكون الحب متبادلاً؛ الحب من طرف واحد ليس كافياً".

"كيف يجب أن أفكر بك إذن؟"، كانت تاوهونغ قد بدأت تفهم وجهة نظري.

قلتُ: "فكري بي كأخت كبرى. روابط القربى هي أقوى الروابط".

قالت تاوهونغ إنها ستفكر بالأمر، وبعدها افترقنا.

بعد بضعة أيام، عندما تلقّيت اتصالاً أرادت صاحبته أن تبقى مجهولة عرفت فوراً أنها تاوهونغ. قالت: "أختي شينران، أتمنى لو كان الجميع يتمتّعون بالصدق والطيبة والمعرفة التي تتمتعين بها. هل تقبلينني أختاً صغرى لك؟".

٨

المرأة التي دبّرت الثورة زواجها

في الصين يتداولون القول المأثور التالي: "يصيب الرمح العصفور الذي يُبرز رأسه". لم يكن مضى على عملي كمقدمة برامج فترةً طويلة قبل أن تجعلني أعداد الرسائل التي تلقيتها من مستمعي وكذلك الترقيات والجوائز أتعرّض لملاحظات وتعليقات لاذعة من زملائي. يقول الصينيون: "إن كنت تقف باستقامة فلمَ تخشى ظلّك الأعوج؟"، لذلك قررتُ أن أبقى مبتهجة وأن لا أتأثر بأي نوع من الحسد. في النهاية، كانت أصوات النساء الصينيات أنفسهنّ هي التي قرّبت زملائي مني.

أحضرت لي الإذاعة آلات ترد على الهاتف بطريقة آلية تحتوي كل واحدة منها على أشرطة تدوم لأربع ساعات. كل مساء بعد الثامنة، كانت هذه الآلات تصبح متاحة للنساء اللواتي يردن إبداء آرائهن بالبرنامج، أو طلب المساعدة، أو رواية قصصهن. كانت التحية التي سجّلتها على هذه الآلات تدعوهنّ إلى التخلّص من أوزارهنّ كي يتمكنّ من التوجه نحو مستقبلهنّ بحملٍ أخفّ، وأكدت لهنّ أنهن لا يتوجّب عليهن الإفصاح عن هوياتهنّ أو مكانهنّ. كل صباح، كنت عندما أصل إلى مكتبي أجد عدداً أكبر من زملائي - المنتجين والمراسلين والمقدّمين - ينتظرون سماع القصص التي كانت تتدفّق من آلات التسجيل تخبرها أصوات يبدو فيها الإحراج والقلق والخوف.

سمعنا في أحد الأيام:

"ألو، هل هناك من يسمعني؟ هل تسمعينني يا شيئران؟ آه، جيد. إنه فقط الشريط".

توقفت المرأة عن الكلام بضع ثوان.

"شيئران، مساء الخير. أخشى أنني لست من مستمعيك المواظبين؛ لستُ من مقاطعتك وقد بدأت الاستماع إلى برنامجك مؤخراً. منذ بضعة أيام كان زملائي يتكلمون عنك وعن برنامجك، وقالوا إنك ركّبتِ هواتف خاصة حيث تستطيع المستمعات ترك رسائلهن، وحيث تستطيع كل امرأة أن تروي قصتها بصورة مجهولة. قالوا إنك تبثّين تلك القصص في اليوم التالي لكي يناقشها المستمعون على الخط الساخن، آملةً بمساعدة النساء في فهم بعضهنّ البعض، ومساعدة الرجال في فهم النساء، وجعل العائلات تتقرّب من بعضها.

خلال الأيام القليلة الماضية كنت أستمع إلى برنامجك يومياً. الإرسال ليس جيداً في المنطقة لكنني أحب البرنامج كثيراً. لم أعتقد أنه يوجد هذا الكمّ الهائل من قصص النساء التي تتشابه وهي في نفس الوقت مختلفة. أنا متأكدة أنه لا يُسمَح لك ببثّها كلها على الهواء. مع ذلك، أعتقد أن الكثيرات من النساء سيكنّ ممتنّات لك. خطوط هاتفك تمنح النساء فرصة للتكلم عن أشياء لم يتجرّأن على التكلم عنها منذ كنّ يافعات. يجب أن تعلمي كم هو مهم ومريح للنساء أن تكون لديهنّ فسحة يعبّرن فيها عن أنفسهنّ دون خوف من الملامة أو ردود الفعل السلبية. إنها حاجة نفسية وعاطفية، ليست أقل أهميةً من حاجاتنا الجسدية".

توقفت مرة ثانية لفترة طويلة.

"شيئران، يبدو أنني لا أملك الشجاعة لأخبرك قصتي. أريد بشدّة أن أخبر الناس عن العائلة التي أعيش فيها، وأريد أيضاً أن أسمع بنفسي قصتي لأنني لم أجرؤ على تذكر الماضي من قبل أبداً خوفاً من أن تتسبب ذكرياتي بدمار إيماني بالحياة. قرأتُ مرة أن الوقت يشفي كل شيء، لكن أكثر من أربعين سنة لم تمحُ الحقد والندم؛ لقد خدّرتني فقط".

تنهّدت بضعف.

"في نظر الآخرين أنا امرأة تملك كل ما تتمنّاه أي امرأة. فزوجي يشغل منصباً مهماً في الحكومة الإقليمية؛ وابني، الذي يبلغ الأربعين تقريباً، مدير فرع من فروع البنك الوطني في المدينة؛ ابنتي تعمل في شركة التأمين الوطنية وأنا أعمل في مكتب الإدارة المحلية بالمدينة. أعيش بهدوء وسلام؛ ولا أقلق بشأن المال أو مستقبل أولادي مثل معظم الناس، كما لا أقلق بشأن طردي من العمل.

في المنزل، نملك أكثر مما نحتاجه من كل شيء. يملك ابني شقة سكنية خاصة به، وابنتي، التي تقول إنها بقيت عزباء بسبب مبادئها، تعيش معنا. نعيش ثلاثتنا في شقة كبيرة تبلغ مساحتها ٢٠٠ متر مربّع تقريباً، وتحتوي على أثاث من ماركات مصممين مهمين وأحدث الأدوات المنزلية الكهربائية - حتى كرسي الحمام مستورد. في معظم الأيام يأتي شخص ليقوم بالتنظيف وإحضار أزهار جديدة. لكن منزلي عبارة عن معرض للأدوات المنزلية: ليس هناك تواصل حقيقي في العائلة، لا ابتسامات ولا ضحك. عندما نكون لوحدنا، كل ما يمكن سماعه هو أصوات الوجود الحيواني: أكل، شرب، واستعمال الحمام. فقط عندما نستقبل زواراً يكون هناك نَفَسُ إنساني. في هذه العائلة، لا أملك حقوق الزوجة ولا مركز الأم. يقول زوجي إنني مثل قطعة قماش رمادية باهتة، ليست جيدة كفاية لصنع سروال أو غطاء للسرير أو حتى فوطة لتجفيف الصحون. كل ما أصلح له هو مسح الوحل عن الأرجل. بالنسبة إليه، وظيفتي الوحيدة هي أن أشكّل دليلاً حيّاً على "بساطته واجتهاده واستقامته" حتى يتمكن من تبوء المناصب العليا. كانت هذه كلماته لي بالتحديد يا شينران، وقد قالها لي في وجهي".

انفجرت المرأة بالبكاء.

"قال لي ذلك بلامبالاة وفتور قاتلين! فكّرت في تركه مرات لا تحصى. أردتُ أن أعيد اكتشاف حبي للموسيقى والإيقاع، لأحقق توقي لعائلة حقيقية، لأكون كما كنت حرة في الماضي - لأكتشف من جديد معنى أن أكون امرأة. لكن زوجي قال

إنه، إن أنا تركته، سيجعل الحياة صعبة بالنسبة إلي لدرجة أن أتمنى الموت. لن يدعني أعرّض مستقبله المهني للخطر أو أن أجعله منه موضوعاً للثرثرة. علمتُ أنه سينفّذ تهديده: فعبر السنين، لم يتمكن أيٌّ من أعدائه السياسيين الهرب من انتقامه. جميع النساء اللواتي رفضن إغراءاته وتودده عَلِقْنَ في أسوأ الوظائف غير قادرات على ترك العمل أو الانتقال لفترة طويلة جداً. حتى إنه قام بتدمير البعض من أزواجهنّ. لا يمكنني الهروب.

ربما تتساءلين عن سبب اقتناعي وقولي بأني لا أملك مكانة الأم. لقد انتُزع أبنائي مني لحظة ولادتهم وأرسلوا إلى حضانة الجيش. رأى الحزب أنهم ربما سيؤثرون على عمل 'القائد' - والدهم؛ كان الأمر نفسه يحصل لمعظم أولاد الجنود في ذلك الحين. وبينما كانت العائلات الأخرى تستطيع رؤية أولادها مرة في الأسبوع، كنا نحن غالباً خارج البلاد، لذلك كنا نرى الأولاد مرة أو مرتين في السنة. وغالباً ما كانت تقطع الاتصالات الهاتفية أو قدوم الزوار لقاءاتنا القليلة، لذلك كان الأولاد يستاؤون جداً. حتى أنهما كانا يعودان إلى الحضانة قبل انتهاء الوقت المحدّد لنا معهما. والد ووالدة كانتا مجرد كلمتين بالنسبة لهما. كانا متعلّقين أكثر بالممرضات اللواتي اعتنين بهما لوقت طويل.

عندما كبرا قليلاً منحهما مركز والدهما حقوقاً خاصة لم يكن الأولاد الآخرين يتمتعون بها. ومن شأن ذلك أن يؤثر سلباً على الأولاد خلال نشأتهم، إذ يعطيهم شعوراً دائماً بالتفوق والاستعلاء وعادة احتقار الآخرين. وقد اعتبراني أنا أيضاً شيئاً جديراً بالاحتقار، لأنهما تعلّما من والدهما كيفية التعامل مع الناس وإنجاز الأمور، ورأيا طريقة تصرفه كوسيلة لتحقيق طموحاتهما. حاولت تعليمهما أن يكونا طيبين مستخدمةً أفكاري وخبراتي، آملةً أن يغيرهما الحب والاهتمام الأمومي، لكنهما كانا يقيسان قيمة الإنسان حسب منزلته في هذا العالم، وأثبت نجاح والدهما أنه جدير بالتشبّه به. إن كان زوجي نفسه لا يرى أني أستحق الاحترام أو الحب، فأي فرصة لي بذلك مع أولادي؟ لم يصدّقا أنني كنت يوماً ذات قيمة أو منفعة على الإطلاق".

تنهّدت بعجز واستسلام.

"منذ أربعين سنة كنتُ فتاة بريئة وورومانسية تخرّجتْ للتو من مدرسة البلدة الصغيرة الثانوية للبنات. كنت محظوظة أكثر من فتيات جيلي الأخريات؛ فقد أنهى والديّ دراستهما في الخارج وكانا منفتحين. لم أقلق أبداً بشأن الزواج مثل زميلاتي اللواتي كان زواج معظمهنّ قد دُبّر منذ كنّ في المهد؛ الباقيات تمت خطبتهنّ عندما كنّ في الصفوف الإعدادية. في حال كان الرجل متلهّفاً أو أن تقاليد العائلة تُجبر على ذلك، كانت الفتيات تُجبر على ترك المدرسة الإعدادية ليتزوّجن. كنا نعتقد أن أقل الفتيات حظاً كن اللواتي يصبحن زوجات شابات لرجال أكبر منهن بالسن كثيراً، أو خليلات. معظم الفتيات اللواتي تركنَ المدرسة ليتزوّجنَ كنّ في ذلك الوضع، متزوّجات برجال أرادوا "تجربة شيء منعش". الكثير من الرجال اليوم يُظهرون الخليلات على أنهن قرّة عين الرجل؛ وهن يستعملن كانتهن ليتصرّفن بسلطة في العائلة، لكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. أن يستطيع رجل اتخاذ عدة زوجات يعني أن هذا الرجل ينحدر من عائلة كبيرة ومهمة لديها الكثير من القوانين والتقاليد. كان لدى تلك العائلات، مثلاً، عشر طرق لتحية الناس وتقديم الاحترام. بل إن أي انحراف بسيط جداً عن تلك الأنظمة يسبب فقدان احترام العائلة.

لم يكن الاعتذار كافياً، وكانت الزوجات الشابات يتعرّضن للعقاب لأبسط المخالفات، فتقوم الزوجات الأكبر سناً بضربهنّ، ويُمنعن عن الأكل والشرب لمدة يومين، ويُجبرن على القيام بأعمال شاقة أو الركوع على لوح الغسيل. هل يمكنكِ أن تتخيّلي كيف كانت زميلاتي اللواتي تعلّمن في مدرسة غربية وعصرية يتحمّلن كل ذلك! لم يكن باستطاعتهن فعل أي شيء حيال الأمر؛ كنّ يعلمن منذ الصغر أن الكلمة الأخيرة في اختيار أزواجهن هي لأهلهن.

حسدتني فتيات كثيرات لتمكّني من مغادرة المنزل والذهاب إلى المدرسة. في ذلك الوقت كانت النساء يرضخن "للامتثالات الثلاثة والفضائل الأربع": الامتثال للوالد، ثم الزوج، وبعد موته الابن؛ فضائل الإخلاص، الجاذبية الجسدية، الحشمة

في الكلام والتصرف، الاجتهاد في الأعمال المنزلية. لآلاف السنين علّموا النساء احترام المسنّين، طاعة أزواجهنّ، الطبخ، والتطريز، كل ذلك دون مغادرة المنزل أبداً. أن تتعلّم المرأة، وأن تقرأ وتكتب وتناقش أعمال الدولة كالرجال، وحتى أن ترشد الرجال، كان هرطقة بالنسبة لمعظم الصينين في ذلك الوقت. كنا أنا وزميلاتي نُدرك أننا كنا محظوظات وأننا نتمتع بالحرية، لكننا كنا أيضاً في ضياع، فلم يكن لدينا مثال أعلى نحتذي به.

ورغم أننا كنا جميعاً نأتي من عائلات متحرّرة تدرك أهمية التعليم، إلا أن المجتمع من حولنا وجمود التقاليد جعل صعباً على أي واحدة منّا تحديد مسار مستقلّ لها في الحياة.

كنتُ ممتنةً جداً لوالدَيّ اللذين لم يرهقاني أبداً بأي مطالب، ولم يجبراني على التقيد بالقواعد الصينية التقليدية المختصة بالنساء. فما لم يسمحا لي بالذهاب إلى المدرسة فحسب - رغم أنها كانت مدرسة للبنات - بل كانا يسمحان لي بتناول الطعام معهما على طاولة أصدقائهما ومناقشة السياسة والقضايا الراهنة، وكان بإمكاني حضور أي اجتماع واختيار أي نوع أريده من الرياضة أو النشاطات. وقد حذّرني رجل طيب غريب وصل البلدة من أساليبي العصرية، لكنني كنت سعيدة جداً خلال طفولتي كلها وخلال سنوات دراستي في المدرسة، والأهم من ذلك أنني كنت حرّة". تمتمت بهدوء لنفسها: "حرّة..."

"كنت أنتبه بشغف إلى كل ما يحيط بي، ولم يكبح أي شيء خياراتي. كنتُ أتوق إلى القيام بإنجاز ضخم على مستوى باهر؛ أردتُ أن أبهر العالم بعمل بطولي وحلمت أنني الجميلة التي يرافقها بطل. عندما قرأت كتاباً عن الثورة بعنوان النجمة الحمراء، وقعتُ على عالمٍ لم أعرف عنه من قبل إلا من خلال كتب التاريخ. هل كان ذلك هو المستقبل الذي أتوق إليه؟ سيطرت علي الحماسة وقررتُ الانضمام إلى الثورة. من الغريب أن موقف والدي كان مختلفاً تماماً عن مواقفهما المتحررة التي اعتدتها. فقد منعاني من الذهاب وقالا لي إن قراري كان غير عقلاني

ولا يرتكز على الواقع. وقالا إن الأفكار غير الناضجة مصيرها المرارة والألم. تلقيت كلامهما على أنه انتقاد شخصي وقمتُ بردّ فعل سيئ جداً. فقد قررت، يحثني عناد الشباب، أن أثبت لهما أنني لست فتاةً عادية.

خلال الأربعين سنة التالية كانت كلماتهما تطنّ في أذنيّ. فهمتُ أن والدَيّ لم يكونا يتكلمان عني فقط، وإنما كانا يشيران إلى مستقبل الصين.

في إحدى ليالي منتصف الصيف، حزمت مجموعتين من الثياب وبعض الكتب وتركت عائلتي السعيدة الهادئة والمسالمة، تماماً مثل بطلة في رواية. ما زلت أتذكر إلى اليوم أفكاري وأنا خارجة من البوابة: أبي، أمي، أنا آسفة. أنا مصممة أن يكتبوا عني في الكتب وأن أجعلكما فخورين.

فيما بعد رأى والدَيّ بالفعل اسمي في عدة كتب وتقارير، لكن كزوجة ليس أكثر. لا أعرف السبب، لكن أمي كانت تسألني دائماً: هل أنت سعيدة؟ حتى اليوم الذي توفيت فيه لم أُجب مباشرةً على هذا السؤال. لم أعرف كيف أجيب، لكنني أعتقد أن أمي كانت تعرف الجواب".

بقيتْ صامتة لبضع ثوانٍ ثم أكملت بنبرة مرتبكة.

"هل كنتُ سعيدة؟"، تمتمت قائلةً لنفسها، "ما هي السعادة ... هل أنا سعيدة؟".

"كنتُ سعيدة جداً عند وصولي إلى المنطقة التي حررّها الحزب. كان كل شيء جديداً وغريباً: في الحقول، كان من الصعب التمييز بين الجنود والفلاحين؛ وخلال العرض العسكري كان الحارس المدني يقف جنباً إلى جنب الجنود. كان الرجال والنساء يرتدون نفس الثياب ويقومون بنفس الأشياء؛ لم يتميز القادة برموز تدل على رتبهم، وكان الجميع يتكلم عن مستقبل الصين. يومياً كان هناك انتقاد وإدانة للنظام القديم. كانت تقارير عن الجرحى والمتوفين في القتال تملأ المكان. في هذا الجو، كانت النساء الطالبات تُعاملن كأميرات بسبب خفّة الروح والجمال اللذين

أضفنهما على المكان. كان الرجال الذين يصولون ويجولون في أرض المعركة، وهم يزأرون ويحاربون بشراسة، يتحولون إلى حملان وديعة إلى جانبنا في الصفوف.

بقيت ثلاثة أشهر فقط في المنطقة المحرّرة. بعد ذلك تمّ تعييني مع فريق يعمل على استصلاح أرض عند الضفة الشمالية للنهر الأصفر. حملت وحدة عملي، وهي فرقة عسكرية مثقّفة تعمل تحت إمرة مركز القيادة، سياسات الحزب الشيوعي إلى الناس عبر الموسيقى والرقص وكل أنواع النشاطات الثقافية الأخرى. كانت منطقة فقيرة؛ وباستثناء البوق الذي كان يُعزف في الأعراس والجنازات، لم يعرفوا أبداً أي نوع من الحياة الثقافية، لذلك فقد استقبلونا بالترحاب.

كنت واحدة من الفتيات القلائل في فرقتي التي تستطيع الغناء والرقص والتمثيل والعزف؛ برعتُ خاصةً في الرقص. وكل مرة كنا نجتمع فيها مع الضباط الكبار كانوا دائماً يتنافسون للرقص معي. كنت ودودة ومستقلة أبتسم وأضحك دائماً، فأطلق الجميع علي لقب 'القُبّرة'. كنتُ في ذلك الحين عصفوراً صغيراً سعيداً لا همّ له في العالم.

تعرفين القول المأثور القائل: "الدجاجة في القنّ لديها الحَبّ، لكن قِدْر الحساء قريبة، فلا يملك طائر الغرنوق البري إلا العالم الواسع". قبّرة محبوسة تتشارك نفس المصير مع الدجاجة. ليلة بلوغي الثامنة عشر أقامت لي الفرقة حفلة عيد ميلاد، وفي ذلك الحين لم يكن هناك أي قوالب حلوى أو شمبانيا، وكل ما أكلناه كان بعض البسكويت الذي احتفظ به رفاقي من حصصهم، مع القليل من السكر المذاب في الماء. كانت الظروف صعبة، لكننا استمتعنا بوقتنا. كنت أرقص وأغني عندما أشار إلي قائد الفرقة العسكرية أن أتوقف وأتبعه، فتبعته على مضض إلى المكتب حيث سألني بكل جدّية: "هل أنت مستعدّة لتقومي بأي مهمة تكلّفك بها مؤسسة الحزب؟".

أجبت بدون تردد: "بالطبع!" لقد أردتُ أن أنضم إلى الحزب بكل قوتي لكن

بسبب خلفية عائلتي اللاثورية علمت أنني كان علي أن أعمل بجهد أكبر من الآخرين لكي أتأهل لذلك.

"هل أنت مستعدة لإنجاز أي مهمة بصورة غير مشروطة، مهما كان نوعها؟".

أُصبتُ بالحيرة. إذ لطالما كان قائد الفرقة صريحاً، فلماذا كان مبهماً ومتقلّباً اليوم، لكنني أجبت بسرعة: "نعم، أقسم أني سأنفّذ المهمة!".

لم يبدُ سعيداً قط بعزمي لكنه أخبرني أن أنطلق حالاً إلى 'مهمتي المستعجلة' في الليل إلى مجمّع الحكومة الإقليمي. أردتُ أن أودّع أصدقائي لكنه قال أن لا داعي لذلك. ولأننا كنا في زمن حرب فقد قبلت بذلك وغادرتُ مع الجنديين اللذين أُرسلا خصيصاً لأخذي. لم يتكلما طوال الرحلة التي استغرقت ساعتين، ولم يكن باستطاعتي أن أسأل أي أسئلة أيضاً، ذلك كان القانون.

في مجمّع الحكومة الإقليمي قدّموني إلى ضابط أعلى مرتبةً كان يرتدي بذلة عسكرية. تأملني الضابط من أعلى إلى أسفل ثم قال: "ليست سيئة أبداً... حسناً، ابتداءً من اليوم أنت أمينة السر الخاصة بي. يجب أن تدرسي أكثر من الآن فصاعداً، اعملي بجهد لتصلحي نفسك وكافحي لتنضمّي إلى الحزب في أقرب وقت ممكن"، ثم أمر أحدهم بأخذي إلى غرفة لأستريح. كانت الغرفة مريحة جداً؛ حتى إنه كان هناك لحاف على 'الكانغ'. بدا أن العمل مع قائد كان مختلفاً حقاً، لكنني كنتُ منهكة لدرجة أنني لم أفكر في الأمر كثيراً واستغرقت في النوم.

لاحقاً، تلك الليلة، استيقظت على رجل يصعد إلى السرير فذعرت وكدت أصرخ، لكنه وضع يده على فمي وقال بصوتٍ منخفض: "ششش، لا تزعجي الرفاق الآخرين. هذه هي مهمتك".

"مهمة؟".

"نعم، منذ اليوم هذه هي مهمتك".

كان ذلك الصوت الخالي من أي إحساس هو صوت الضابط الكبير الذي التقيته في وقت سابق. لم أملك القوة لأدافع عن نفسي، ولم أعرف كيف. تمكنت من البكاء فقط.

في اليوم التالي أعلمني الحزب أنهم سيقيمون حفلة زفاف بسيطة تلك الليلة ليحتفلوا بزواجنا. ذلك الضابط هو زوجي الآن.

لفترة طويلة ظللت أسأل نفسي كيف حصل ذلك؟ كيف تم زواجي من قبل الثورة؟ طوال أربعين سنة عشتُ مخدّرةً في ذلّ. حياة زوجي المهنية هي كل شيء بالنسبة إليه؛ النساء بالنسبة إليه مجرّد إشباع حاجة جسدية ليس أكثر. يقول: "إن لم تستخدم المرأة فلماذا تكلّف نفسك الاهتمام لها؟".

انتهى شبابي، تحطمت آمالي، واستُخدِم كل شيء جميل حولي من قِبَل رجل".

انقطعت عن الكلام.

"أعتذر يا شينران، كنت أفكر في نفسي فقط وأنا أتكلم هكذا. هل سجّلت آلتك كل شيء؟ أعرف أن النساء يتكلمن كثيراً، لكنني نادراً ما أحصل على فرصة أو رغبة في الكلام؛ أعيش مثل إنسانٍ آلي. أخيراً تمكّنت من الإفصاح عن مكنونات قلبي دون خوف. أشعر أنني أخفُّ. شكراً لك، واشكري إذاعتك وزملاءك أيضاً. الوداع".

وقفنا أنا وزملائي جامدين في مكاننا لبضع دقائق بعد أن ودّعتنا المرأة، متأثرين، متجهّمين، ومصعوقين من قصتها. عندما قدّمت طلب إذن لبثّ قصتها رفضت السلطات، إذ من شأنها إلحاق الضرر بصورة قادتنا في ذهن الشعب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٩

والدتي

كان تشين العجوز واحداً من الذين تجمّعوا حول آلة التسجيل ليسمعوا زوجة القائد الإقليمي تروي قصتها، وقد أخبرني لاحقاً أنه لم يتفاجأ بالقصة. فالعديد من الرجال الذين انضموا إلى الثورة تركوا نساءً وأطفالاً خلفهم ليتبعوا الحزب، وما إن كانوا يصلون إلى مراكز عالية حتى كان الحزب يدبّر لهم زوجات جديدات لأن زوجاتهم الأُوَل كنّ عالقات في مناطق تحت احتلال العدو.

كانت معظم الزوجات الجديدات من الطالبات اللواتي آمنّ بحرارة بالحزب الشيوعي وكن يعبدن الرجال الصغار السن فيه الذين يحملون السلاح كأنهم أبطال. كانت معظمهنّ من عائلات ثريات؛ وجميعهن كنّ شابات مثقّفات. كنّ مختلفات جداً عن الزوجات الأُوَل اللواتي كنّ بمعظمهنّ فلاحات. دماثتهن وثقافتهن أثارت رغبة الضباط لما هو جديد وغير مألوف، وجعل تعليمهنّ منهنّ أستاذات جيدات وضباط أركان.

سنة ١٩٥٠، بعد أن سيطر الحزب الشيوعي على معظم الصين، وجدت الحكومة الجديدة نفسها أمام مشكلة: ماذا يفعلون بزوجات قادتهم الأساسيات. أتت الزوجات الأُوَل إلى العديد من الرجال الذين أصبحوا الآن مسؤولين رفيعي المستوى إلى بكين يسحبنَ أولادهنّ وراءهنّ آملات أن يجدنَ أزواجهنّ.

كانت الحكومة تروّج لحقوق المرأة وحريتها، وللمساواة الجنسية والزواج

الأحادي، لذلك شكّلت تلك المسألة معضلة. كان المسؤولون قد أسسوا عائلات جديدة مع زوجاتهم الجديدات: أي زوجة وأي أولاد كان يجب أن يبقوا، وأية زوجة وأي أولاد كان يجب أن يرحلوا؟ لم يكن هناك قانون يمكن الارتكاز عليه لاتخاذ قرار في هذا الشأن.

بالنسبة لاختيار أياً من العائلتين ستكون ذات فائدة لمهنة ومركز المسؤولين في المجتمع، كان الأمر واضحاً. لكن الرجال وقفوا صامتين لا يعرفون ماذا يقولون لزوجاتهم الأُوَل اللواتي قاسيْنَ سنيناً من المشقّات من أجلهم. هذه النساء الأُميّات، اللواتي لا يستطعن حتى أن يقرأن أبسط الأحرف الصينية، كنّ يفهمن شيئاً واحداً فقط: أنهنّ ينتمين إلى الرجال الذين رفعوا حجبهنّ وحوّلوهنّ من فتيات إلى زوجات.

في النهاية، قاموا بإعداد وثيقة حكومية تعترف بالموقع السياسي لتلك النساء. كما منحوهن بعض الحقوق السياسية الخاصة ومنحوهن أيضاً ضماناً مدى الحياة لنفقات المعيشة. رضخت تلك النساء لأوامر بالكاد يفهمنها وعدن إلى قراهنّ مع أولادهنّ الذين كبروا ليكرهوا آباءهم وأيضاً أمهاتهم.

لم يجرؤ القرويون على إدانة الزوجات المتروكات أو الهزء بهنّ لأنهنّ كنّ تحت حماية الحكومة. لكن عدداً قليلاً من تلك النساء البسيطات النزيهات استخدمن مكانتهن الخاصة أو امتيازاتهنّ للبحث عن حياة أسهل. بالكاد قبلنَ نفقات المعيشة من الحكومة – مبلغ صغير، بالكاد ارتفع مع التضخم – وربّين أولادهنّ وحدهنّ. عدد قليل جداً منهن تزوجن من جديد.

قال العجوز تشين إن واحدة من تلك النساء قالت له: "لماذا أزيد من ألمي باستخدامي امتيازاتي؟ سيتكلم الناس عن زوجي وسيجعلونني أفتقده أكثر".

اكتشفتُ فيما بعد أن العديد من الزوجات الجديدات، مثل المرأة التي اتصلت ببرنامجي، كنّ غير سعيدات بزواجهن: هل كان ذلك ليجعل الزوجات الأُوَل سعيدات إن علمنَ ذلك؟ ومثل متصلتي المجهولة، كثيرات من الزوجات الجديدات

اختير لهنّ أزواج لا يعرفن عنهم شيئاً. تعليمهن، ثقافتهن، ودماثتهنّ والرومنطيقية الغربية التي تعلّمن أن يشعرن بها في مدارسهنّ المتقدّمة، كانت في البدء جذّابة بالنسبة لأزواجهنّ لكنها في النهاية أصبحت مرفوضة. كان أزواجهنّ قد تربّوا في الحقول وبين وحشية الحرب، وتعلّموا من الأكبر سناً أنه يجب السيطرة على المرأة وحبسها والتحكّم بها. ضاقت الهوة بين الأزواج وتطلّعات الزوجات الجديدات بسبب سلاسة وإذعان نسائهم، لكن سرعان ما فقد الرجال الاهتمام وبدأوا يعتبرون زوجاتهم مجرد أدوات.

عندما زرت والدَيّ الأسبوع الماضي، قلت لوالدتي إنني أجد صعوبة في التمييز بين الحياة في زواجٍ خالٍ من العاطفة وبين التواجد السجن. أجابت أمي باستخفاف: "كم هناك من الناس المتزوجين في الصين الذين يرتكز زواجهم على الحب؟"، وعندما سألتها لماذا قالت ذلك اختلقت عذراً وغادرت الغرفة. كنتُ أعلم أن والدتي كانت تستمع إلى برنامجي تقريباً كل يوم، لكننا نادراً ما كنا نتكلم عن مشاعرنا. طوال حياتي كنت أتوق أن تحضنني بين ذراعيها، فهي لم تحضنني أو تقبّلني مرة واحدة عندما كنتُ طفلة؛ وعندما أصبحتُ راشدة كان إظهار أي شكل من أشكال العاطفة بيننا ممنوعاً بسبب التحفّظ الصيني التقليدي. بين سنتي ١٩٤٥ و١٩٨٥ (عندما أصبح التجوّل في أنحاء البلاد ممكناً من جديد) افترقت عائلات صينية كثيرة. ولم تُستثنى عائلتنا من الأمر، ولم أكن قد أمضيت مع والديّ إلاّ وقتاً قليلاً جداً. كنت أرغبُ بشدّة في أن أعرف أكثر عن أمي، المرأة التي منحتني الحياة، والتي جعلتني أسأل أسئلة لا تُحصى عن النساء. ساعدتني ثقتي المتنامية كصحافية بالبدء في جمع أجزاء القصة التي كنت أعرفها عنها إلى بعضها بعضاً.

تنحدر والدتي من عائلة رأسمالية كبيرة في نانجينغ، وهي مدينة تعجّ بالحياة لكنها سلميّة وهادئة، مختلفة تماماً عن بكين السياسية وشانغهاي التجارية وغوانغجاو الصاخبة. سان يات-سين، مؤسس الصين المعاصرة، اختار أن يُدفَن في نانجينغ والغوومينداتغ حالما تصبح عاصمتهم هناك.

بسبب موقعها على ضفاف نهر يانغتسي في جنوب شرق الصين عند جبل تسيجين المُهيب، تمتلئ المدينة بالبحيرات والأماكن الخضراء. جاداتها مظللة بالأشجار على الجانبين، وهي موجودة في كل الاتجاهات، وقصورها التاريخية وأسوار المدينة والأبنية العصرية عند النهر تُظهر الغنى الذي يتمتع به تراث نانجينغ الثقافي. يقول الصينيون إن الناس يتشكّلون من الماء والتراب الموجودين حولهم؛ ومما أعرفه عن عائلة أمي أعتقد أن ذلك صحيح.

فيما مضى كانت لعائلة والدتي أملاك شاسعة في نانجينغ: كل ما كان جنوب خط يمتد من بوابة نانجينغ الغربية إلى مركز المدينة تقريباً ثلاثة كيلومترات إلى الشرق كان ملكاً لهم. كان جدي، والد أمي، رئيس صناعة القنّب في ثلاث مقاطعات - جيانغسو وجيجيانغ وأنهوي - كما أنه كان يملك عدداً من المصانع. وفي جنوب الصين المزدهر كان الشحن أهم وسيلة للنقل. وكان جدي يصنع كل شيء ابتداءً من تَربولين (قماش مع قطران يجعله ضد الماء) للسفن الحربية إلى كابلات مراسي قوارب الصيد الصغيرة.

كان جدي مبادراً تجارياً ماهراً جداً وكان أيضاً مديراً إدارياً، دون أن يكون على قدر كبير من التعليم. لكنه أدرك أهمية الثقافة والتعليم فأرسل أولاده السبعة إلى أفضل المدارس، وأنشأ مدرسةً في نانجينغ. ورغم أن الرأي السائد في ذلك الوقت كان يقول "إن افتقار المرأة للموهبة فضيلة" فقد تلقّت بناته أفضل تعليم.

علمت من أخوالي وخالاتي أن قوانين صارمة كانت تُطبَّق في منزل جدي. فعند تناول الوجبات، إذا قاموا بإصدار أي صوت وهم يتناولون الطعام أو سمحوا ليدهم اليسرى بالانحراف عن وعاء الأرز أو خالفوا بعض القوانين، كان جدي يضع عيدان الطعام من يده ويغادر. لم يكن يُسمح لأحد أن يُكمل طعامه بعد ذلك؛ كانوا يظلوا جائعين إلى أن يحين موعد الوجبة التالية.

بعد أن أُنشئت الحكومة الجديدة، سنة ١٩٤٩، اضطر جدي إلى تسليم الحكومة بعض ممتلكاته من أجل حماية عائلته. وربما بسبب رد فعل تمردي ضد تربيته

الصارمة أصبح أولاده كلهم ناشطين في حركات الحزب الشيوعي الثورية، يكافحون ضد رأسماليين مثل والدهم.

اقتسم جدي ممتلكاته الشاسعة وأسهمه مع الحكومة في ثلاث مناسبات - سنوات ١٩٥٠ و١٩٥٩ و١٩٦٣ - لكن تلك التضحيات لم تحمِه. فقد أصبح مستهدفاً ومضطهداً في بداية الثورة الثقافية لأن اثنين من أعداء ماو تسي تونغ اللدودين أشادا به. كان الأول تشيانغ كاي شيك، الذي تكلم عن جدي بعبارات عظيمة لأنه عمل على تطوير الصناعة الوطنية في وجه الظلم الياباني، وكان الثاني زميلاً سابقاً لماو، هو ليو شاو تشي، الذي أشاد بجدي لأنه تبرّع بجزء كبير من ممتلكاته للبلد. نُفيَ تشيانغ من الصين إلى تايوان، وسُجن ليو بعد أن خسر دعم السلطة.

كان جدي قد اجتاز السبعين من العمر عندما سُجن، وقد نجا من محنته بفضل إرادته القوية المذهلة. كان الحرس الأحمر يبصقون أو يضعون المخاط في الطعام القاسي والشاي الخالي من أي نكهة أو طعم الذي كانوا يقدمونه للسجناء. مات رجل عجوز كان يشارك جدي الزنزانة من الحزن والغضب والعار بسبب المعاملة التي كان يتلقّاها، أما جدّي فقد احتفظ بابتسامة على وجهه. كان يزيل البصاق والمخاط ويأكل كل ما يمكن أكله. صار الحرس الأحمر يحترمونه وصاروا يحضرون له طعاماً أفضل قليلاً من طعام الآخرين.

عندما أُفرج عن جدّي في نهاية الثورة الثقافية دعاه أحد الذين كانوا معه في السجن إلى وجبة تتميز نانجينغ بصنعها، بط مضغوط بالملح، للاحتفال، وعندما صار الطبق على الطاولة سقط صديق جدي ميتاً من نزيف دماغي سببه الحماسة الشديدة.

لم يُظهر جدّي لا فرحاً على حريته ولا بؤساً على موت أصدقائه وخسارة عائلته وممتلكاته؛ بدا كأن مشاعره قد خُدّرت بصورة دائمة. عندما سمح لي بقراءة مذكراته، خلال زيارة لي إلى الصين في شهر أذار/مارس سنة ٢٠٠٠، أدركت أنه لم يتوقف يوماً عن الشعور بتقلّبات الزمن. خبرته ومفهومه للحياة جعلاه يشعر

بعدم القدرة على التعبير عن نفسه من خلال الوسيلة السطحية للتعبير بالكلام؛ الكلام السطحي، لكنه يبقي مشاعره دفينة في أعماقه، رغم أنه لا يعلن هذه العاطفة في مذكراته.

انضمّت والدتي إلى رابطة الشباب الشيوعية في سن الرابعة عشرة، وإلى الجيش والحزب في السادسة عشرة. قبل ذلك كانت تمتع بسمعة متواضعة في نانجينغ بسبب إنجازاتها المدرسية ومواهبها في الغناء والرقص. واستمرت بالتألق في الجيش. فقد كانت الأولى في صفها في التدريب والامتحانات، وكانت ضمن الأوائل في المسابقات العسكرية الوطنية التي كانت تقام على نطاق الدولة. كانت ذكية وجميلة، سعى وراءها كبار شخصيات الجيش والحزب، الذين كانوا يتنافسون على دعوتها إلى الرقص. بعد ذلك بسنوات صرّحت والدتي أنها كانت تشعر أنها مثل سندريللا التي لاءمها جداً حذاء الثورة البلّوري الذي كان يحقق كل أحلامها. كانت والدتي تنعم بدفء النجاح الضبابي، غير مدركة أن خلفيتها الأسرية سوف تطاردها.

في بداية الخمسينات نفّذت الحكومة أول تطهير داخلي لها على طريقة ستالين، فصُنّفت والدتي على اللائحة السوداء للمتحدّرين من عائلات رأسمالية وطُردت من حلقة مناصري الثورة الممتازين. وعوضاً عن ذلك أُرسلت للعمل في مصنع عسكري حيث نجحت، بالتعاون مع خبراء من ألمانيا الشرقية، في صنع آلة تُستعمل لصنع الأجهزة العسكرية. لكن عندما التُقطت صورة جماعية لتوثيق الإنجاز قيل لوالدتي إنها لا يمكنها الوقوف في الصف الأمامي بسبب خلفيتها الأسرية، وحُشرت في الصف الخلفي.

خلال الانشقاق الذي وقع بين الصين والاتحاد السوفييتي أصبحت والدتي هدفاً خاصاً للتحقيق. وكانت خلفيتها الرأسمالية المبرر لامتحان إخلاصها للحزب. وعندما اقتربت نهاية الثورة الثقافية، قادت فريقاً تقنياً صغيراً قام بتصميم أداة ستزيد بشكل ضخم الفعالية في الصناعة، لكنهم لم يعترفوا بفضلها في إنجاز هذا العمل وحُرمت من المكافأة المخصّصة للمصمم الرئيسي، إذ كان من المستحيل

لشخص يملك مثل خلفيتها أن يكون مخلصاً حقيقياً للحزب.

لأكثر من ثلاثين عاماً صارعت والدتي للحصول على نفس المعاملة والتقدير اللذين كان يحصل عليهما زملاؤها الذين يتمتعون بنفس إمكانياتها، لكنها فشلت في كل مرة تقريباً، إذ لم يستطع شيء تغيير واقع أنها كانت ابنة رأسمالي.

قال لي أحد أصدقاء عائلتنا مرةً إن أفضل دليل على قوة شخصية والدتي هو قرارها بالزواج من والدي. عندما تزوجا كان والدي أستاذاً مرموقاً في أكاديمية عسكرية؛ كانت هي إحدى طالباته، وكان محط إعجاب الكثير من الطالبات. ورغم أن العديد من الأساتذة تقدموا بطلب يد والدتي، لكنها اختارت والدي، الذي لم يكن وسيماً، لكنه كان أكثرهم موهبةً فكرية على الإطلاق. كان زملاء والدتي متأكدين من أنها لم تتزوّجه بدافع الحب، وإنما لتثبت جدارتها.

بالفعل بدا أن فكر والدي كان ذريعة والدتي الخاصة للزواج به. وكلما كانت تتحدث عنه كانت تتكلم عن ذكائه الخارق؛ فقد كان خبيراً وطنياً في علم الميكانيكا والمعلوماتية وكان يتكلم عدة لغات أجنبية. لم تتكلم عنه أبداً كزوج جيد أو والد جيد. بالنسبة لي ولأخي، كان من الصعب أن نوفّق بين رأي والدتي في والدي وبين الرجل المرتبك المشوّش الذي لم نره إلا نادراً في طفولتنا والذي كنا نناديه 'العمّ'.

هناك أحداث لا تُحصى تُظهر شرود ذهن والدي؛ وعندما أستعيد أحداث تلك الفترة أجد أن الكثير منها كان عبارة عن نوادر مسلية. مرةً في قاعة طعام الضباط وضع والدي صحنه القذر تحت إبطه، ثم تناول قاموساً ضخماً وأخذه إلى الحنفية وغسله بالماء أمام أعين زملائه المذهولين. وفي مرة أخرى، بينما كان مستغرقاً في قراءة كتاب، دخل من باب مفتوح إلى شقة عائلة أخرى، فاستلقى على الأريكة واستغرق في النوم. أشفقت العائلة المذهولة عليه ولم توقظه.

ليثبت أنه يتمتع بنفس كفاءة والدتي في المهارات اليومية العملية، حاول والدي أن يطبخ وجبة طعام، فاشترى ميزاناً مع أوزانه العشرين لكي يتمكن من اتباع وصفة الطبق بدقّة، وبينما كان يزين الملح بانتباه احترق الزيت في المقلاة.

أخبرتني والدتي أنه في أحد الأيام أسرع عبر الحشود في ساحة تيانانمين ليلتقيها عند نصب تذكاري للثوار. أخبرها بحماسة أن وحدة عمله قد أعطته للتو قنينتين من زيت السمسم، ولم يلاحظ أن القنينتين كانتا قد انكسرتا في الطريق وأنه كان متشبثاً بسدادتي القنينتين إلا عندما رفع يديه ليريها الزيت.

غالباً ما يظن الناس أن التعاطف الذي يشعرون به نحو الآخر هو حب، فيقعون في فخ زواج غير سعيد. العديد من الأزواج الصينيين الذين تزوجوا بين ١٩٥٠ و١٩٨٠ وقعوا في ذلك الفخ. تحت وطأة الحركات السياسية والمحن الجسدية وثقل التقاليد تزوج العديد من الرجال والنساء بسبب مشاعر التعاطف وربما الشهوة، لكن ليس الحب. فقط بعد الزواج اكتشفوا أن ما جذب شفقتهم في البداية صار سبب اشمئزازهم في النهاية تاركاً حياتهم العائلية خاليةً من العواطف والمشاعر.

كان والدَيّ يأتيان من خلفية لائحة الرأسماليين السوداء - عمل جدي (والد أبي) لصالح شركة بريطانية GEC في شانغهاي لمدة خمس وعشرين سنة -، ومن هنا لا بد أن التعاطف المتبادل قد لعب دوراً في زواجهما. وأعتقد أنهما بدأا يعتمدان على بعضهما ويكنّان المشاعر لبعضهما عبر السنين.

هل أحبا بعضهما؟ هل كانا سعيدين؟ لم أجرؤ قط على طرح هذا السؤال مخافة أن أثير سنوات من الذكريات التعيسة، ذكريات الانفصالات الإجبارية، السجن والعائلة المنقسمة.

أُرسلت للعيش مع جدتي عندما كان عمري شهراً واحداً. عشت مع والدتي أقل من ثلاث سنوات. لا يمكنني أن أتذكر حفلة عيد ميلاد واحدة اجتمعت فيها العائلة بكاملها.

كل مرة أسمع فيها صفّارة قطار بخاري أفكر بوالدتي. الصوت الطويل الحاد يجعلني أشعر بالعجز وبالأمل أيضاً، إذ يذكّرني باليوم الذي أصبح عمري فيه خمس سنوات. كانت جدتي قد أحضرتني إلى محطة قطارات بكين، وأمسكت يدي بينما كنا منتظرتين على المنصة. لم تكن المحطة مكتظة بالناس مثلما هي الآن، ولم تكن

تحتوي على وسائل إلهاء بصرية بشكل لافتات وإعلانات. لم أفهم سبب وجودنا هناك، وكل ما أتذكره هو انتظارنا بهدوء بينما كنت أعبث بأصابع جدتي المتصلّبة محاولةً أن أطويها مثل طرف الزلابية الصينية المسنّن.

بدا كأن صفارة طويلة وكئيبة تدفع قطاراً طويلاً جداً باتجاهنا، وعندما توقف القطار، مصدراً ضجيجاً، بدا متعباً من نقل هذا الكم الهائل من الناس إلى مسافات بعيدة وبتلك السرعة.

اتجهت نحونا سيدة جميلة، تتأرجح في يدها حقيبة مع كل خطوة كانت تخطوها؛ انساب كل شيء كما في الحلم. أخذت جدتي يدي وأشارت نحو السيدة وهي تقول: "تلك هي أمك هناك. قولي "ماما" هيا!".

ناديتُ السيدة الجميلة، "خالتي"، مثلما أنادي أي سيدة أخرى.

قالت جدتي بإحراج: "هذه أمك، قولي ماما وليس خالتي".

حدّقتُ في المرأة بعينين واسعتين وبصمت. كانت عيناها مليئتين بالدموع لكنها أجبرت نفسها على الابتسام. كانت بسمتها حزينة ومتعبة. لم تطلب مني جدتي مجدداً أن أناديها أمي؛ تسمّرت المرأتان في مكانهما بلا حراك.

لم تكفّ هذه الذكرى بالذات عن مطاردتي أبداً. شعرتُ بألمها بقوة بعد أن أصبحتُ أماً، واختبرتُ ذلك الرابط الأمومي المحتوم الذي يربط الأم بولدها. ماذا كان يمكن باستطاعة أمي أن تقول لابنة تناديها "خالتي"؟

عبر السنين توجّب على أمي أن تقمع طبيعتها الأنثوية. وخلال منافستها للرجال وكفاحها ضد وصمة العار في خلفيتها الأسرية لتنجح في حياتها المهنية وفي الحزب، شعرت أن الأولاد يشكلّون عبئاً وأن عائلتها قد دمّرت حياتها. تلك التي كانت ذات يوم أجمل جميلات حفلات الجيش الراقصة أهملت مظهرها الخارجي وطريقة لبسها.

اتصلتُ بأمي مرة من إنكلترا عندما وجدتُ العيش في ثقافة غريبة أمراً صعباً. قالت: "لا تقلقي، أهم ما في الأمر هو أنك تأخذين الوقت الكافي لتكتشفي ماذا يعني أن تكوني امرأة".

ذُهلت. كانت في الستينات من عمرها أنذاك، وبذلك تكون تعترف بواقع أنها أُجبرت على قمع جزء مهم من نفسها وكانت تحثني على عدم الوقوع في نفس الخطأ.

في المرة الثانية، عندما عدت إلى الصين بعد ذهابي إلى إنكلترا، دُهشت لرؤية والدتي تضع أحمر شفاه لتستقبل صديقي البريطاني. بالكاد استطاع والدي أن يكبح حماسته لهذا التحول في أناقتها؛ فهي لم تضع مساحيق تجميل على وجهها منذ أربعين سنة.

١٠

المرأة التي انتظرت خمسة وأربعين عاماً

من سمات الصيني العصري أن تكون لديه عائلة لكن من دون مشاعر، أو أن تكون لديه مشاعر لكن من دون عائلة. تجبر الأوضاع الحياتية الشباب على جعل العمل والمسكن من أبرز الشروط لزواجهم. أهلهم، الذين يعيشون في خضم التقلّبات السياسية، جعلوا الأمان والتكافل أساساً لإنشاء عائلة. بالنسبة لكلا الجيلين التدبيرات العملية تأتي دائماً أولاً، والمشاعر العائلية إن وُجدت تتطور فيما بعد. ما تسعى وتتوق إليه معظم النساء هو عائلة تنمو من دون عواطف. لهذا السبب نقرأ عن الكثير من قصص الحب المأساوية في تاريخ الصين - قصص لم تنتج لا زهراً ولا ثمراً.

في سنة ١٩٩٤ ذهب والدي ليشارك في احتفال الذكرى السنوية الثالثة والثمانين لجامعة تشينغوا، وهي من أهم وأفضل الجامعات في الصين. وبعد عودته أخبرني عن لقائه باثنين من زملائه في الدراسة سابقاً، جينغ يي و غو دا، كان مغرمين ببعضهما عندما كانا طالبين. بعد الجامعة عُيّنا في منطقتين مختلفتين من الصين من أجل تلبية "احتياجات الثورة"، وفقدا الاتصال ببعضهما خلال كابوس الثورة الثقافية الطويل الذي دام عشر سنوات والذي منع أي تواصل. المرأة، جينغ يي، فتّشت عن حبيبها وانتظرته خمساً وأربعين سنة. وفي هذا اللقاء في الجامعة التقيا

مجدداً لأول مرة منذ خمس وأربعين سنة، لكن لم تتمكن جينغ يي من الارتماء في أحضان حبيبها، فقد كانت زوجته واقفة إلى جانبه. أجبرت جينغ يي نفسها على الابتسام ومصافحته وإلقاء التحية بأدب، لكن كان واضحاً أنها تأثرت جداً بما أنها غادرت اللقاء باكراً.

الزملاء السابقون الذين شهدوا هذا اللقاء المؤلم شعروا بأعينهم تحمَرّ وبأنوفهم تلذعهم من التأثر، فقد كانت قصة جينغ يي وغو دا أعظم قصة حب في صفهما؛ وكان الجميع يعلم أنهما أحبا بعضهما بعضاً بعمق مدة أربع سنوات في الجامعة. تذكروا كيف وجد غو دا لها زعرواً سكَّرياً (ثمر الزعرور مغطى بطبقة قاسية من السكر) وسط عاصفة ثلجية من عواصف بكين، وكيف بقيت إلى جانبه تعتني به مدة عشر ليال عندما أصيب بالتهاب رئوي. كان والدي حزيناً وهو يروي ذلك، ثم أطلق تنهيدة حزن على القدر ومرور الزمن.

سألت والدي إن كانت جينغ يي قد تزوّجت فأخبرني أنها لم تفعل، لكنها انتظرت حبيبها كل ذلك الوقت. بعض زملاء الصف السابقين اعتقدوا أن هيامها بحبها القديم حماقة: كيف يمكن لأي أحد الاحتفاظ بأمل كهذا خلال سنوات الاضطراب السياسي العنيف؟ أمام عدم تصديقهم، ابتسمت وظلّت صامتة. قلت لوالدي إنها تشبه زنبقة الماء، تخرج من الطين نقيّة. كانت والدتي تصغي جانباً، فعلّقت أن زنبقة الماء تذبل بسرعة أكبر من أي زهرة أخرى عندما تُكسر. رغبتُ بشدة أن أعلم إن كانت جينغ يي قد كُسرت.

وجدت وحدة عمل جينغ يي وعنوانها على لائحة زملاء صف والدي الجامعيين، لكني لم أجد رقم هاتف منزلها أو عنوانه. كانت وحدة عملها مصنعاً عسكرياً للمشاريع التجريبية يقع في مكان بعيد جداً في منطقة جبلية حيث كانت الظروف المعيشية بسيطة والمواصلات إليها صعبة. أجريت مكالمة خارجية إلى المصنع فقالوا لي إنها لم ترجع بعد من بكين وطلبوا مني أن أؤكد مغادرتها. وافقتُ على القيام بذلك وطلبتُ من زملائها أن يفتشوا عنها أيضاً. على مدى الأسبوعين التاليين قمت

ببعض الاستقصاءات بين أصدقاء جينغ يي في الجامعة لأعرف إن كانت قد اتصلت بهم أو بأي أصدقاء أو عائلة، لكني لم أجد لها أثراً. اتصلوا بي من وحدة عملها ليعلموني أنها اتصلت من بكين تطلب إجازة، لكنها لم تتصل مجدداً لتتأكد من أنها قد حصلت على الإذن بذلك. تساءلتُ إن كانت مع حبّها القديم غو دا، لكني عندما اتصلتُ به في مصنع عسكري كبير في جيانغشي، في جنوب غرب الصين، تمكن فقط أن يسأل بعجز: "ماذا حصل، أين هي؟".

لعدة أسابيع، أصبحت جينغ يي موضع مكالماتي الهاتفية الوحيد إلى عائلتي. كنا جميعنا قلقين جداً، لكن لم يكن هناك شيء آخر يمكننا عمله. لقد فُقِدَت في مكانٍ ما في الصين.

في إحدى الليالي تلقيتُ اتصالاً من مستمعة عرّفت عن نفسها كموظفة في فندق عند بحيرة تايهو في ووشي. أخبرتني عن سيدة كبيرة جداً في السن كانت تنزل في الفندق، وأن هذه النزيلة لا تغادر الغرفة أبداً ولا تسمح لعاملة التنظيف بالدخول، وكان موظفو الفندق يعلمون أنها لا تزال حيّة فقط لأنها كانت تجيب على الاتصالات الهاتفية. كانت المتّصلة قلقة وتمنّت أن أتمكن من مساعدة تلك النزيلة الغريبة الأطوار.

بعد انتهاء البث اتصلتُ بالفندق وطلبتُ من مقسم الهاتف أن يصلني بالمرأة المنعزلة. ردّت على الهاتف بسرعة، لكنها لم تكن مستعدة أبداً للتكلم. سألتني كيف عرفت بشأنها، وعندما أخبرتها أن أشخاصاً عديدين في الفندق كانوا قلقين بشأنها، طلبت مني أن أشكرهم بالنيابة عنها. تفاجأت أنها كانت تطلب من شخص بعيد جداً أن يشكر الأشخاص الذين هم قريبين جداً منها. في تجربتي، تجنّب التواصل الشخصي بهذه الطريقة يشير إلى فقدان الثقة في الحياة. قالت إنها لم تسمع برنامجي ولن تفعل.

كانت محادثتنا الأولى قصيرة، لكنّي واظبت على الاتصال بها كل ليلة بعد انتهاء برنامجي معتبرةً الاتصالات حبل النجاة. وبعد عدة محادثات بدأ يظهر في

نبرة صوتها بعض القبول وكانت تسألني أحياناً عن نفسي بدل أن تجيب ببرود عن أسئلتي.

لكنها، بعد أسبوعين، لم ترد على اتصالي فشعرت بالذعر واتّصلت على الفور بموظفي الفندق وطلبتُ منهم أن يطرقوا بابها، واطمأننتُ عندما أخبروني أنها ردّت من خلف الباب. في الأيام القليلة التي تلت لم تردّ على اتصالاتي، لكنني واظبت على روتيني اليومي لأظهر اهتمامي.

وشاءت الصدف أن أوكلتُ بمهمة في ووشي بعد فترة قصيرة. ورغم أن موضوع تحقيقي كان عن حياة رجال شرطة السير في ووشي، إلا أنني استطعت أن أغتنم الفرصة لأزور السيدة التي عزلت نفسها عن العالم.

أخبرت رئيس الإذاعة أنني سأنطلق إلى ووشي حالما أنتهي من برنامجي المسائي، فتفاجأ وقال: "هل جُننتِ؟ إن ذهبتِ في الليل فلن تصلي إلى ووشي إلا في ساعة مبكرة جداً ولن يكون هناك أحد في استقبالك". علّمتني التجربة أن أقتضب في الشرح.

كان السائق الذي عُيّن لإقلالي إلى ووشي يكره القيادة في زحمة سير النهار القاتلة وسُرّ عندما طلبتُ منه أن يوصلني في الليل إلى فندق عند بحيرة تايهو. وصلنا في الساعة الرابعة صباحاً لنجد موظفة الفندق تعبة من النعاس ومتكاسلة. السائق، الذي كان ذا طبيعة غير صبورة، قال لها بخشونة: استيقظي لو سمحتِ! هذه شينران. جاءت إلى هنا مباشرةً بعد الانتهاء من برنامجها عند منتصف الليل، ويجب أن تبدأ تحقيقها الصحفي في الثامنة صباحاً. هلا أسرعتِ من فضلك في إنهاء الإجراءات؟".

"ماذا، شينران؟ شينران التي تقدم 'كلمات على نسيم الليل'؟ كنتُ أستمع إلى برنامجك منذ بضع ساعات فقط".

"نعم، إنها هي، وهي متعبة. ساعدينا هيا!".

"هل أنت حقاً شينران؟ بلى، بلى! رأيتُ صورتك في الجريدة، كم هو رائع أن

ألقاكِ شخصياً. آه، سأتصل بزملائي..."، قالت موظفة الاستقبال ذلك وهي تستعد لتذهب بعجلة.

أوقفتها بسرعة: "لا تقلقي، سأبقى هنا بضعة أيام. أرجوك لا تزعجي زملاءك، فأنا متعبة جداً".

"آه، متأسقة، متأسفة، سأفتح لك الآن غرفة مطلّة على البحيرة"، التفتت موظفة الاستقبال نحو السائق وقالت: "لا تقلق، ستحصل على نفس المعاملة فلا تقلق، لن تُستبعَد".

قال: "شكراً على عدم شعورك بالإهانة".

"لا يهم، لسانك لاذع لكن قلبك طيب، إيه؟ على كل حال، إن كل شيء يدخل من هذه الأذن ويخرج من الثانية معي".

بينما كانت الموظفة ترافقني إلى غرفتي سألتها عن السيدة الغريبة التي تنزل في الفندق.

قالت: "سمعت أن هناك سيدة غريبة الأطوار في المبنى رقم ٤. ربما مضى على وجودها هنا عدة أسابيع، لكني لستُ متأكدة. غداً، في اجتماع الموظفين الدائم وتغيير المناوبات، سأسأل قائد الفريق وأرد عليك".

"شكراً لك، أنا أسبب لك الإزعاج".

"لا أبداً، أنت التي تزعجين نفسك من أجل مستمعين كثيرين، لكن كم منا يمكنهم أن يشكروك شخصياً؟". يقول الصينيون: "يجب الخوف من يدَي الرجل وكلمات المرأة"، لكن يبدو أنني كنت أختبر الجانب اللطيف للسان هذه المرأة.

عندما أصبحت في غرفتي قررتُ أن لا أنام مباشرةً، فاستحممت وجلست أحضّر مقابلاتي ليوم غد. وكنت قد انتهيت للتو من خلع ملابسي عندما رنّ جرس الهاتف.

"مرحبا، هل أتكلم مع شينران؟ أنا عاملة الهاتف في الفندق. أخبرتني موظفة الاستقبال في المبنى الرئيسي أنك وصلت قبل قليل. آسف على الازعاج، لكني سمعت أنك كنت تسألين عن نزيلة معينة عندنا. لقد اتصلت بي هذا المساء،

بعد بث برنامجك بقليل، وسألتني إن كنت أستمع إليه، فقلت لها إنني أفعل، وسألتها إن كانت بحاجة إلى شيء، لكنها أقفلت الخط. أستطيع رؤية غرفتها من حيث أنا موجودة؛ فأنا أعمل هذا الأسبوع في المناوبة الليلية وأستطيع رؤيتها تجلس عند النافذة تتأمل البحيرة طوال الليل. هل من المحتمل أنها تنام خلال النهار؟".

"عذراً، هل يمكنني أن أقاطعكِ للحظة؟ هل يمكن أن أسألكِ إن كنت ترينها الآن؟ هل ما زالت تتأمل البحيرة؟".

"حسناً... إني أنظر. نعم، إنها هناك... أستطيع أن أراها بوضوح. يبدو أنها لا تُسدل الستائر أبداً".

"شكراً جزيلاً. هل يمكن أن أسأل عن رقم غرفتها؟".

"إنها... إنها في الغرفة رقم ٤٢٠٩، في الطابق الثاني في المبنى الرابع".

"أشكرك. هل يمكنني أن أخدمك بشيء؟".

"لا، لا شيء... حسناً، هل يمكنني الحصول على توقيعك؟".

"بالطبع، سأحاول أن أجد بعض الوقت لأزورك غداً، اتفقنا؟".

"حقاً؟ سيكون ذلك رائعاً. إلى اللقاء".

"إلى اللقاء". بينما كنت أتكلم كنت قد بدأت بارتداء ملابسي مجدداً، وقررت الذهاب لزيارة السيدة حالاً، إذ إن الوقت كان ثميناً جداً.

فجأةً شعرتُ بالارتباك، واقفة أمام بابها، وتردّدتُ بضع دقائق قبل أن أقرع الباب وأنادي: "مرحباً، أنا شينران. لقد أتيتُ من الطرف الآخر لمحادثتنا الهاتفية لأراك. أرجوك افتحي الباب".

لم أتلقَّ أي ردّ وبقي الباب مغلقاً بشدّة. لم أقرع الباب مجدداً أو أتكلم بل وقفت أنتظر وأنا على يقين من أنها سمعتني في هدوء الصباح الباكر. كنت متأكدة من أنها واقفة وراء الباب وأننا نستطيع، نحن الاثنتين، أن نشعر بوجود بعضنا بعضاً. وبعد نحو عشر دقائق جاء صوتها من خلف الباب يسأل:

"هل ما زلت هنا يا شينران؟".

أجبتُها برقّة لكن بثبات: "نعم، كنت أنتظرك لتفتحي الباب".

فُتِحَ الباب بهدوء وأومأت لي سيدة قلقة ومنهكة بالدخول. كانت الغرفة مرتّبة ونظيفة وكانت حقيبة سفر كبيرة عند الحائط هي الدليل الوحيد على أن الغرفة مشغولة. ارتحتُ لرؤية علب من النودلز السريعة التحضير - على الأقل لم تكن مُمتنعة عن الطعام.

جلست بالقرب منها، لكني بقيت صامتة، فكّرتُ أن أي كلمات أقولها ستلقى مقاومة. سأنتظرها لتبدأ هي الحديث، لكني سأحاول أن أخلق جواً موحياً بالثقة، إلى أن تصبح مستعدة. جلسنا هناك نستمع إلى صوت الماء يتلاطم على الشاطئ، وطافت أفكاري حول البحيرة ومحيطها.

كانت بحيرة تايهو أكبر ثالث بحيرة ماء عذب في الصين، وتقع في جنوب مقاطعة جيانغسو وفي شمال مقاطعة تشيجيانغ، وهي تشتهر بوصفها بقعة جميلة في دلتا نهر يانغتسي؛ توجد حول البحيرة حدائق طبيعية مليئة بالبُرك والجداول. تُعرف بحيرة تايهو أيضاً بإنتاج وصناعة شاي بيلوو Biluo Spring Tea. تقول الأسطورة إن فتاةً جميلة تُدعى بيلوو Biluo سقَتْ شتلةً من دمها وصنعت من أوراقها الطرية شاياً لحبيبها الذي على فراش الموت، وظلت تقوم بذلك يوماً بعد يوم إلى أن استعاد الشاب عافيته أخيراً، لكن بيلوو نفسها مرضت وماتت.

تفكّرتُ بهذه القصة، وبقصص حب أخرى مأساوية، وأنا أستمع إلى صوت تلاطم المياه الرقيق بينما كنت أجلس بصمت إلى جانب السيدة. رغم أن المصابيح كانت لا تزال مضاءة، لكن ضوءها تلاشى عند انبلاج الفجر. سرّب ضوء الصباح الباكر إلى صمتنا تدريجياً سمةً جديدة.

قطع صوت الهاتف تقاربنا. كان الاتصال لي. كانت الساعة السابعة إلا ربعاً وكان على السائق أن يأخذني إلى ووشي من أجل موعد لقاء مع مكتب دعاية شرطة المرور في الثامنة والنصف.

صافحتُ السيدة أستأذنها بالذهاب، ولم أقل لها سوى: "أرجوك أن تأكلي أكثر قليلاً إكراماً لي، وأن تخلدي للراحة".

في الطريق إلى ووشي غفوت في المقعد الخلفي للسيارة. لم يوقظني السائق الطيب القلب عندما وصلنا إلى وجهتنا، لكنه أوقف السيارة وذهب ليبحث بنفسه عن الأشخاص المفترض بي لقاءهم من مكتب دعاية شرطة مرور ووشي. لم يكن قد وصل أحد إلى المكتب بعد، لذلك حصلتُ على ساعة متواصلة من النوم. وعندما استفقتُ وجدتُ الأشخاص المفترض أن ألتقيهم واقفين يتحدثون خارج السيارة في انتظاري. أُحرِجتُ جداً ولم أقدّم أي شرح. أغاظني أحد رجال الشرطة ممازحاً: "شينران، إذا غطّيت في النوم أينما ذهبت فستصبحين سمينة".

تشعّب النهار حسب وتيرة الصحافة الروتينية المحمومة: جمعتُ المعلومات من عدة أماكن مختلفة، وناقشت مضمون التحقيق الصحفي الذي كنت أقوم به. لحسن الحظ أني أمضيت قسماً لا بأس به من الوقت في السيارة، لذلك انتهزت الفرصة للحصول على عدة إغفاءات.

عندما عدتُ إلى الفندق في المساء وجدتُ على سريري لائحة بأسماء موظفي الفندق الذين يريدون الحصول على توقيعي. وضعتها جانباً واستحممت وذهبتُ لزيارة السيدة في الغرفة رقم ٤٢٠٩ مجدداً. حتى لو لم تشأ أن تتكلم، فكّرت أن مجرد الجلوس معها سيساعد قليلاً. لا بدّ أنها كانت واقفة خلف الباب تنتظرني، لأنّ الباب فُتح ما إن وقفتُ أمامه.

قامت المرأة ببعض الجهد لتبتسم لي، لكنها بقيت صامتة. مرةً أخرى جلسنا أمام النافذة ننظر إلى البحيرة المُضاءة بضوء القمر. كان سطح البحيرة هادئاً، وبقينا معاً في سلام هذا الجو.

عند الفجر، أشرت لها بأن علي الذهاب إلى العمل فصافحت يدي بوهن لكن بعاطفة كبيرة. عدتُ إلى غرفتي، راجعتُ بسرعة بعض الملاحظات التحضيرية التي أحضرتها معي وكتبتُ رسالة شكر قصيرة إلى عاملة الهاتف في الفندق. كنتُ قد

اعتدتُ أن أحمل معي دائماً بطاقات لأوقّعها للمستمعين المتحمّسين الذين ألتقيهم صدفة. وقّعتُ بعضاً من هذه البطاقات لموظّفي الفندق وتركتها لهم مع حارس الطابق الذي أنزل فيه.

اتّخذت رحلة تحقيقي الصحافي القصيرة نمطاً ثابتاً: كنت أجري المقابلات في ووشي في النهار، وأمضي الليالي جالسةً بصمت مع السيدة التي تتأمل بحيرة تايهو. أخذ صمتنا يصبح أعمق وأعمق ومشحوناً بالمشاعر يوماً بعد يوم.

في المساء الأخير، أخبرتُ السيدة أنني سأغادر في اليوم التالي، لكني سأبقى على اتصال وسأكلّمها في الهاتف. لم تقل شيئاً، لكنها ابتسمت لي بوجهٍ شاحب وصافحتني بوهن. أعطتني صورة ممزقة من منتصفها، تظهر فيها عندما كانت طالبة في الجامعة سنة ١٩٤٥. كانت الفتاة في الصورة تضجّ بنضارة الشباب والسعادة، وعلى قفا الصورة كان هناك جزء من جملة مكتوبة بحبرٍ باهت: "الماء لا يمكنه..." وجملة أخرى مكتوبة بحبرٍ داكن بدت كأنها أضيفت مؤخراً: "تشبه النساء الماء، ويشبه الرجال الجبال". خمّنتُ أن الشخص في النصف المفقود من الصورة كان سبب ألم المرأة.

غادرتُ الفندق الذي على ضفاف بحيرة تاهيو، لكني شعرتُ كأني لم أغادر.

عندما عدتُ إلى نانجينغ ذهبتُ مباشرةً لزيارة والدَيّ لأعطيهما المنتجات التي تختصّ بها ووشي - تماثيل خزفية صغيرة وأضلاع لحم خنزير - التي أحضرتها لهم. عندما فتح لي السائق الباب قال: "شينران، إذا ذهبت في رحلة أخرى مثل هذه لا تطلبيني. قتلني الملل في السيارة: كل ما أردتِ فعله كان النوم. بفضلك لم يكن هناك إنسان واحد أستطيع التكلم معه".

كان الوقت متأخراً عندما وصلت إلى منزل والدَيّ وكانا قد أويا إلى الفراش. قررتُ أن أتسلل إلى غرفة الضيوف وأن أراهما في الصباح. نادت أمي من غرفة النوم تسألني: "هل جرى كل شيء على ما يرام؟"، وأخبرني شخير أبي المدوّي أن الأمور كانت على ما يرام بينهما.

في اليوم التالي، عند بزوغ الفجر، أيقظني والدي، الذي كان يبكر دائماً في النهوض، بواحدة من نوبات العطس الصعبة. كان يفعل ذلك كل صباح - أحصيت مرةً أربعاً وعشرين عطسة دون توقف. عدت إلى النوم منهكة ونعسة، لكني استيقظتُ بعد ذلك بقليل مجدداً بسبب طرق قوي على الباب وصوت أبي ينادي: "انهضي بسرعة، الأمر طارئ!".

اضطربتُ، إذ إن منزل والديّ المتقاعدَيْن يكون في العادة ساكناً جداً. "ماذا هناك؟ ماذا حصل؟".

كان والدي جالساً خارج غرفتي وفي يده الصورة الممزقة. كنت قد تركتها على طاولة في غرفة الجلوس الليلة الماضية. سألني بحماسة: "من أين حصلت على هذه الصورة؟ إنها هي!".

"ماذا؟ ماذا تعني؟".

"إنها جينغ يي، زميلة صفي. تلك التي انتظرت حبيبها خمساً وأربعين سنة!". كان والدي متضايقاً جداً من بطء فهمي.

"حقاً؟ هل أنت متأكد من أنها نفس الشخص؟ هل من الممكن أن يكون التقدم في السن قد أثّر على نظرك؟ لقد مضت خمسٌ وأربعون سنة وهذه صورة قديمة"، لم أجرؤ على تصديقه.

"لا يمكن أن أكون مخطئاً. كانت أجمل فتاة في الصف، وكان كل الفتيان معجبين بها وسعى العديد منهم وراءها".

"حتى أنت؟".

"ششش! أخفضي صوتك. إن سمعت أمك فستراودها المزيد من الأفكار الغريبة. في الحقيقة كانت جينغ يي تعجبني كثيراً، لكني لم أكن ضمن المنافسة، كانت فُرَصي ضئيلة"، قال والدي ذلك مع نظرة خجولة على وجهه.

أغظته ممازحةً بينما كنت بدأت بحزم حقائبي من جديد. "فرصك ضئيلة؟ غير معقول! فأنت دائماً تتفاخر كم كنت أنيقاً وساحراً عندما كنت شاباً".

"لماذا تغادرين باكراً هكذا؟" سألني والدي وهو يشاهدني أحزم حقائبي.

"سأعود إلى ووشي فوراً. تعبتُ جداً لأجد جينغ يي من قبل، وقد وجدتها الآن مصادفةً".

أجاب والدي بأسف: "لو عرفتُ لكنت أيقظتك قبل الآن".

كان أحد مدراء البثّ في الإذاعة يعيش قريباً من منزل والديّ فأسرعتُ إلى منزله وطلبتُ إجازة طارئة. كذبتُ بشأن السبب وقلت له إن إحدى قريباتي آتية لزيارتنا للمرة الأولى ويجب أن أصطحبها لزيارة أنحاء المدينة لبضعة أيام. أكره الكذب لأنني أعتقد أنه يقصّر العمر، لكني كنت خائفة أكثر من أن يعرف المدير الحقيقة. بعد أن حصلتُ على موافقته اتصلت بالمقدّمة البديلة لبرنامجي لأطلب منها أن تحلّ مكاني بضعة أيام أُخَر.

فاتني قطار الظهر إلى ووشي، فأجبرت على الانتظار بقلق وعدم صبر طوال المساء، ورأسي يغلي بأسئلة حول جينغ يي. بدا الوقت وكأنه يزحف.

حوالي الوقت الذي كان برنامجي قد بدأ فيه، العاشرة أو قرابة ذلك، عدتُ إلى الفندق عند بحيرة تايهو. تعرّفت إليّ موظّفة الاستقبال وسألتني: "لم تغادري إذن".

قلت: "لا، لم أغادر"، متجنّبةً بذلك إضاعة الوقت في الشرح.

حين وقفت أمام الغرفة رقم ٤٢٠٩ اختفت الأسئلة التي كانت مزدحمة في رأسي فجأةً، وترددتُ مرةً أخرى. رفعتُ يدي وتركتها تهبط مرتين قبل أن أطرق الباب أخيراً.

ناديت قائلةً: "جينغ يي، هذه أنا شينران". شعرتُ برغبةٍ في البكاء؛ لقد جلستُ معها لليالٍ عديدة ولم أنتبه لشيء أبداً. تخيّلتها جالسةً في صمت مدة خمسٍ وأربعين سنة، فضاق صدري.

قبل أن أتمكن من تمالك نفسي، فُتح الباب.

وقفتْ هناك مندهشةً وسألتْ: "ألم تغادري، كيف تعرفين اسمي؟".

أخذتها وجلسنا بجوار النافذة مجدداً، لكني لم أصمت هذه المرّة. أخبرتها برفق

ما عرفته عنها من والدي. كانت جينغ يي تبكي وهي تستمع إليّ دون أن تقوم بأي جهد لمسح دموعها. شعرت أن الأسئلة تخنقني، لكني تمكّنت من سؤالها: "هل ما زلتِ تفكرين بـ غو دا؟". عندما سألتها ذلك، فقدت الوعي.

خفتُ جداً واتّصلت بعاملة هاتف الفندق لتطلب سيارة إسعاف.

تردّدت العاملة قائلةً: "شينران، إنه منتصف الليل..."

"لا يفرّق الناس بين الليل والنهار عندما يُحتضرون. هل يمكنك أن تتحملي رؤية هذه المرأة تموت أمامك؟" سألتها باضطراب.

"حسناً، لا تقلقي. سأتّصل حالاً".

كانت عاملة الهاتفة بارعة جداً. فبعد قليل سمعتُ أحداً في المبنى ينادي: "أين شينران؟".

أجبتُ بسرعة: "أنا هنا!".

عندما رآني سائق سيارة الإسعاف صُعق. "أنت شينران؟ لكنك بخير تماماً!".

"أنا بخير". ارتبكتُ لكني قدّرت أن عاملة الهاتف استعملت اسمي كشخصية معروفة لاستدعاء الإسعاف.

رافقتُ جينغ يي إلى مستشفى عسكري. لم يسمحوا لي بالبقاء معها عندما قاموا بفحصها، لذلك لم أستطع أن أتفقدها إلا خلال نافذة صغيرة جداً في الباب. كانت ممدة دون حراك في الغرفة البيضاء وقلقت جداً وأنا أتخيل الأسوأ. لم أتمكن من كبح نفسي عن البكاء وهتفتُ وقد اغرورقت عيناي بالدموع: "آه، جينغ يي، هيا أفيقي!".

ربّت أحد الأطباء على كتفي قائلاً: " لا تقلقي يا شينران، إنها بخير. لقد وهن جسمها وحسب. يبدو أنها تعرّضت لشيء أحزنها جداً، لكن التحاليل التي أجريناها على وظائفها الحيوية لا تُظهر أي تغييرات للأسوأ، وهذا جيد جداً بالنسبة لسنّها. ستكون بخير عندما تبدأ باتباع نظاماً مغذّياً أكثر".

بدأت أهدأ وأنا أستمع إلى هذا التشخيص، رغم أنني كنت لا أزال أشعر بعذاب

جينغ يي بقوّة. تمتمتُ بعجز قائلةً للطبيب: "لا بدّ أنها تألمت كثيراً. لا أعلم كيف تخطّت أكثر من خمسين ألف ليلة..."

سمح لي الطبيب أن أرتاح في غرفة المناوبة. كانت أفكار شتّى تدور في رأسي جعلتني أستسلم بعدها لنومٍ مرهَق حلمتُ خلاله بنساء يصرخن ويتصارعن، واستيقظت متعبة.

في اليوم التالي ذهبت لرؤية جينغ يي أربع أو خمس مرات، لكنها كانت دائماً نائمة. قال الطبيب إنها ستنام بضعة أيام لأنها كانت مرهقة جداً.

حجزتُ سريراً في مهجع بيت الضيافة في المستشفى. لم يكن لدي المال الكافي لاستئجار غرفة خاصة - فضلاً عن أنني بالكاد استعملته. لم أشأ أن تبقى جينغ يي بمفردها، فكنت أبقى طوال الليل بجوارها، وأستريح قليلاً خلال النهار. بقيتْ جينغ يي فاقدة الوعي لعدة أيام، وكانت الحركة الوحيدة التي تصدر عنها هي رفّة جفونها.

في اليوم الخامس عند الغسق، استعادت جينغ يي وعيها أخيراً. لم تدرك أين هي وبدأت تكافح لتتكلم. وضعتُ إصبعاً على شفتيها وأخبرتُها برفق عمّا حصل. وهي تستمع إلي مدّت يدها وشدّت على يدي معبّرةً عن امتنانها، وتمكنتْ من نطق أولى كلماتها: "هل والدك بخير؟".

تصدّع السدُّ وتدفّقت قصة جينغ يي ذلك المساء وهي مستلقية على مخدّة المستشفى العريضة البيضاء. أخبرتني قصتها بصوتٍ ثابت.

سنة ١٩٤٦، نجحت جينغ يي في امتحان الدخول إلى جامعة تشينغوا. وفي يومها الأول في الجامعة، خلال التسجيل، رأت غو دا لأول مرة. لم يكن غو دا مميزاً بين الطلاب لا بوسامته ولا بإنجازاته العظيمة. عندما رأته جينغ يي في أول يوم كان يساعد الآخرين بصمت في حمل أمتعتهم وبدا مثل حمّال في الجامعة. وُضع كل من جينغ يي وغو دا في نفس الصف، حيث بدأ العديد من الشبان يتودّدون إلى جينغ يي بسبب جمالها ورقّتها. أما غو دا فكان يجلس وحيداً في إحدى زوايا

الصف أو في أماكن بعيدة في حدائق الجامعة يقرأ. لاحظت أنه قارئ نهم، لكنها، عدا ذلك، لم تعره الكثير من الاهتمام.

كانت جينغ يي فتاةً مرحة وكانت في أغلب الأحيان تقترح على رفاقها في الصف نشاطات حيوية كان الجميع يستمتع بها. وفي يوم من أيام الشتاء، وبعد تساقط ثلوج كثيفة، خرج الطلاب متحمسين لصنع رجل ثلج. اقترحت جينغ يي صنع رجلي ثلج عوضاً عن واحد فقط واستعمال الزعرور المُسكّر لأنفيهما. وفي مجموعتين مختلفتين، واحدة للسيدات وأخرى للرجال، يقومون بالدور بتقبيل رَجلي الثلج وأعينهم معصوبة، والمحظوظ هو من يتمكن من أكل الزعرور المُسكّر، أما الآخرون فيأكلون كمية من الثلج.

لم يكن النقل العام أو الدراجات الهوائية أمراً شائعاً في ذلك الوقت، وكانت الطريقة الوحيدة للحصول على الزعرور المُسكّر من أجل هذه اللعبة هو السير على الأقدام في الثلج عدة ساعات إلى مركز بكين - التي كانت تُعرَفُ ببايبينغ. الطلاب الذكور، الذين كانوا يتنافسون عادةً لنيل انتباه جينغ يي، لم يتطوعوا للقيام بذلك، وانسحب عددٌ منهم إلى مسكن الطلاب بهدوء. أصيبت جينغ يي بخيبة أمل لعدم تمتّعهم بحس المرح واللهو، لكنها لم تُصرّ على اقتراحها.

في اليوم التالي تساقط المزيد من الثلج فارشاً الأرض بغطاءٍ أبيضٍ سميك، فأمضى معظم الطلاب اليوم يقرأون في الصفوف. وعند منتصف فترة الدراسة المسائية تقريباً، في ضوء المصابيح الخافت، دخل رجل مغطّى بالثلج، وسار نحو جينغ يي وببعض الجهد سحب إصبعين من زعرور بايبينغ المُسكّر من جيبه، وكانا مجمّدين في كتلة. وقبل أن يتمكن أحد من معرفة هوية رجل الثلج، استدار وغادر الغرفة.

كانت جينغ يي المندهشة قد أدركت أنه غو دا. بينما كان رفاقها المسرورون يتحدثون عن لعب لعبة رجال الثلج التي اقترحتها جينغ يي في اليوم التالي، وقفت محتارةً تنقّل نظرها بين الزعرور المُسكّر وبين الثلج المتساقط في الخارج متخيّلةً غو دا خائضاً فيه.

لم يشارك غو دا في اللعبة في اليوم التالي. وقال زملاء صفه في مسكن الطلاب إنه كان نائماً مثل الميت، أو كأنه شرب جرعةً سحرية. قلقت جينغ يي أن يكون قد مرض من الإرهاق، لكنها، في فترة الدرس المسائية ذلك اليوم، ارتاحت لرؤيته يصل ويجلس في الزاوية يقرأ كسابق عهده. بعد انتهاء فترة الدرس، في طريقها إلى الخارج توقّفت جينغ يي عنده وشكرته. ابتسم غو دا بخجل وقال: "إنه لا شيء. أنا رجل".

أثّر جواب غو دا الصريح في جينغ يي. كانت تلك المرة الأولى التي تشعر فيها بثبات وقوة الرجل؛ بدأت تشعر كأنها بطلة في كتاب وهي مستيقظة طوال الليل تفكر.

بدأت جينغ يي تراقب غو دا عن كثب. طبيعته القليلة الكلام قادتها إلى جميع أنواع الافتراضات، وكانت تفكّر باهتمام بتصرفه لوقتٍ طويل ودون انقطاع. فباستثناء الوقت الذي أحضر فيه غو دا لها الزعرور المُسكّر كان يبدو غير مهتم بها على عكس الطلاب الذكور الآخرين الذين يلاحقونها. بدأت تتمنى الحصول على بعض الاهتمام منه، وبدأت تجد الأعذار لتتكلم معه، لكنه كان يردّ عليها بهدوء دون إظهار أي مشاعر أو اهتمام معيّن لا بكلامها ولا بأسلوبها. وبدلاً من أن يجعل ذلك جينغ يي تستاء وتبتعد عنه، فإن تحفّظ غو دا رفع من آمالها، وجعلها تتأمل أكثر.

أثار اعجاب جينغ يي بغو دا غيظ الكثيرين من الذين يريدون التقدم بطلب يدها، فكانوا يهزأون من غو دا بسبب سلوكه الخشبي، أي الغبي، ناعتين إياه بالضفدع الذي يحلم بتقبيل الأميرة، ومتّهمين إياه بالتلاعب بمشاعر جينغ يي. لم يتم توجيه أياً من هذه الملاحظات إليه في حضور جينغ يي، لكن فتاةً في صف جينغ يي أخبرتها بذلك لاحقاً وقالت لها: لا بد أن غو دا مصنوع من الخشب حقاً. فقد أجابهم ببساطة: "الأشخاص المعنيون بالأمر يعرفون ما هو صائب وما هو غير صائب".

أُعجبت جينغ يي بالهدوء الذي أظهره غو دا في وجه زملائه وشعرت أن ذلك يدلّ على صفات رجل حقيقي، لكن ذلك لم يمنعها من الانزعاج من تصرف غو دا الفاتر معها لفترة طويلة.

قبل انتهاء امتحانات آخر الفصل الدراسي بقليل، غاب غو دا عن الصف مدة يومين متتاليين؛ وادّعى زملاؤه في مسكن الطلاب أنه كان نائماً. لم تصدّق جينغيي أنه كان نائماً، لكنها لم تتمكن من زيارته في مسكن الطلاب بسبب الفصل الصارم بين الجنسين. لكنها في اليوم الثالث تسللت من الصف بينما كان الآخرون مستغرقين في الدرس وذهبت إلى مسكن الطلاب حيث يوجد غو دا. فتحت الباب بهدوء ورأت غو دا نائماً، وكان وجهه شديد الاحمرار، وعندما أمسكت يده برّقة لتعيدها تحت الغطاء وجدتها حارة جداً. ورغم أنه في ذلك الوقت كان أي اتصال جسدي بين الرجال والنساء غير المتزوجين ممنوعاً، إلا أنها لمست رأس ووجه غو دا دون تردد. كانا يحترقان من الحرارة أيضاً. نادته جينغ يي بصوتٍ عال، لكن غو دا لم يُجب.

أسرعت جينغ يي عائدةً إلى الصف وهي تصرخ طالبةً المساعدة. خاف الجميع عند سماع صوتها المفزوع وانطلقوا في كل الاتجاهات يبحثون عن أستاذ مُحاضر أو طبيب. فيما بعد قال الطبيب إن غو دا كان محظوظاً لأنهم وجدوه في الوقت المناسب: نصف يوم آخر من دون عناية طبية كان سيؤدي إلى موته من داء ذات الرئة الحاد. في ذلك الحين لم تكن هناك أي مستشفيات في حرم الجامعة، ووصف الطبيب له بين عشر وعشرين جرعة من الأعشاب الطبية، وقال إن من المستحسن أن يعتني به أحد أفراد عائلته، ليضع له الكمادات الباردة ويفرك يديه ورجليه بالثلج.

لم يذكر غو دا من قبل أبداً أي عائلة أو أصدقاء له في بايبينغ، وكان بيته في جنوب الصين، لكن خط السكة الحديدية كان مقطوعاً، لذلك لم تكن هناك أي وسيلة للاتصال بعائلته. وفي كل الأحوال لم يكونوا ليتمكنوا من الحضور في الوقت المناسب للاعتناء به خلال الفترة الحرجة. عندما كان يستعد للمغادرة وجد

الطبيب نفسه أمام معضلة: لم يكن واثقاً من أن غو دا سيبقى حيّاً تحت عناية هؤلاء الأشخاص اليافعين الذين لا يتمتعون بأي خبرة. وفي خضمّ النقاش الجدّي بين الطلاب تقدّمت جينغ يي من الطبيب وقالت له بهدوء: "أنا سأعتني به، غو دا خطيبي".

كان عميد الكلية رجلاً طيباً، فتدبّر انتقال الطلاب الذين يعيشون في غرفة غو دا إلى مسكن آخر للطلاب ليتمكن من الراحة بهدوء وكي تتمكن جينغ يي من البقاء إلى جانبه. كان ممنوعاً عليها تماماً النوم في المهجع.

لأكثر من عشرة أيام ظلّت جينغ يي تضع الكمّادات الباردة على رأس غو دا، وتغسله وتُطعمه وتُعدّ له دواء الأعشاب الطبية. كان الضوء يظل مضاءً في الليل في مهجع غو دا، وكانت رائحة الأعشاب الصينية المُرّة تنبعث في الهواء مع صوت جينغ يي الخافت. كانت تغني أغنيةً صينية جنوبية تلو الأخرى، معتقدةً أن سماع ألحان من مسقط رأسه سيُنعش غو دا. كان زملاؤهما في الصف، خاصةً الفتيان، يتحسّرون على فكرة أن جينغ يي الرقيقة تعتني بغو دا بلا كلل.

تحت رعاية جينغ يي المضنية له، تعافى غو دا. وقال الطبيب إنه نجا من بين فكَّيّ الموت.

كان حبهما لبعضهما بعضاً قد ترسّخ، ولم يتمكن أحد من إنكاره بعد التضحيات التي قاما بها. ورغم ذلك ظل بعض الأشخاص يقولون سراً إن حبّ الاثنين يشبه رمي زهرة نضرة في روث البقر.

خلال الأربع سنوات التالية في الجامعة ظل جينغ يي وغو دا يدعمان بعضهما بعضاً في دراستهما وفي حياتهما اليومية، وكان كل يوم يمر دليلاً على حبهما، الذي كان أول حب لهما هما الاثنين، وكان حباً راسخاً. ولكونهما كانا متوافقين أيديولوجياً فقد انضما معاً إلى الحزب الشيوعي السرّي وحلما بحقبة وحياة جديدتين، متخيلَيْن الأطفال الذين سينجبانهم والاحتفال بذكرى زواجهما الخمسين.

تزامن تخرّجهما مع تأسيس الصين الجديدة وأكسبهما الإعلان عن موقعهما

السياسي الجديد احتراماً استثنائياً في المجتمع، وكانا يُستدعيان إلى مقابلات منفصلة مع الجيش. كلاهما درس الهندسة الميكانيكية، وكان الوطن الجديد، الذي كان لا يزال في طور الطفولة، يحتاج إلى معرفتهما من أجل الدفاع الوطني. كان زمناً مهيباً: كل شيء مشحون بإحساس بالواجب، وحصلت الأمور بشكل سريع. خبرة جينغ يي وغو دا في الحزب السري علّمتهما أنهما ملزمان بواجب أن يقبلا أي مهمة وأن ينجزاها حتى النهاية. كل شيء، بما فيه الفراق، يجب أن يُقبل دون قيدٍ أو شرط.

عيُنت جينغ يي في قاعدة عسكرية في الشمال الغربي، وغو دا في وحدة عسكرية في منشوريا. وقبل أن يفترقا وضعا خططاً لجمع شملهما في حدائق جامعة شينغوان حيث يستطيعان إنجاز مهامهما والذهاب بعد ذلك إلى مركز مدينة بكين من أجل بعض الزعرور المُسكّر. وبعد ذلك يقدّمان طلباً لتصريح بالزواج من الحزب ثم يسافران إلى منزل غو دا عند بحيرة تايهو في جنوب الصين ويستقرّان هناك لينشئا عائلة. ترسّخ هذا الاتفاق في ذهن جينغ يي بشدّة.

خلافاً كل التوقعات، حُجز كلاهما في عملهما العسكري في السنة التي تلت اندلاع الحرب الكورية. وفي السنة الثالثة من فصلهما عن بعضهما نُقلت جينغ يي لفترة مؤقتة إلى وحدة عسكرية خاصة للبحوث والتطوير في سهل الصين الرئيسي، دون أي إجازات لزيارة الأصدقاء أو العائلة. وفي سنتهما الرابعة، بعيداً عن بعضهما بعضاً، نُقل غو دا إلى قاعدة جوية في شرق الصين. العناوين المتغيرة باستمرار في علبة رسائل الحب الخاصة بجينغ يي كانت دليلاً على أن جينغ يي وغو دا كانا ضروريين لحاجات الصين الجديدة الطارئة وصناعتها الحربية.

عدم رغبتهما في الافتراق عن بعضهما كان واضحاً في رسائلهما، لكن تدبير لقاء بينهما كان يغدو أصعب فأصعب. فقد أدّى "الواجب نحو الحزب" إلى تأجيلات لا تُحصى للقاءات كانا قد خططا لها، وأدى ذلك أحياناً إلى انقطاع المراسلة بينهما أيضاً. وفي بلبلة الحركات السياسية، أواخر سنة ١٩٥٠، أُخضعت جينغ يي للتحقيق بسبب مشاكل في خلفيتها الأسرية وأُرسلت إلى شانشي الريفية من أجل "التدريب

والإصلاح". ففي ذلك الوقت، حتى مهمة بناء الدفاع الوطني البالغة الأهمية اعتُبرت ثانوية مقابل صراع الطبقات. وبذلك فقدت جينغ يي كل حرية شخصية ولم تعد قادرة على التواصل أو التحرّك كما تشاء، فكادت أن تفقد عقلها جرّاء افتقادها غو دا، لكن الفلاحين المشرفين على إصلاحها رفضوا مساعدتها. إذ لم يكونوا قادرين على مخالفة أوامر الرئيس ماو بالسماح لجينغ يي بالمغادرة: من الممكن أن تصبح جاسوسة أو أن تتصل بالثوار المعارضين. لاحقاً اقترح موظف نزيه حلاً لقضيتها: يمكنها أن تغيّر مكانتها وتحصل على حريتها بالزواج من فلاح. كان حب غو دا لا يزال عميقاً في قلبها، فوجدت جينغ يي هذه الفكرة لا تطاق.

أمضت جينغ يي تسع سنوات تقوم بالأعمال الشاقة في قرية شانشي. كان جدول القرية شريان حياتها ومكان اجتماعها غير الرسمي على حدٍّ سواء، حيث كانت تُتبادل أحاديث القرية وأخبار من خارجها. وجدت جينغ يي الجدول وسيلتها الوحيدة للتواصل مع غو دا، فكانت تجلس، كل ليلة تقريباً، عند الجدول وتعبّر بصمت عن شوقها إليه آملةً أن ينقل تدفق الماء السريع مشاعرها إلى حيث هو. لكن الجدول لم يحمل إلى جينغ يي أي أخبار من العالم البعيد.

عبر السنين، نسي القرويون تدريجياً أن هناك شيئاً مميزاً فيما يتعلق بجينغ يي؛ فقد أصبحت تشبه أي امرأة فلاحة عادية. كانت هناك صفة واحدة فقط تميزها: كانت المرأة الوحيدة في سنها التي ما زالت غير متزوجة.

في أواخر الستينيات أتى مسؤول محافظة إلى القرية ليسلّم جينغ يي أوامر حكومية لتستعد للنقل. كانت الأوامر تقضي "بتقدير الثورة والاستمرار بالإنتاج". كانت الحملة ضد السوفييت قد بدأت.

حالما عادت جينغ يي إلى قاعدتها الحربية بدأت بإنجاز أمرين:

الأول، كان يجب عليها أن تُثبت أنها لم تتغير فعلياً. فالسنوات التي أمضتها في العمل في الحقول جعلتها تتقدم في العمر وغيّرت مظهرها الخارجي بشكل كبير جداً. لم يتمكن زملاؤها من التعرف إليها في البدء، ولم يصدقوا أنها ما زالت تحتفظ

بمهاراتها السابقة. أخضعوها لامتحانات واختبارات، وجعلوها تحلل مسائل وتصف أحداثاً ماضية. وبعد مرور أسبوع توصلوا إلى أنها لم تفقد عبقريتها قط.

الثاني، والأكثر أهمية بالنسبة لجينغ يي شخصياً، هو أنها كانت تحتاج إلى الاتصال بغو دا من جديد. تأثر زملاؤها لتفانيها في حبه وقام كل واحد منهم باستقصاءته الخاصة لمساعدتها. وبعد ثلاثة أشهر من التفتيش لم يعرفوا إلا معلومات قليلة تقول إن غو دا سُجن عند بدء الثورة الثقافية بتهمة الرجعية أو المحافظة وكعميل سرّي مُشتبه به للكومينتانغ (الحزب الوطني الشعبي الصيني). كل الاستقصاءات في السجون التي من المحتمل أنه أرسل إليها أدّت إلى إجابات غير مرضية: فقد مرّ غو دا بتلك السجون كلها لكن ما من أحد يعرف أين ذهب بعد ذلك. كانت جينغ يي قد بدأت تيأس لكنها لم تستسلم، فطالما أنه لم تكن هناك أي أخبار عن وفاة غو دا، كان هناك أمل، مما منح لحياتها معنى.

في السنوات التي تلت الثروة الثقافية كانت جينغ يي أوفر حظاً من زملائها وزملاء صفها السابقين. فقد مُنحت حماية خاصة بسبب مهاراتها؛ وخبّأها قادة القاعدة الحربية بمهارة من الحرس الأحمر مرات عديدة. قدّرت الخطر العظيم الذي عرّض القادة أنفسهم له بإخفائها وساهمت بعدّة إنجازات عِلمية كبيرة لتردّ لهم الجميل.

لم تتوقف جينغ يي عن التفتيش عن غو دا أبداً. فقد زارت كل قرية وبلدة من المحتمل أنه كان فيها، حتى إنها ذهبت إلى بحيرة تايهو التي حلما بها. وبمساعدة الأصدقاء، أخذت إجازة لمدة أسبوعين وسافرت عبر محيط البحيرة تبحث عن غو دا، لكنها لم تجد له أثراً.

في سنة ١٩٨٠، بعد سياسة الإصلاح والانفتاح، كان الشعب قد استفاق أخيراً من كابوس الفوضى السياسية والاجتماعية الطويل، وكانوا يصلحون كل ما خرّبته الفوضى. كانت جينغ يي واحدة من أشخاص آخرين لا يُحصَوْن يفتشون عن عائلات أو أصدقاء مفقودين من خلال الرسائل المكالمات الهاتفية والاستقصاءات

الشخصية. وكان شغفها في البحث كثيراً ما يلقى عدم استحسان الآخرين، فغو دا كان حبيب جينغ يي وليس حبيبهم هم. كانت الثورة الثقافية قد خدّرت مشاعر الكثيرين الذين علّمتهم التجارب المُرَّة أن يضعوا الحاجات الجسدية الأساسية والسلامة السياسية في المرتبة الأولى قبل العاطفة والاستحواذ العاطفي.

عندما تلقّت جينغ يي لائحة بأسماء الأشخاص الذين سيحضرون احتفال الذكرى السنوية لجامعة تشينغوا سنة ١٩٩٤، بحثت فيها بلهفة عن اسم غو دا، لكنها لم تجده. وعندما سافرت إلى بكين من أجل الحدث أخذت معها عشرات الاستمارات لطلب المساعدة، لتوزّعها على زملاء صفهما القدامى.

في اليوم الأول من الاحتفال اجتمع أشخاص من كل أنحاء الصين في حرم جامعة تشينغوا. حيّا الأشخاص الأصغر سنّاً بعضهم بعضاً بحماسة: لم يغيرهم الزمن كثيراً بعد. أما الأكبر سناً فبدوا أكثر تردداً؛ فمعظمهم لم يتعرّفوا بعضهم إلا بعد أن دخلوا الغرفة المخصّصة لدُفعة تخرّجهم.

لم يتعرّف أحد على جينغ يي في المعمعة الأولية، وهي أيضاً لم تتمكن من التعرّف إلى أحد في البداية. قادها أحد مضيفي الجامعة إلى الغرفة المُخصصة لدُفعة تخرجها، وعندما دخلت رأت على الفور رجلاً من الخلف، لا يمكن قط أن تنسى شكله مهما غيرته مشقّات الحياة: إنه غو دا. لم تقوَ جينغ يي على الحراك، وبدأت ترتجف وتسارع نبضها وكادت أن تفقد الوعي. أسعفها المضيف الشاب ممسكاً ذراعها وسألها بقلق عن الأمر؛ وما إن كانت تعاني من مشاكل في القلب؟ لم تتمكن من الكلام – حرّكت يدها لتخبره أنها بخير مشيرةً إلى غو دا في نفس الوقت.

أجبرت نفسها على السير نحوه، لكن قلبها كان ثقيلاً وشعرت أنها بالكاد تستطيع السير. وعندما كانت على وشك أن تناديه سمعته يقول: "هذه زوجتي لين سين، ابنتي البكر نيانهوا، ابنتي الثانية جينغوا، ابنتي الثالثة ييهوا. نعم، نعم، لقد وصلنا للتو..."

جمدت جينغ يي في مكانها.

في تلك اللحظة استدار غو دا وشلّته رؤية جينغ يي عن الحركة، وفغر فاه بحماقة. سألته زوجته بقلق عن الأمر فأجاب بصوتٍ مرتجف: "هذه... هذه جينغ يي".

"جينغ يي؟ لا يمكن أن تكون..."، كانت زوجته قد سمعت الاسم.

جمد المسنّون الثلاثة في أماكنهم وظلّوا صامتين بضع لحظات بينما كانوا يحاولون التغلّب على في مشاعرهم. أخبرت زوجة غو دا جينغ يي، والدموع في عينيها، أنه لم يتزوج إلا بعد أن سمع أنها ماتت، ثم نهضت لتترك جينغ يي وغو دا وحدهما، لكن جينغ يي منعتها.

"أرجوك... أرجوك لا تذهبي. ما كان بيننا صار من الماضي، عندما كنا شابّين، لكن لديكما عائلة كاملة في الحاضر. أرجوكِ لا تؤذِ هذه العائلة؛ معرفتي بأن غو دا سعيد ستشكّل مصدر ارتياح كبير لي".

لم تعنِ جينغ يي ما قالته حقاً، لكنها تكلّمت بإخلاص.

عندما سمعت الابنة الصغرى من كانت جينغ يي، قالت: "الأحرف الأولى من اسمي واسم أختَي تؤلف الجملة "نيان جينغ يي" - إحياءً لذكرى جينغ يي. قال والدَيّ لكي نتذكرك بها. لقد سلبت الثورة الثقافية حياة الكثيرين من الناس وغيّرتها كذلك، أرجو أن تجدي في قلبك مكاناً لتسامحي والدَيّ".

شعرت جينغ يي فجأةً بالسكينة ووجدت القوة لتقف وتصافح زوجة غو دا قائلةً: "أشكرك لأنك تتذكرينني، وأشكرك على منحه عائلة سعيدة كهذه. ابتداءً من اليوم سأكون أسعد لأنني سأكون أقل قلقاً. هيا، فلندخل إلى الاجتماع معاً".

عند ذلك قام الجميع وساروا نحو قاعة المؤتمرات. وعندما جلسوا في أماكنهم المخصصة لهم انسحبت جينغ يي بهدوء وعادت إلى الفندق حيث أحرقت كل رسائل طلب المساعدة التي أحضرتها معها. ومع الورق الذي يحترق اختفى هدوءها المؤقت وآمالها التي طال انتظارها.

بعد عدة أيام، استجمعت قوّتها واتصلت بمركز عملها وطلبت إجازة لبضعة

أيام، فأخبرها زميلها أن هناك برقية من شخص يدعى غو جيان يطلب منها أن تتصل به في أسرع وقت ممكن. أدركت جينغيي، ولأسباب لا تعلمها، أن غو دا قد غيّر اسمه - لهذا السبب لم تنجح كل استقصاءاتها.

استقلّت جينغ يي القطار إلى جنوب بحيرة تايهو وقد صممت أن تجد بيتاً مثل الذي حلمت به هي وغو دا يوماً. لم تكن تملك لا القوة الكافية ولا المال الكافي لعمل ذلك، فانتقلت إلى الفندق عند البحيرة عوضاً عن ذلك. لم تشأ أن ترى أحداً، وعاشت على النودلز المنقوعة بالماء الحار وهي تمضي الأيام تفكر.

كانت جينغ يي على وشك الانتهاء من إخبار قصتها. رفعت يدها بضعف ورسمت دائرة في الهواء.

"خمسٌ وأربعون سنة من الشوق المستمر إليه جعلت دموعي تشكل بركةً من الأشواق. انتظرتُ كل يوم عند تلك البركة بثقة وحب. آمنت أن حبيبي سيخرج منها ويأخذني بين ذراعيه، لكن عندما خرج منها أخيراً كانت هناك امرأة أخرى إلى جانبه. وقع خطاهما عكّر سطح بركتي الصافي. دمّرت التموّجات انعكاسات الشمس والقمر - واختفت آمالي.

من أجل الاستمرار بالعيش كان يجب أن أتخلّص من مشاعري ومن غو دا. أملت أن تساعدني بحيرة تايهو في ذلك، لكن يصعب التخلص من خمسٍ وأربعين سنة".

أصغيتُ إلى الخواء في صوت جينغ يي المتألّم والعاجز. لن يكون أي تعاطف كافياً.

كان يجب ان أعود إلى بان بان وإلى عملي، لكني لم أشأ أن أترك جينغ يي وحدها فاتصلت بوالدي في ذلك المساء لأسأله إن كان باستطاعته هو ووالدتي القدوم إلى ووشي ليبقيا مع جينغ يي بضعة أيام. وصلا في اليوم التالي، وعندما كانت والدتي تودّعني في المستشفى قالت لي: "لا بد أن جينغ يي كانت جميلة جداً عندما كانت شابة".

بعد مرور أسبوع عاد والديّ إلى نانجينغ، وأخبرني أنه، بعد أن طلب الإذن من جينغ يي، اتصل بوحدة عملها، وكانوا يفتشون عنها فأرسلوا على الفور شخصاً إلى ووشي ليهتم بها عندما سمعوا الخبر. قال والدي إنه، ومن دون علم جينغ يي، أخبر زميلها بعضاً من قصتها على الهاتف، فانهار الرجل الرابط الجأش وقال وهو يبكي: "كلنا نعلم كم عانت جينغ يي في التفتيش عن حبها، لكن لا أحد يمكنه وصف عمق مشاعرها".

اكتشف والدي سبب تغيير غو دا لاسمه وأخبر جينغ يي بذلك. فقد كان قائد الحرس الأحمر في السجن الثاني، حيث أُرسل غو دا، يحمل نفس الاسم، لذلك أُجبر غو دا على تغيير اسمه. وغيّر الحرس الأحمر اسمه إلى غو جيان في كل الوثائق دون أي سلطة. كافح غو جيان مع السلطات المحليّة لاستعادة اسمه، لكنهم قالوا له ببساطة: "لقد حصل الكثير من الأخطاء خلال الثورة الثقافية، فمن يستطيع أن يصلحها كلها؟". فيما بعد أخبر أحدهم غو دا أن جينغ يي، التي فتش عنها سنوات، ماتت منذ عشرين سنة في حادث سيارة، لذلك قرر أن يدع الاسم غو دا يموت أيضاً.

قالت جينغ يي إن النساء مثل الماء والرجال مثل الجبال - هل كان ذلك التشبيه صحيحاً؟ طرحتُ هذا السؤال على مستمعيّ، وتلقّيت مئتي ردّ تقريباً خلال أسبوع، عشرة منها كانت من زملائي. كتب بيغ لي: "الرجال الصينيون يحتاجون النساء من أجل بناء صور لذواتهم - مثلما تنعكس صورة الجبال في الجداول. لكن الجداول تتدفق من الجبال. أين هي إذاً الصورة الحقيقية؟".

مكتبة
t.me/soramnqraa

١١

ابنة جنرال الكومينتانغ

كانت المواضيع التي أناقشها في برنامجي تثير أحياناً جدلاً واسعاً بين مستمعيّ، ولدهشتي، كنت غالباً ما أجدُ أن زملائي يريدون متابعة النقاش في اليوم التالي. في صباح أحد الأيام، بعد أن قدّمتُ برنامجاً عن موضوع الإعاقة، الذي أثار بصورة خاصة عدة أراء مختلفة، وجدتُ نفسي في المصعد مع العجوز وو، رئيس الإدارة. وعندما أصدر المصعد صريراً ثم اهتز منطلقاً إلى الطابق السادس عشر، انتهز الفرصة ليكّلمني عن برنامج ليلة أمس. كان مستمعاً دائماً لبرنامجي وكان يتلهّف دائماً لتبادل وجهات نظره وأفكاره معي. أثّر بي اهتمامه. كانت السياسة قد أضعفت الحماسة للحياة في الصين لدرجة أنه أصبح من النادر جداً أن نجد رجالاً متوسطي العمر، مثل وو العجوز، لا يزالون يهتمون لبعض الأمور. كما أنه كان غير عادي بالنسبة للأشخاص الذين يعملون في الإعلام أن يشاهدوا، أو يستمعوا إلى أو يقرأوا، الوسط الذي يعملون فيه: كانوا يعلمون أنه، بكل بساطة، ليس سوى ناطق باسم الحزب.

قال وو العجوز: "أعتقد أن ما ناقشته ليلة أمس في برنامجك كان مثيراً جداً للاهتمام. واتفق المتصلون بك كلهم على ضرورة التعاطف مع الأشخاص المصابين بإعاقة وأن نتفهّمهم. التعاطف سهل، لكني أعتقد أن التفهم ليس بتلك السهولة. كم من الناس يمكنهم التخلّي عن عقلية أجسادهم السليمة وأن يفهموا الأشخاص

المعوّقين بحسب شروطهم هم؟ ويجب تمييز خبرات الأشخاص الذين ولدوا معاقين وبين الأشخاص الذين أصيبوا بإعاقة فيما بعد خلال حياتهم. بالطبع... ماذا هناك؟ هل الزر الأحمر مضاء؟".

اهتز المصعد ثم توقّف وأضاء ضوء الإنذار، لكن لم يشعر أحد بالذعر، فقد كان المصعد يتعطّل كل يوم. لحسن الحظ أن المصعد قد توقف عند أحد الطوابق بدلاً من أن يتوقف بين الطوابق، وسرعان ما فتح المصلّح، وهو من أكثر الأشخاص شعبيةً في المبنى، الباب. وبينما كان وو العجوز يخرج من المصعد قال لي شيئاً أخيراً وكأنه كان يُصدر أمراً: "شينران، جدي بعض الوقت للتحدث إلي قريباً. لا تفكري بمستمعيك فقط، هل سمعتني؟".

أجبتُ بصوتٍ مرتفع بينما كان وو العجوز يبتعد: "نعم، سمعتك!".

أوقفني أحد المشرفين على البرامج في الممر قائلاً: "هل سمعتِ، إذاً، يا شينران؟".

قلتُ: "سمعتُ ماذا؟ كنتُ أكلّم المدير وو".

"ظننتُ أنك سمعتِ عن الجدال الذي حصل في قسم الإنتاج حول برنامجك أمس".

لأني أعلم كم يمكن أن تكون ألسنة زملائي لاذعة، أجبت بطريقة دفاعية: "ما الذي كانوا يتجادلون بشأنه؟ الموضوع؟ شيء قاله المتّصلون؟ هل كان شيئاً قلتُه أنا؟".

أجاب المُشرف على البرامج باستخفاف وهو يبتعد ودون أن يلقي نظرة واحدة إلى الوراء: "كانوا يتجادلون حول إذا ما كان من المحزن أكثر أن يولد المرء معوّقاً أم أن يصبح معوّقاً فيما بعد".

في ذلك الصباح بدا أن قسم الإنتاج قد أعاد إحياء جدال أمس. وعندما دخلت المكتب كان سبعة أو ثمانية أشخاص مستغرقين في نقاشٍ حاد؛ وقد انضمّ إليهم اثنان من التقنيين. لقد مسّهم الموضوع جميعاً: كان البعض منهم قد تورّد حماسةً، آخرون كانوا يحرّكون أيديهم أو يدّقون على طاولات مكاتبهم بأقلامهم.

خفتُ أن أُجرّ إلى النقاش الحامي، وقد اختبرتُ صعوبات التكلم عن موضوع

الإعاقة مع مستمعيّ الذين أبقوني في الإذاعة لوقت طويل بعد انتهاء البث؛ حيث عدت إلى المنزل الساعة الثالثة فجراً. اغترفت الرسائل التي أتيت من أجلها بهدوء وخفّة شديدة وأسرعت في الخروج.

ما إن وصلتُ إلى الباب حتى ناداني تشين العجوز قائلاً: "لا تذهبي يا شينران! فأنت من أشعل هذه النار، وأنت من يجب أن يُطفئها".

تمتمتُ معتذرةً: "سأعود، يريد المدير رؤيتي لبعض الوقت" وركضتُ لأختبئ في مكتب رئيس الإذاعة، فوجدته في انتظاري.

هتف قائلاً: "لقد كنتُ أتكلم عنك".

توتّرتُ إذ توقّعتُ أمراً سيئاً.

"هذه نسخة عن سجل الاتصالات الواردة. أعتقد أن هناك احتمال لمقابلة مهمة جداً فيه. ألقي نظرة وجهّزي بعض الأفكار من أجل بعد ظهر هذا اليوم"، قال ذلك بصورة قاطعة.

كان سجل الهاتف يحتوي على رسالة لي تخبرني أن هناك رسالة لي في سجّل الهاتف: ابنة جنرال من "الكومينتانغ موجودة في مستشفى للأمراض العقلية" وأنّ علي أن أتّصل بطبيب يدعى الدكتور لي. لم تكن هناك تفاصيل تدّل على قصة جيدة، لكني كنت أعلم كم كان رئيس المحطّة حاذقاً وثاقب الرأي؛ فإن قال إن هناك دليلاً فإنه على الأرجح على حق. كان يتمتع ببراعة وقدرة على رؤية أوسع للأمور، أمور تستحق أن تكون قضايا إخبارية وراء أخرى صغيرة. لطالما اعتقدت أنه كان ليحقق نجاحاً مهنياً باهراً في بيئة صحفية حرّة.

اتّصلتُ بالدكتور لي الذي اختصر الموضوع قائلاً: "هذه المرأة هي ابنة جنرال من الكومينتانغ، إنها متخلّفة عقليّاً لكنها لم تولد هكذا. يقولون إنها ربحت جائزة على مستوى المقاطعة عن فئة الكتابة السهلة عندما كانت صغيرة في جيانغسو، أما الآن..."، توقف عن الكلام فجأةً، "أنا آسف، هل يمكنني التكلم معك شخصياً وليس على الهاتف؟".

وافقتُ على الفور واتفقنا على أن أزور المستشفى الساعة الواحدة والنصف في نفس اليوم.

بعد أن تبادلنا التحية أخذني الدكتور لي لرؤية المرأة. عندما دخلنا الغرفة البيضاء الهادئة التفت نحونا وجهٌ شاحب وخالٍ من أي تعبير.

قال الدكتور لي: "شيلين، هذه شينران. لقد أتت لزيارتك".

كانت شيلين صامتة وظلّ وجهها خالياً من التعابير.

استدار الدكتور لي نحوي قائلاً: "إنها لا تقوم بأي ردّ فعل، لكنني أعتقد أنّ علينا، مع ذلك، أن نعاملها باحترام. هي لم تولد متخلّفة عقلياً، بل كانت فيما مضى تفهم المشاعر الطبيعية والحوار"، ثم نظر إلى ساعته أضاف: "البارحة سمع بعضٌ من أفراد عائلة شيلين برنامجك وطلب مني واحد منهم أن أحدد موعداً معك. أنا خلال مناوبتي الآن ويجب أن أذهب، لكن أرجو منك الانتظار هنا لبعض الوقت. لن يتأخر أقرباء شيلين في الوصول".

لم يسبق لي أن تواجدتُ بمفردي مع شخص متخلّف عقلياً من قبل. حاولت التكلم مع شيلين؛ بدت أنها تسمعني أتكلم لكنها لم تقم بأي رد فعل، بل ظلّت ساكنة تماماً ولم تهتم لما كنت أقوم به.

كانت شيلن جميلة جداً. قدّرتُ أنها كانت في الأربعين من العمر، لكن الطبقة الرقيقة حول عينيها كانت ملساء وخالية من التجعّدات. كانت ملامحها عادية ومتناسقة وأنفها المستقيم يجذب الانتباه إلى عينيها الطويلتين الضيقتين اللتين ترتفعان نحو الأعلى قليلاً عند الزوايا، وكأنها على وشك الابتسام. شفتاها رقيقتان مثل شفاه تلك النساء الموجودات في اللوحات الصينية القديمة.

قبل أن أنتهي من رسمي التخطيطي لها، وصل أقرباء شيلين: خالتها وابنة خالتها - أم وابنتها. كانت خالة شيلين، وانغ يوي، امرأة فصيحة تتحرك وتتصرف بلباقة وأدب كبيرين. أما ابنة خالتها، وانغ يو، فكانت في الثلاثينات من عمرها وتعمل محاسبة لصالح ناشر مجلة.

قالت وانغ يوي إن العائلة أدارت الراديو في الليلة الماضية قبل الذهاب إلى النوم، وأخبرتني أنهم يستمعون إلى برنامجي كل ليلة لأنه يساعدهم على النوم. تساءلتُ بيني وبين نفسي عمّا إذا كان برنامجي تافه ومملّ إلى هذا الحدّ، ولم أعرف إن كان علي أن أنزعج أم أضحك.

لاحظت ابنة وانغ يوي النظرة الغامضة على وجهي فلكزت أمها بمرفقها لتنبّهها لكن وانغ يوي تجاهلتها. أخبرتني أن اتصالات الليلة الفائتة، التي وردت من الأشخاص الذين يعتقدون أنه أكثر مأساويةً أن يولد المرء متخلّفاً عقلياً من أن يصبح كذلك فيما بعد، ساهمت في إثارة مشاعرهم واضطرابهم. فقد كانت عائلة شيلين تعارض ذلك الرأي تماماً، وشعرت بالكثير من العداء نحو أولئك المتّصلين الذين هم مخطئون تماماً.

كانت وانغ يوي تتكلم بشغف. هل يتمكن الناس من نسيان ألم فقدان شيء كانوا يملكونه من قبل؟ بالطبع، الأمر المأساوي أكثر هو أن يملك الشخص المعرفة والفهم مرة ثم يفقدهما بصورة نهائية ولا يعود من بعدها يعرف أي شيء أبداً. قالت وانغ يوي إن هذه المسألة أزعجت العائلة جداً لدرجة أن أحداً منهم لم يتمكن من النوم ليلة البارحة فقرروا أن يثبتوا قضيتهم بإخباري عن حياة شيلين. بقي وجه شيلين خالياً من أي تعابير بينما كانت وانغ يويه تروي قصتها.

كانت شيلين ابنة جنرال في الكومينتانغ (الحزب الوطني الشعبي الصيني)، الصغرى في عائلتها. وعلى عكس أختيها وأخيها الأكبر منها سناً، نمت شيلين محميّةً ومدلّلة. عندما اندلعت الحرب الأهلية في الصين سنة ١٩٤٥ رُفّع والدها إلى رتبة جنرال في جيش تشانغ كاي شيك. وعلى عكس الشيوعيين، كان الكومينتانغ قد خسروا دعم الفلاحين، وكان ذلك كارثة لأن الفلاحين كانوا يشكّلون أكثر من ٩٨٪ من السكان. رغم أن البريطانيين والولايات المتّحدة الأميركية كانوا يزوّدونهم بالأسلحة، إلا أن الحالة تدهورت بسرعة بالنسبة للكومينتانغ وسرعان ما هُزم جيش تشانغ كاي شيك الذي كان عديده بضعة ملايين ودُحر إلى تايوان من قبل الشيوعيين. تمكن

الكومينتانغ من الهروب باتجاه الشرق، لكن لم يتمكن العديد من قادتهم أن يتدبّروا تهريب عائلاتهم في الوقت المناسب، وكانت عائلة شيلين واحدة من تلك العائلات.

في ربيع سنة ١٩٤٩ كانت شيلين في السابعة وكانت تعيش مع جدّتها في بايبينغ منذ سنتين. كانت تستعد للعودة إلى منزل والديها في نانجينغ لارتياد المدرسة هناك. بعثت والدتها برسالة لتقول إن والد شيلين ذاهب في حملة ولذلك عليها أن تبقى في نانجينغ لتعتني بالأولاد الباقين وأنها غير قادرة على السفر إلى بايبينغ لإحضار شيلين. كانت جدّتها ضعيفة وصحتها سيئة ولا يمكنها السفر، فاتفقوا على أن تصطحبها عمتّها الشابة وانغ يوي إلى نانجينغ.

حدث ذلك خلال الوقت التي كانت فيه المعارك بين الكومينتانغ والشيوعيين حاسمة. عندما وصلت وانغ يوي وشيلين إلى ضفة نهر يانغتسي كانت خدمة العبّارات، وسيلة النقل الوحيدة بين الشمال والجنوب، قد أُغلقت جزئياً، وتكدّست كميات كبيرة من البضائع على الضفتين.

خلال انتظارهما سمعتا عن قرب حدوث معركة في نانجينغ؛ وكان جيش التحرير الشعبي على وشك عبور النهر. رغم ذلك لم يكن باستطاعتهما عمل شيء سوى متابعة الرحلة إلى نانجينغ. عندما وصلتا إلى المدينة، مع جماهير كثيرة من الناس، وجدوا علماً أحمر يرفرف خارج منزل شيلين؛ كان حشد من جنود جيش التحرير الشعبي قد انتقل إليه.

لم تتوقّف وانغ يوي أمام المنزل بل أسرعت الخطى هي وشيلين مكملتين طريقهما، وراحت تسأل في المحال والمقاهي المجاورة عن أخبار عائلة شيلين. كان بعضهم قد رأى سيارت العائلة تُحمّل بالصناديق وترحل، وسمعوا أيضاً أن العائلة صرفت العديد من خدمها. بعضهم الآخر سمع أن العائلة بأكملها اختفت دون أي أثر في اليوم الذي سبق عبور الشيوعيين نهر يانغتسي. لم يتمكن أحد من إعطائهما معلومات محدّدة، لكن بدا أن عائلة شيلين هربت إلى تايوان من دونها.

بعد ذلك بفترة قصيرة تلقّت وانغ يوي خبر وفاة والدتها التي ماتت بينما كان الشيوعيون يفتّشون منزلها في بايبينغ - التي بدّلت الحكومة الجديدة اسمها إلى بكين - بسبب صلة قرابتها بوالد شيلين. كانت العودة إلى بايبينغ الآن مستحيلة، ولم تعد وانغ يوي تدري ماذا تفعل، فأخذت شيلين ونزلتا في نُزُلٍ صغير في نانجينغ. وفي أحد الأيام قال لها صاحب النزل الطيب القلب: "ألم تقولي إنك تعرفين القراءة والكتابة؟ إن الحكومة توظّف الآن معلمين للمدارس الجديدة... يجب أن تقدمي طلب عمل". لم تصدّقه وانغ يوي تماماً، لكنها مع ذلك قدّمت طلباً وقُبلت كمدرّسة.

رغم أن وانغ يوي كانت في العشرين من عمرها فقط - أي أكبر من شيلين بثلاثة عشر عاماً فقط - فقد طلبت من شيلين أن تناديها 'أمي' لكي تخفيا هويتيهما. كأم وابنتها خُصّصت لهما غرفة من قبل المدرسة التي تديرها الحكومة الجديدة التي ساعدتهما أيضاً في الحصول على بعض الأغراض للمنزل. كما أنه تم قبول شيلين في المدرسة كتلميذة.

كانت وانغ يوي تتبرّج وتسرّح شعرها بطريقة تجعلها تبدو في سنٍّ مناسبة لتكون والدة شيلين، وكانت تذكّر شيلين كل يوم بعدم ذكر اسم والديها أو أي شيء عن منزلها القديم مهما كانت الظروف. ورغم أن شيلين قد حفظت جيداً تنبيهات وانغ يوي لكنها لم تدرك تماماً معنى "يمكن أي شيء يسقط سهواً فيورطنا في مشاكل كبيرة". يحب الأولاد أن يتباهوا أمام بعضهم بعضاً؛ ومرةً، عندما كانوا يلعبون لعبة 'الجاكس' مستخدمين أكياس قماش صغيرة، أخبرت شيلين زملاءها في الصف أن الأكياس التي كان والدها يقدّمها لها لتلعب بها 'الجاكس' كانت مزيّنة بالمجوهرات. ذكر أحد زملائها هذا الأمر في البيت فانتشر الخبر بين الراشدين.

في ذلك الحين كان الجميع يسعى للحصول على مكاسب سياسية لتعزيز مواقعهم في النظام الشيوعي الجديد. ولم يمضِ وقت طويل حتى أبلغ أحد مسؤولي حامية الجيش المحلية وانغ يوي بأن عليها تقديم إفادة كاملة عن زوجها الراحل، والد شيلين.

في إحدى الليالي جاءت مديرة مدرسة وانغ يوي راكضة إلى غرفتهما وهي مضطربة وقالت: "يجب أن تهربا الآن، سيقومون باعتقالكما. اهربا إلى أبعد ما يمكنكما. لا تعودا إلى نانجينغ مهما حدث. يقولون إن شيلين هي ابنة جنرال الكومينتانغ، وأنكِ اقترفت جريمة إيواء واحدة من المقاومين ضد الثورة. لا أريد أن أسمع أي شرح، ففي هذه الأيام، كلما كان الشخص يعرف أقل كان ذلك أفضل. اذهبا الآن! لا توضّبي أي أمتعة، فمن المحتمل أن يحاصروا ضفة النهر في أي لحظة. هيا أسرعا! إن احتجتما أي شيء في المستقبل تعاليا وابحثا عني. يجب أن أذهب. إذا قبض علي جيش التحرير الشعبي فستدفع عائلتي كلها الثمن".

أمسكت وانغ يوي، التي كانت على شفير البكاء قلقاً وخوفاً، شيلين شبه النائمة من يدها وخرجت من نانجينغ. لم تكن وانغ يوي تعرف إلى أين تذهب، لكن لم تكن هناك إمكانية لطلب المساعدة من أي أحد. لم تجرؤ على تخيّل ماذا يمكن أن يحصل لهما إذا قُبض عليهما. سارتا مدة ثلاث ساعات تقريباً؛ كان الفجر قد بدأ ينبلج لكن لم يبدُ أنهما خرجتا من نانجينغ بعد. وعندما لم تعد شيلين قادرة على السير أكثر من ذلك سحبتها وانغ يوي إلى داخل بعض الشجيرات على جانب الطريق وجلستا. كانت الأرض رطبة من الندى وكانتا تعبتين وجائعتين، لكن شيلين كانت منهكة لدرجة أنها مالت على خالتها ونامت على الفور. أخذت وانغ يوي، المرهقة والخائفة، تبكي إلى أن غفت هي أيضاً.

بعد فترة قصيرة استفاقت وانغ يوي على أصوات. كان زوجان متوسطا العمر وشابٌ طويل القامة يقفون بالقرب منهما وقد بدا عليهم القلق.

"لماذا أنتما نائمتان هنا؟"، سألت المرأة المتوسطة العمر، "الطقس بارد ورطب. انهضا حالاً وجِدا منزلاً أو أي مكان آخر تنامان فيه وإلا ستمرضان".

أجابت وانغ يوي: "شكراً لك، لكن، أنا، نحن، لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هنا... الطفلة مرهقة جداً".

سألت المرأة وهي تشير إلى الشاب بحمل شيلين: "إلى أين تذهبان؟".

"لا أدري. أريد فقط الابتعاد عن نانجينغ قدر الإمكان"، لم تعرف وانغ يوي ماذا يجب أن تقول.

"تهربين من زواج إجباري، أليس كذلك؟ آه، إن ذلك صعب حين تكون معك طفلة"، قالت المرأة بلطف. "انتظري لحظة، سأكلّم زوجي لنرى إن كان باستطاعتنا إيجاد حلٍّ ما. هذا ابني غوواي وهذا زوجي".

بدا الرجل المتوسط العمر الذي يقف جانباً لطيفاً ومجتهداً. كان يتكلم بسرعة لكن بدفء. "لا داعي للشرح أو للتكلم عن الأمر، فكلنا في عجلة من أمرنا، تعاليا معنا، فالسفر في مجموعة أسهل. بالإضافة إلى ذلك، كيف يمكننا أن نترك أرملة ويتيمة مثلك؟ هيا، دعيني أحمل حزمة أغراضك. يستطيع غوواي أن يهتم بالفتاة الصغيرة. تينغ، ساعديها على النهوض".

في الطريق، علمت وانغ يوي أن الرجل يدعى وانغ ديو وأنه كان مدير مدرسة في نانجينغ، وأن زوجته، ليو تينغ، تلّقت تعليمها في مدرسة تقدّمية للبنات، لذلك كانت تساعد زوجها في التعليم ومراجعة الحسابات في مدرسته. كان وانغ ديو في الأصل من يانغتشو حيث علّم أجداده الأدب الكونفوشيوسي في أكاديمية خاصة.

كانت المدرسة قد أُغلقت خلال الحروب العديدة والفوضى العامة في العقدين المنصرمين وتحوّلت إلى مسكن للعائلة، وعندما تزوّج وانغ ديو انتقلت مهنة العائلة والمنزل إليه. أراد أن ينشىء مدرسة لكنه وجد صعوبة في تحقيق خططه في بلدة يانغتشو الصغيرة. ولأنه أراد لابنه الوحيد أن يحصل على تعليم جيد فقد انتقل هو وعائلته إلى نانجينغ حيث أقاموا مدة عشر سنوات.

في زمن الاضطرابات واجه وانغ ديو صعوبات في إنشاء مدرسة في نانجينغ، وفكّر مراراً في العودة إلى يانغتشو ليكتب بسلام، لكن ليو تينغ، التي أرادت أن يكمل ابنها غوواي تعليمه العالي في نانجينغ، كانت دائماً تقنعه بالبقاء. الآن بعد أن أنهى غوواي مدرسته الثانوية، كانوا عائدين إلى يانغتشو.

في المقابل، لم تجرؤ وانغ يوي أن تخبرهم بالحقيقة، لكنها تكلمت بغموض

عن سرٍّ كان من الصعب التكلم عنه. وفي ذلك الوقت كان الأشخاص المثقفون يعلمون أن تلك المعرفة تشكّل خطراً. فبعد سقوط إمبراطورية تشينغ سقطت الصين في فترة طويلة من الفوضى والحكم الإقطاعي، وكانت الفوضى أسوأ خلال الخمس والأربعين سنة التي سبقت الحكومة الشيوعية الجديدة: كانت الحكومات والإمبراطوريات تتبدّل كل يوم. لم يكن أحد يعلم قوانين الجمهورية الجديدة بعد، لذلك جرى القول المأثور: "الزم الصمت بما يخصّ أمور الدولة، تكلم قليلاً عن الأمور العائلية: شيء واحد أقل أفضل من شيء واحد أكثر". لم تصرّ عائلة وانغ على وانغ يوي للإفصاح عن تفاصيل أكثر.

كانت يانغتشو عبارة عن بلدة صغيرة رائعة تقع على ضفة النهر بالقرب من نانجينغ، وكانت مشهورة في كل أنحاء الصين بصنع زلابية الخضار على البخار واللّفت المجفّف وشرائح التوفو المحلاّة بالزنجبيل. وكانت فتيات يانغتشو معروفات ببشرتهن وجمالهن. جذب موقع يانغتشو الريفي وخلفيته من الجبال والماء العديد من المثقّفين ومن أعضاء الحكومة إليها. ماي لانفانغ، سيد أوبرا بكين، والشاعر المعروف، من مدرسة القمر الجديد New Moon School، هشو تشيمو، كلاهما من يانغتشو، وكذلك جيانغ زيمين رئيس الصين الحالي.

كان منزل وانغ ديو وليو تينغ منزلاً تقليدياً مع فناء في ضاحية يانغتشو الغربية عند بحيرة شاو شي. وقد حوّلتها قرون من تنظيف قاع البحيرة ومن زرع الحدائق والأحراش إلى واحدة من أجمل البحيرات في الصين.

خلال غيابهم، كان زوجان عجوزان يعتنيان بالمنزل، لذلك فقد كان نظيفاً ومرتّباً. ورغم أن كل شيء في البيت كان قديماً، فقد كان هناك جو علمي ممتع يحيط به. بعد فترة قصيرة من وصولهم إلى يانغتشو أصيبت وانغ يوي وشيلين بالحمّى. قلقت ليو تينغ كثيراً وأسرعت لاستدعاء طبيب الأعشاب الصينية، الذي شخّص الداء بأنه صدمة وحمى نتيجة الإرهاق، ووصف لهما بعض علاجات الأعشاب، فكانت ليو تينغ تنقعها لهما لتشرباها.

استعادت وانغ يوي وشيلين عافيتهما بعد أسبوع أو أسبوعين، لكن شيلين لم تعد كما كانت في السابق حيوية وكانت تختبئ خلف الأشخاص الراشدين عندما كانت تأخذها عائلة وانغ لترى أولاد الجيران. ظنّت وانغ يوي أن شيلين كانت لا تزال تعاني من الآثار الناتجة عن هروبهما من نانجينغ، وأنها سرعان ما ستُشفى.

وبعد فترة وجيزة قالت ليو تينغ لوانغ يوي: "يقول زوجي إنك جيدة في الكتابة. إذا شئتِ يمكنك البقاء معنا ومساعدتنا في بعض الأعمال المكتبية. يمكنك مناداتنا بـ'العم' و'العمة'، وغوواي بـ'الأخ الأكبر'. سنساعدك أيضاً في الاعتناء بشيلين".

شعرت وانغ يوي بامتنان عظيم وقبلت على الفور.

كان المناخ السياسي في يانغتشو في الخمسينيات أقل اضطراباً من البلدات الكبرى، فالناس في يانغتشو لم يكونوا مولعين بالسياسة، وكان التقليد الثقافي هناك بالنسبة للجميع هو العيش والعمل بسلام. ساعدت طيبة وصدق عائلة وانغ وانغ يوي على نسيان الرعب وعدم الأمان اللذين تخللا الأشهر القليلة الماضية.

بدأ غوواي بالتدريس في مدرسة ابتدائية بُنيت حديثاً وكان يأخذ شيلين معه كل يوم. ومع أترابها أصبحت شيلين تدريجياً أقل انطواءً على ذاتها وبدأت تعود إلى طبيعتها السابقة.

أحبّ غوواي عمله لأن جو المدرسة كان حيوياً وخلاّقاً، ولم تكن المدرسة تميّز بين فقير وغني. وقد كافأت المدرسة التزام غوواي وإخلاصه فدبّرت له المشاركة في نشاطات لاصفية عديدة. وعندما كان غوواي يتكلم بحماسة عن عمله في المنزل كان والداه يحذّرانه غالباً وينصحانه بالاحتراس. كانت وانغ يوي مستمعة مخلصة وشديدة الحماسة، وكانت تُظهر الاهتمام والتفهّم لحماسة وشغف غوواي. وقع الاثنان في الحب وأعلنا خطوبتهما خلال السنة الثالثة من وجود وانغ يوي في يانغتشو.

أخبرت وانغ يوي عائلة وانغ بحقيقة أمرها هي وشيلين يوم الخطوبة، وبينما كانت ليو تينغ تستمع أمسكت يد وانغ يوي وراحت تكرر: "لقد قاسيت الكثير، لقد قاسيت الكثير".

قال وانغ ديو: "إن شيلين هي ابنة أختك، وهي ابنتنا نحن أيضاً. ابتداءً من الغد أنت ابنة عائلة وانغ، لذلك فشيلين هي حفيدة عائلة وانغ".

كانت شيلين بالفعل تنادي وانغ ديو وليو تينغ 'جدي' و'جدتي' ووانغ 'أمي'، لكن لم يكن سهل عليها أن تنادي غوواي 'أبي'. كان عمرها عشر سنوات الآن وكان صعباً جداً بالنسبة لها أن تغيّر طريقتها في التوجه إلى غوواي أمام رفاق صفّها. لكنها في حفلة زفاف وانغ يوي وغوواي نادت غوواي "بابا" دون تحفيز من أي أحد. فرح غوواي وتفاجأ لدرجة أنه أخذها بين ذراعيه وحضنها بقوّة إلى أن صرخت ليو تينغ: "ضعها أرضاً، ستؤذيها".

كانت شيلين ذكية ومجتهدة وكانت تتلقى الإرشاد من أفراد عائلتها الذين كانوا كلهم معلّمين. تفوّقت في المدرسة وتخطّت صفاً، منتقلةً من السنة الثالثة إلى السنة الخامسة. وعندما بلغت الصف السادس مثّلت شيلين المدرسة في مسابقة شمال جيانغسو الإقليمية في الإنشاء وفازت بالجائزة الأولى، ثم فازت بالميدالية البرونزية في مسابقة إنشاء على مستوى مقاطعة جيانغسو بأكملها. كانا وانغ يوي وغوواي في غاية السرور لسماع الخبر فأخذا، في خضم حماستهما، يحضنان شيلين غير مهتمين لبكاء طفلتهما الأولى. كان جميع من في العائلة فخوراً جداً وهنّأهم جيرانهم على ذكاء وتألق شيلين.

في اليوم التالي، بينما كان غوواي يكتب بعض الأبيات الشعرية على ورقة حظ حمراء ليعرضها في يوم الطفل العالمي في الأول من شهر حزيران/يونيو، اندفعت فتاة نحوه وهي تلهث:

"أستاذ غوواي، تعال بسرعة. الفتيان ينعتون شيلين بأسماء سيئة وهي تتشاجر معهم. إنها مرهقة، لكننا نحن الفتيات لا نجرؤ على مساعدتها. قال الفتيان إنهم سيضربون أي أحد يحاول ذلك!".

وهو يسرع نحو ملعب المدرسة الرياضي الصغير سمع الفتيان يصيحون في وجه شيلين قائلين:

"أيتها الخبيثة!".

"الطفلة ابنة زنا!".

"أولاد الزنا دائماً أذكياء!".

"اسألي أمك من يكون والدك. هل كان سكّيراً وجدتْه في خندق؟".

اندفع غوواي نحو الفتية المحيطين بشيلين وأبعدهم بقبضتيه، ثم أخذ شيلين بين ذراعيه وقال مزمجراً: "من يقول إن شيلين ليس لديها والد؟ إذا تجرّأ أحد على قول أي كلمة أخرى فلن يتمكن من فتح فمه بعد أن أكون قد انتهيت من ضربه! وإن كنتم لا تصدّقونني، حاولوا وسترون!".

فرّ المتنمّرون مذعورين في ومضة عين. كانت شيلين ترتجف بين ذراعي غوواي وقد ابيضّ لونها كورقة، وكان العرق بتصبب من جبينها والدم ينزّ من شفتها جرّاء عضّها عليها.

في المنزل، ارتفعت حرارتها جداً وكانت تهمس مكررةً: "أنا لستُ ابنة زنا، لدي أم وأب". سهرت ليو تينغ ووانغ يوي عليها.

أخبر الطبيب العائلة أن شيلين كانت تعاني من صدمة: كان قلبها يدقّ بعدم انتظام، وقال إن لم تهبط حرارتها في أسرع وقت ممكن فمن المحتمل أن تصبح مضطّربة عقلياً، وتساءل عن كيفية تلّقي فتاة في الثانية عشرة من العمر صدمةً قويةً كهذه.

قال وانغ ديو بشراسة: "هذا البلد يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. كيف يمكن لأولاد صغار أن يفعلوا أمراً مماثلاً. ما فعلوه بها هو جريمة من كل النواحي".

ظلّ غوواي يعتذر للعائلة مطوّلاً لإهماله الاعتناء بشيلين، لكن الجميع كان يعلم أنها لم تكن غلطته. فيما بعد، اكتشف غوواي كيف بدأت الحادثة في ملعب الرياضة. فقد أراد أحد الفتيان الأكبر سناً أن يعانق شيلين، لكنها صدّته وطلبت منه أن يتصرف بتهذيب، فشعر بالغضب والخجل وأشار نحو شيلين وصرخ: "من تعتقدين نفسك؟ من هو أبوك؟ ليس هناك أدنى شبه بينك وبين غوواي. اذهبي

إلى المنزل واسألي أمك عن الذي مارست الجنس معه لتنجب ابنة زنا مثلك! توقفي عن الادّعاء بأنك محترمة وخجولة ومحتشمة!" ثم أمر بقية الفتيان الأصغر سناً الواقفين هناك لينضموا إليه بنعت شيلين بصفات مشينة مهدداً بضرب كل من لا يطيعه. شحب لون غوواي عند سماعه كل ذلك، ودون أي تفكير بمكانته كأستاذ أو بالنتائج راح يبحث عن المتنمّر، وعندما وجده ضربه ضرباً مبرحاً.

تعافت شيلين لكنها أصبحت قليلة الكلام، وصارت نادراً ما تخرج من المنزل، وغالباً ما تبقى في البيت لوحدها. كانت امتحانات الدخول إلى المدرسة التكميلية تقترب، فاعتقد الجميع أنها تدرس وأنها لا تريد أن يزعجها أحد. كانت وانغ يوي الوحيدة التي ظلّت تشعر بالقلق، فقد شعرت أن هناك أمر غير طبيعي في شيلين، لكنها لم تجرؤ على التكلم مع أحد عن افتراضاتها، حتى لا تُقلق العائلة. كانت الحركات السياسية، مثل الحركة المناهضة لليمين، قد بدأت تنتشر في يانغتشو، ورأى الكثير من الناس الجهلة وغير المتعلّمين أنه الوقت المناسب ليقلّصوا الفارق بين المُلكيّات بالإغارة على منازل الأغنياء واقتسام الغنائم، وهي عادة كانت تُمارس منذ عهد إمبراطورية مينغ، فبدأوا يسجّلون لوائح بالمنازل الثرية ويخططون لإثارة المتاعب تحت شعار الثورة. لم تنطبق على عائلة وانغ أيٌّ من الصفتين، إذ لم يكونوا أثرياء ولم يكونوا من الناس العاديين، لذلك لم يتمكنوا من توقّع متى قد يتمّ تصنيفهم من قبل أحد الحاقدين عليهم على أنها عائلة ثرية.

لم يكن أداء شيلين في امتحان دخول المدرسة التكميلية باهراً كما توقّعت قبل حادثة الملعب الرياضي، لكن نتائجها كانت لا تزال جيدة كفايةً بحيث تمكّنها من الالتحاق بإحدى أفضل المدارس.

لم تكن المدرسة التي اختارتها بعيدة عن المنزل، مما طمأن وانغ يوي.

بقيت شيلين صامتة ومنعزلة في المدرسة، لكنها كانت تصبح كثيرة الكلام في المنزل. بدأت تسأل وانغ ديو عن أسباب حدوث الحركات السياسية في الصين وحول العداء بين الكومينتانغ والحزب الشيوعي، وكانت أحياناً كثيرة تسأل وانغ

يوي عن والديها، لكن لم تكن وانغ يوي تعلم الكثير عن أختها بسبب فارق السن بينهما. كانت وانغ يوي صغيرة جداً عندما تركت أختها المنزل لتذهب إلى المدرسة في الجنوب، وكانت في الثالثة أو الرابعة من عمرها فقط عندما تزوّجت أختها. ظنّت شيلين أن وانغ يوي كانت تتعمّد التحفّظ لأنها لم تردها أن تُسهب في التفكير بالماضي.

إبّان بداية الثورة الثقافية كانت العلاقات خارج إطار الزواج تعتبر جريمة تمرّد ضد الثورة، لذا فقد صنّف الحرس الأحمر وانغ يوي كمجرمة لأنها كانت قد أنجبت شيلين خارج إطار الزواج. أخضع الحرس الأحمر وانغ يوي، التي كانت حاملاً بطفلها الثاني، إلى إدانات علنية متكررة. لكنها لم تتفوّه بكلمة واحدة خلال الأمر برمّته. بعد ذلك أودعوا وانغ ديو وليو تينغ وغوواي السجن بدورهم، لكن الثلاثة أصروا على أنهم لا يعلمون شيئاً عن ماضي وانغ يوي وشيلين. أحد أعضاء الحرس الأحمر الذين أداروا التحقيقات الوحشية كان المراهق الذي حاول احتضان شيلين والذي ضربه غوواي، وقد أذلّهم جميعاً دونما شفقة وقام بضرب غوواي بقوة جعلت رجله اليسرى مشلولة بصورة دائمة.

أجبر الحرس الأحمر شيلين على المشاهدة من نافذة بينما كانوا يحققون مع عائلة وانغ ويعذّبونهم. شدّوا شعرها وضغطوا على جفنيها ليبقوها صاحية لعدة أيام وليالٍ، وهي تشاهد رِجل غوواي تنزف، ووانغ يوي تتشبّث ببطنها، ووانغ ديو وليو تينغ يرتجفان من الخوف، وابن وانغ يوي الصغير مختبئاً في زاوية يبكي. بقي وجه شيلين خالياً من أي تعابير طوال الوقت لكنها كانت تتعرّق وترتجف. وعندما كان الحرس الأحمر على وشك تحطيم رِجل غوواي اليمنى بواسطة العصي والهراوات صرخت شيلين فجأةً بصوتٍ مرتفع وغير بشري: "لا تضربوه، لا تضربوه! هما ليسا والدَيّ. اسم والدي هو تشانغ تشونغرين، واسم والدتي وانغ شينغ، وهما في تايوان!".

صمت الجميع مصدومين لوهلة، ثم ألقت عائلة وانغ بنفسها على النافذة وصرخوا: "هذا ليس صحيحاً، لقد جُنّت، هي لا تعرف ما تقول!".

شاهدتهم شيلين وهم يصرخون نافين الأمر، ثم انفجرت بالضحك وأخذت تقول: "أعرف أنني لست ابنة زنا، لدي والد ووالدة"، ثم أخذ فمها يُزبد وانهارت.

انقضّ الحرس الأحمر على الاسمين اللذين أفلتا من شيلين؛ وبعد أن تثبّتوا من صحة أصل عائلة شيلين وغيرها من الأدلّة المُجرِّمة الأخرى، التي ادّعوا أنهم وجدوها، وضعوا عائلة وانغ في السجن. كان وانغ ديو ضعيف البنية وكان يمرض أغلب الأحيان - توفي في السجن. شُلّت ليو تينغ شللاً نصفياً جرّاء النوم على أرض السجن. وَلَدَت وانغ يوي طفلها الثاني، فتاة، في السجن، وأسمتها وانغ يو لأن حرف يو (الذي يعني اليشب) يُكتب مع إضافة نقطتين إلى الحرف الموجود في كلمة وانغ، والذي يرمز إلى زيادة في عائلة وانغ، وأطلقوا عليها لقب شياو يو (اليشب الصغير) لأنها كانت صغيرة جداً وضعيفة. عندما أُطلق سراحهم من السجن بعد عشر سنوات، كان غوواي لا يستطيع السير إلا مستعيناً بعصى.

في أواخر الثمانينيات التقى وانغ يوي وغوواي عرضاً واحداً من الحرس الأحمر الذين اضطهدوهم وعذّبوهم. اعترف أن الأدلّة التي كان يملكها الحرس الأحمر ضد شيلين وعائلة وانغ، عدا عن اسم والدَي شيلين وصورة لمجموعة من قادة الكومينتانغ، كانت كلها ملفّقة.

أصيبت شيلين بمرض عقلي، لكن حالتها كانت تتبدّل: كانت في بعض الأيام أفضل بكثير من أيام أخرى. أرسلها الحرس الأحمر إلى قرية في منطقة جبلية في هوباي لتتمّ إعادة تأهيلها من قبل الفلاحين. لم يكن بإمكانها العمل في الحقول بسبب حالتها العقلية الغير ثابتة، لذلك عينوا لها مهمة أقل صعوبةً نسبياً: رعي البقر. وبعد ذلك بوقت قصير صار الرجال في القرية يختلقون الأعذار للذهاب إلى المنطقة العشبية البعيدة عند التلال حيث كانت شيلين تأخذ الأبقار لترعى. كانوا قد اكتشفوا أن كل ما يحتاجون القيام به لجعل شيلين تفقد هدوءها هو سؤالها: "من هو والدك؟".

كانت تبدأ بالضحك والصراخ بطريقة هستيرية ثم تفقد وعيها، وبينما هي

مرتبكة كان الرجال يغتصبونها. إن قاومتهم، كانوا يصرخون تكراراً: "من هو والدك؟ هل أنتِ ابنة زنا؟" إلى أن تصبح شيلين مضطربة ومشوشة جداً فترضخ لأوامرهم.

اكتشفت جدّة طيبة القلب في القرية ما كان يجري عندما سمعت بالصدفة رجلاً يتشاجر مع زوجته. وقفت الجدة في وسط القرية وصاحت تلعن الرجال: "أنتم أيها الوحوش الذي لا قلب لهم. هل وُلدتم من نساء؟ أليس لديكم أمهات؟ ستدفعون ثمن هذا!" ثم أخذت شيلين لتعيش معها، لكنها كانت قد فقدت إدراكها بكل ما يحيط بها.

في أوائل سنة ١٩٨٩ وجدت وانغ يوي وعائلتها شيلين في القرية في هوباي وأخذتها لتعيش معهم. لم تعرفهم شيلين، وهم بالكاد عرفوها بعد السنوات التي أمضتها في الريف. أخذ وانغ يوي شيلين إلى المستشفى من أجل فحص شامل، وعندما قرأت النتائج مرضت جداً. فقد ورد في التقرير أن جذع شيلين مغطى بندبات ناتجة عن آثار عضّ، وأن جزءاً من إحدى حلمتيها ممضوغ وشفري المهبل ممزّقتان، وكان عنق رحمها وبطانته متضررين بشدّة، كما أنهم أخرجوا منه غصناً مكسوراً. لم يستطع الأطباء أن يحددوا المدة التي بقي فيها الغصن في رحمها.

عندما تعافت وانغ يوي من مرضها اتّصلت بمسؤولين في الحزب في قرية هوباي حيث كانت شيلين تعيش وأخبرتهم أنها ستقاضيهم بتهمة إساءة معاملتهم لشيرين.

توسّل إليها الموظفون قائلين: "إنه مكان فقير جداً. إن سُجن كل الرجال في القرية فسيجوع الأطفال". لذا قررت وانغ يوي عدم مقاضاتهم، وعندما كانت تغلق خط الهاتف قال في نفسها: "سيعاقبهم الله".

رغم خشية غوواي من أن استعادة شيلين لذاكرتها سيسبب لها الكثير من الألم، إلا أنه اقترح محاولة إيجاد طريقة ما لمساعدة شيلين على استعادة شيء من إدراكها لما يدور حولها. على مدى ست أو سبع سنوات جرّب وانغ يوي وغوواي عدة أنواع من العلاج لشيلين، لكن أياً منها لم يأتِ بنتيجة. فكروا في أن يسألوا شيلين عن والدها في محاولة لإثارة ردّ فعل عندها لكنهم خافوا من النتائج كثيراً.

تمكنت وانغ يوي من الاتصال بأختي شيلين وأخيها في تايوان، وجاؤوا لزيارة أختهم التي فقدوها منذ زمنٍ طويل. لم يتمكنوا من ربط المرأة التي أمام أعينهم ذات النظرة الميتة والتي لا تقوم بأي رد فعل بالفتاة الحيوية الذكية التي وصفها لهم والداهما، لكن شيلين كانت تشبه والدتهم كثيراً لدرجةٍ أزالت أي شك في هويتها.

لم تخبرهم وانغ يوي السبب الحقيقي وراء حالتها، ليس خوفاً من أن تلام على عدم الاهتمام بشيلين، بل لأنها كانت تعلم أن الأشخاص الذين لم يعايشوا الثورة الثقافية لن يتمكنوا من تخيّل أو فهم كل ما حصل. لم تكن لدى وانغ يوي النية بزرع الحقد فتفادت إعادة رواية تفاصيل قصة شيلين، وأخبرتهم أنها فقدت عقلها في حادث سيارة. وعندما سألوها إن كانت شيلين قد تعذّبت، طمأنتهم وانغ يوي بأنها لم تفعل وأنها فقدت ذاكرتها بعد الحادث بقليل.

لم تتوقف وانغ يوي يوماً عن التساؤل عن حجم المعاناة التي تعرّضت لها شيلين وكانت مدركة لها قبل أن تفقد عقلها.

أخبرتُها بتردد أن شيلين لا بدّ أنها فقدت إدراكها جرّاء ألمٍ عظيم، مثلها مثل كل الذين يفقدون إدراكهم في سن الرشد. لقد تراكم ألم شيلين في طبقات منذ الليلة التي هربوا فيها من نانجينغ خلال طفولتها المضطربة، التي لم تتمكن من الخروج منها أو التغلب عليها أو إيجاد متنفّس لها أبداً لأنها لم تشأ أن تسبب التعاسة لعائلة وانغ. وفيما بعد أدّت سنوات الإساءة في هوباي إلى تدمير وعيها وإدراكها تماماً.

عندما عدتُ إلى محطة الإذاعة من أجل البثّ الليلي، بعد أن أمضيت فترة بعد الظهر في المستشفى، كان المكتب خالياً. وجدتُ كوباً من عصير الفاكهة على طاولة مكتبي مع ملاحظة من مانغشينغ التي كانت قلقة من أن أكون منهكة وتركت لي كوب العصير. معروف عن مينغشينغ أنها امرأة قاسية لم تقدّم لأي أحد شيئاً أبداً، لذلك فقد تأثّرتُ كثيراً. أيضاً رئيس المحطة ترك لي ملاحظة يطلب فيها أن أسلّمه في اليوم التالي التقرير عن مقابلتي مع ابنة جنرال الكومنينتانغ.

في الصباح أخبرتُ المدير عن شيلين، لكني قلت له إننا لا نستطيع بثّ قصتها، فتفاجأ قائلاً: "ما الأمر؟ في العادة تتوسلين إليّ لتتمكني من بثّ أمور كهذه".

أجبته: "لا شيء، لكن لا يمكنني أن أعيد رواية هذه القصة مرة ثانية أو أن أقوم ببرنامج حولها. سيكون ذلك صعباً جداً".

"هذه هي المرة الأولى التي أسمعك تقولين فيها إن هناك شيئاً صعباً جداً، لا بد إذاً أن الاستماع إلى تلك القصة كان أمراً قاسياً جداً. آمل أن تتمكني من نسيانها".

لم أتمكن أبداً من التحدث إلى العجوز وو عن تفهّم الشخص المصاب بإعاقة، فقد مات جرّاء مرض في الكبد خلال حفلة في نهاية الأسبوع. وأثناء دفنه أخبرته بصمت عن أفكاري، متأكدةً من أن باستطاعته سماعي. بعد أن يغادر الناس هذا العالم فإنهم يعيشون في ذكريات الأحياء. أحياناً نستطيع الشعور بحضورهم ورؤية وجوههم أو سماع صوتهم.

١٢

الطفولة التي لا أستطيع نسيانها

عندما بدأت بحثي عن قصص النساء الصينيات كانت تملأني حماسة الشباب لكن تنقصني المعرفة. الآن، بعد أن بعد أن عرفتُ أكثر، صار تفهّمي أكثر نضجاً، لكن ألمي صار أكبر أيضاً. في بعض الأحيان يجتاحني شعور مخدِّر بسبب كل العذاب الذي صادفته، وكأنني أتصلّب من الداخل، ثم أسمع قصةً أخرى فتُستثار مشاعري من جديد.

رغم الاضطراب الذي كان يسيطر على حياتي الداخلية، فإن حياتي المهنية كانت تتكلّل بالنجاح أكثر فأكثر. فقد عُيّنتُ مديرةً لإعداد وتطوير البرامج، مما يعني أنني صرت مسؤولة عن تطوير الاستراتيجية المستقبلية لمحطة البثّ بكاملها. بينما كان نفوذي وسمعتي يكبران، وأصبحت قادرة على مقابلة نساء كان يتعذّر علي الوصول إليهن من قبل: زوجات قادة الحزب، نساء في الجيش، في مؤسسات دينية، أو في السجن. أحد هذه اللقاءات حصل بسبب مصادفة في حفلة جائزة مكتب الأمن العام. قمتُ بتنظيم بعض أنشطة التعليم العام لمكتب الأمن العام، ونتيجةً لذلك مُنحتُ لقب 'زهرة قوّات الشرطة'. لا تعني الجائزة الكثير، لكنني كنت المرأة الوحيدة في المقاطعة التي تُكرّم بهذه الطريقة، كما أنها أثبتت أنها مفيدة للغاية في محاولاتي للوصول إلى عدد أكبر من النساء.

يختلق الصينيون أي عذر لإقامة مأدبة: نعيش بحسب المبدأ القائل "الطعام هو

الجنّة"، وكُلْ واشرَبْ ثروة غير محدودة. ورغم أن الجوائز ستُمنح لأربعة أشخاص فقط، فقد كان هناك أكثر من أربعمئة ضيف في المأدبة. عدد قليل جداً من النساء في دوائر الشرطة يُكرَّم أو يُمنح جوائز، ناهيك عن اللواتي من خارج مكتب الأمن العام، لذلك كنتُ محور معظم المناقشات تلك الليلة. ضقتُ بالازدحام والأسئلة التي لا تنتهي فتسللّتُ إلى رواق الخدمة لأهرب، وعندما رآني النُدّل في الممر صرخوا: "أفسحي الطريق، تحركي، لا تسدّي الطريق!".

دفعتُ بنفسي إلى الجدار. بدا هذا المكان المزعج أفضل بكثير من تحقيق وتدقيق الضيوف. وبعد لحظات أتى السيد ماي قائد الشرطة ليشكر النُدّل وتفاجأ لرؤيتي هناك وسألني ماذا كنت أفعل.

كانت معرفتي بقائد الشرطة ماي تعود لفترة طويلة وكنت أثق به، لذلك تكلّمتُ بصراحة. ضحك وقال: "لا داعي أن تختبئي في هذا المكان الرهيب والمزدحم. تعالي، سآخذك إلى مكان أفضل" ثم قادني بعيداً عن المكان.

كانت قاعة الاحتفالات، المعروفة في المدينة كلها، فيها صالونات متجاورة وقاعات اجتماعات لم أعلم بوجودها من قبل. قادني الرئيس ماي إلى واحدة من تلك القاعات وأخبرني أن تصميمها مطابق لتصميم قاعة الشعب الكبرى في بكين، التي صُمّمت من أجل الحرص على راحة قادة الحكومة المركزية عندما يحضرون لتفقّد المدينة. أبهرني واقع أن يُسمح لي التواجد في هذا المعتكف الداخلي لكني خشيت أيضاً أن تتكوّن لدى الناس أفكار بغيضة بسبب تواجدنا لوحدنا هناك.

لاحظ الرئيس ماي تردّدي فقال: "لا حاجة للقلق بشأن ثرثرة الناس، فهناك حارس على المدخل. آه، أنا تعب جداً..." تثاءب ثم تهالك على الأريكة.

طرق الشرطي الذي يحرس المدخل على الباب وسأل بهدوء: "حضرة قائد الشرطة، هل تحتاج إلى شيء؟".

أجاب ماي بنبرة باردة مقتضبة وجافّة: "لا، لا شيء"، كانت هذه هي الطريقة التي يتكلم بها جميع المسؤولين الرفيعي المستوى في الصين مع مرؤوسيهم، مما

جعلني أفكر أن هذا ما أدّى إلى خلق مواقف الاستعلاء والدونية المعتادة بين الصينيين.

أخذ الرئيس ماي يدلّك رأسه بيديه الاثنتين بينما كان ممدداً على الأريكة ثم قال: "شينران، لقد عدت للتو من رحلة إلى هومان حيث زرتُ عدداً من السجون. سمعت عن سجينة من الممكن أن تثير اهتمامك. لقد دخلت السجن وخرجت منه مراراً بتهمة الانحراف الجنسي والمساكنة غير الشرعية. من الواضح أن لديها تاريخ عائلي مأساوي. إذا أرت مقابلتها يمكنني أن أتدبّر الأمر وأن أرسل لك سيارة".

أومأت برأسي وشكرته. هزّ رأسه بتعب وقال: "تعاني النساء الصينيات معاناة حقة. إن ذلك محزن ومؤثر جداً. ما هو قدر السعادة التي يمكن إيجادها في حياة امرأة عاشت خلال العقود القليلة الأخيرة؟ تقول زوجتي إن النساء يمنحن ابتسامتهنّ للآخرين ويحتفظن بالأسى لأنفسهنّ. إنها تحب برنامجك كثيراً، لكني لا أريدها أن تستمع إليه كثيراً؛ فهي عاطفية جداً ويمكن لقصة واحدة أن تعذّبها لعدة أيام". توقف قليلاً ثم قال: "لا أريدها أن تموت قبلي، لا يمكنني احتمال ذلك".

كان قائد الشرطة ماي رجلاً ضخماً وقوياً من شاندونغ، وتعود معرفتي به إلى عدة سنوات، لكني لم أظنّ يوماً أنه قد يكون مرهفاً على هذا النحو. فالرجال الصينيون يترعرعون على فكرة واجب فرض الاحترام، ولا يسمح الكثير منهم للآخرين برؤية الجانب المرهف من شخصيتهم. لأول مرّة خلال معرفتنا ببعضنا لم يكن حديثنا ذلك المساء عن العمل بل كان عن الرجال والنساء والعلاقات بينهما.

بعد أسبوعين أخذتني سيارة جيب تابعة لمكتب الأمن العام إلى سجن النساء في منطقة جبال غرب هونان. بدت مجموعة الأبنية مثل أيّ سجنٍ آخر: السياج الكهربائي، الحرّاس، الأضواء الكاشفة المعلّقة على الجدار الرمادي تولّد جوّاً من الخوف والتوتّر. البوابة الأساسية التي تمر عبرها سيارات أصحاب السلطة فقط كانت مغلقة، فدخلنا من البوابة الجانبية.

نظرتُ إلى المبنى الضخم، كان بإمكاني أن أخمّن من حجم وشكل النوافذ ماذا كان يوجد خلفها. خلف النوافذ الواسعة والعالية المكسورة كانت أشكال رمادية تتحرك ذهاباً وإياباً بين هدير الآلات. في العادة يعمل السجناء بينما يقضون مدّة عقوبتهم: يصلحون السيارات والشاحنات أو المعدّات، أو يقومون بخياطة وإنتاج الأقمشة، ويقوم بعضهم بأعمال شاقة كالعمل في مقالع الحجارة أو في المناجم. كان يمكن رؤية أزياء موحّدة وأجهزة وبعض أطياف ألوان من خلال النوافذة المتوسطة الحجم؛ تلك كانت المكاتب وغرف الدراسات السياسية. أما النوافذ الصغيرة في أعلى المباني فكانت تحوي مهاجع المحكومين والمطاعم.

شكّل المبنى الأساسي حدوة حصان حول مبنى أصغر حجماً كان يضمّ مقر سكن ضباط السجن وغرف المراقبة. صدمني أمران في سجن نساء غرب هونان مختلفان عن السجون الأخرى: الأول أن الجدران كانت مغطّاة بطحالب وإشنيات خضراء داكنة بسبب طقس غرب هانون الرطب؛ والأمر الغريب الآخر كان رؤية شرطيات يصرخن في وجوه السجينات. فحياة وحب ومآسي وأفراح النساء اللواتي يرتدين زي الشرطة لا يمكن أن تكون مختلفة كثيراً عن حياة وحب ومآسي وأفراح تلك النساء اللواتي يرتدين زي السجن.

عملت رسالة التعريف التي كتبها قائد الشرطة ماي مثل مرسوم إمبراطوري؛ فبعد أن قرأها مدير السجن عيّن لي غرفة مقابلة خاصة من أجل لقائي مع هوا إير؛ السجينة التي كلّمني عنها ماي من قبل.

كانت هوا إير امرأة نحيفة في مثل سني تقريباً. كانت تتململ باستمرار في زي السجن وكأنها تصارع عجزها. ورغم أن يداً غير خبيرة قد قصّت شعرها، ومع أنه كان خشناً وغير متساوٍ، فقد ذكّرني بأحد الأساليب الغريبة التي كانت صالونات تصفيف الشعر تطلقها. كانت جميلة، لكن مظهرها الخارجي القاسي والمغلق كان مثل عيب في قطعة خزف صينية نادرة.

لم أسأل عن تفاصيل تتعلّق بعقوبتها أو عن سبب مخالفتها القانون بالمساكنة

غير الشرعية مرة بعد مرة، وعوضاً عن ذلك سألتها إن كانت تبغي إخباري عن عائلتها.

أجابتني بسرعة وغضب: "من أنت؟ ما الأمر المميّز جداً فيك الذي يجبرني على إخبارك؟".

"لأنك مثلي – أنت امرأة وأنا امرأة، وقد عشنا في نفس الزمن"، قلت بهدوء ووضوح وأنا أنظر في عينيها.

أسكتها ردّي للحظة، ثم سألتني بسخرية: "إن كان الأمر كذلك، فهل تظنين أن سيكون بمقدورك تحمّل سماع قصتي إن أخبرتك إياها؟".

هذه المرة أنا من صمت، لم أعرف بمَ أجيب، فقد أصابني سؤالها في الصميم: هل سيكون بمقدوري حقاً تحمّل قصتها؟ ألست لا أزال أصارع لأنسى ذكرياتي الأليمة الخاصة؟

شعرت هوا إير أنها أصابتني في الصميم، وبازدهاء بالنفس طلبت من آمر السجن أن يفتح الباب ويعيدها إلى زنزانتها. رمقني آمر السجن بنظرة استفسار فأومأت إيجاباً دونما تفكير أو اهتمام. وبينما أنا عائدة إلى مقرّ سكن الضباط حيث سأنام تلك الليلة، كنت مستغرقة تماماً في ذكرياتي. فمهما حاولت، لم أتمكن قط من الخروج من كابوس طفولتي.

وُلدتُ في بكين سنة ١٩٥٨، عندما كانت الصين في قمة فقرها حيث إن حصة طعام يوم كامل كانت تتكوّن من بضع حبات من الصويا. وبينما كان أطفال آخرون في سني يقاسون الجوع والبرد، كنتُ أتناول الشوكولاتة المستوردة في منزل جدتي محاطة بالأزهار وزقزقة العصافير في الفناء. لكن الصين كانت على وشك أن تُزيل الاختلاف بين الغني والفقير على طريقتها السياسية الفريدة. كان الأطفال الذين صارعوا لينجوا من الفقر والحرمان يزدرونني ويهينونني؛ وسرعان ما أصبح الغنى المادي الذي كنت أعيشه مقترناً أكثر بالحرمان الروحي. ومنذ ذلك الحين فهمت أنّ في الحياة أمور كثيرة أهم بكثير من الشوكولاتة.

عندما كنتُ صغيرة كانت جدّتي تمشّط شعري وتضفره كل يوم، وكانت تتأكد من أن الضفيرتين متساويتان قبل أن تربط طرف كلٍّ منها بشريط على شكل فراشة. كنت مولعة بضفائري جداً وكنت أرمي رأسي إلى الوراء بفخر لأعرضها عندما أمشي وألعب. وعندما كان يحين وقت النوم لم أكن أدع جدّتي تزيل الشرائط، وكنت أضع جديلتي بانتباه على جانبي المخدّة قبل أن أنام. أحياناً، عندما كنت أستيقظ في الصباح وأجد الشرائط مفكوكة، كنت أسأل بتجهّم من الذي خرّبها.

كان مركز خدمة والدَيّ في قاعدة عسكرية بالقرب من السور العظيم، وعندما بلغت السابعة من عمري ذهبت لأعيش معهما لأول مرّة منذ ولادتي. بعد أقل من أسبوعين من وصولي فتّش الحرس الأحمر منزلنا، فقد اشتبهوا أن يكون والدي واحداً من "محافظي السلطة التقنية" لأنه كان عضواً في رابطة مهندسي الميكانيك الأوائل الصينية وخبيراً في الميكانيكا الكهربائية. اشتبهوا أيضاً أن يكون "عميلاً إمبريالياً بريطانياً" لأن والده عمل فيما مضى لصالح الشركة البريطانية GEC لمدة خمسٍ وثلاثين سنة. بالإضافة إلى ذلك، ولأن منزلنا كان يحتوي الكثير من الأشياء الثقافية المصنوعة يدوياً، اتُّهم والدي بأنه "ممثل للإقطاع والرأسمالية والتحريفية".

أتذكّر كيف احتشد الحرس الأحمر في جميع أنحاء المنزل وكيف أشعلوا ناراً في الفناء ورموا فيها كل كتب والدي والأثاث المتوارث عن جديّ وألعابي. اعتقلوا والدي وأخذوه معهم. أُصبت بالرعب والحزن الشديد وكذلك بالذهول وأنا أشاهد ألسنة اللهب وكنت أسمع صرخات استغاثة تأتي من وسط النار. قضت النار على كل شيء: البيت الذي كنت قد بدأت أدعوه بيتي، طفولتي السعيدة حتى تلك الساعة، آمالي وفخر عائلتي بمعرفتها وثروتها. اشتعلت في داخلي حسرات ستبقى حيّة فيّ إلى أن أموت.

وعلى ضوء النار تقدّمت نحوي فتاة تضع شريطاً أحمر حول ذراعها وتحمل بيدها مقصّاً، فأمسكت ضفيرتي وقالت: "مظهر الشعر هذا برجوازي"، وقبل أن أدرك عما كانت تتحدّث كانت قد قصّت ضفيرتي ورمتها في النار. وقفتُ مذهولةً أراقب

بصمت ضفيرتي وشرائطهما الجميلة وهي تتحول إلى رماد. وعندما غادر الحرس الأحمر منزلنا قالت لي الفتاة التي قصّت ضفيرتي: "من الآن فصاعداً محظور عليك أن تربطي شعرك إلى الوراء بالشرائط الملوّنة. فتسريحة الشعر هذه تسريحة إمبرياليّة".

بعد أن رُمي والدي في السجن، نادراً ما كانت أمي تجد الوقت للاعتناء بنا. فقد كانت تعود إلى المنزل في ساعة متأخرة، وعندما تبقى في المنزل كانت تكتب دائماً؛ ولم أعرف يوماً ماذا كانت تكتب. كنا أنا وأخي نستطيع شراء الطعام فقط من المقصف التابع لوحدة عمل والدي حيث كانوا يقدّمون وجبات غذائية ضئيلة هي عبارة عن لفت أو ملفوف مسلوق، فقد كان زيت الطبخ سلعة نادرة في تلك الأيام.

مرّةً أحضرت أمي إلى المنزل معدة خنزير وطهتها لنا على نار هادئة طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانت على وشك المغادرة إلى العمل، قالت لي: "عندما تعودين إلى المنزل حرّكي الجمر ليضطرم أكثر وسخّني لحم الخنزير في الوعاء للغداء. لا تتركي شيئاً لي. أنت وأخاك تحتاجان للتغذية".

عندما خرجت من المدرسة عند منتصف النهار ذهبت لإحضار أخي من بيت الجارة التي كانت تعتني به، وحين أخبرته أنه سيأكل شيئاً لذيذاً كان سعيداً جداً وجلس إلى الطاولة بطاعة وهدوء يراقبني وأنا أسخّن الطعام.

كان موقدنا يتألف من مجموعة عالية من الطوب مثل النوع الذي يستعملونه في شمال الصين، وكنت أبدو مثل قزمة عندما أقف بجانبه. وكي أتمكن من تحريك الجمر بواسطة مِسْعَر النار كان يجب أن أقف على مقعد. كانت تلك المرة الأولى التي أقوم فيها بهذا وحدي، ولم أدرك أن المِسْعَر سيتوهّج من الحرارة داخل الموقد، وعندما وجدت صعوبة في سحبه إلى الخارج بواسطة يدي اليمنى أمسكته بثبات بيدي اليسرى فتقرّح الجلد على راحة يدي وانسلخ وصرختُ من الألم.

جاءت الجارة مسرعةً عندما سمعت الضجّة. اتّصلت بطبيب، ورغم أنه كان يعيش على مقربة منا إلا أنه أخبرها أنه لا يجرؤ على المجيء لأنه يحتاج إلى إذن خاص لزيارة طارئة لمريض في منزل عائلة قيد التحقيق.

جارنا الآخر، الذي أتى مسرعاً، كان بروفيسوراً عجوزاً، ويبدو أنه كان قد سمع من مكانٍ ما أنه يجب فَرْكُ المنطقة المحروقة بصلصة الصويا وصبّ قنينة كاملة منها على يدي؛ كانت لاسعة جداً لدرجة أن الألم كان لا يُطاق فوقعت على الأرض أتلوّى من الألم ثم فقدت الوعي.

عندما استعدتُ وعيي كنت ممدّدةً في الفراش وكانت أمي جالسةً إلى جانبي وهي تمسك بيدي المضمّدة بين يديها الاثنتين وتلوم نفسها لأنها طلبت مني استخدام الموقد بمفردي.

باعتبارها "ابنة عائلة رأسمالية"، سرعان ما احتُجزت أمي أيضاً للتحقيق ومُنعت من العودة إلى المنزل، فانتقلنا أنا وأخي للسكن في أماكن الإقامة المخصّصة لأبناء المعتقلين.

في المدرسة، مُنعتُ من المشاركة في نشاطات الغناء والرقص مع الفتيات الأخريات إذ لا يجب أن ألوّث ميدان الثورة. ورغم أني كنتُ أعاني من قصر في النظر، لم يُسمح لي بالجلوس في الصفوف الأمامية خلال الدروس إذ كانت الأماكن الجيدة تُحجز لأبناء الفلاحين والعمال والجنود، الذين كانوا يُعتبرون "براعم حمراء" ولهم جذور نقية. كذلك مُنعت من الوقوف في الصفوف الأمامية خلال دروس الرياضة، رغم أني كنت الأصغر في الصف، لأن الأماكن القريبة جداً من المعلمة كانت مخصّصة "لجيل الثورة الآتي".

أُجبرنا أنا وأخي، بالإضافة إلى اثني عشر ولداً آخرين تتراوح أعمارهم بين السنتين والأربع عشرة سنة، على حضور دروس سياسية بعد المدرسة، فلم نتمكن من المشاركة في النشاطات اللاصفية مع أترابنا. ولم يكن يُسمح لنا بمشاهدة الأفلام، حتى تلك الأشد مناصرةً للثورة، لكي ندرك، بصورة كليّة، طبيعة أهلنا الرجعية (المناهضة للثورة). وفي المقصف كنا نحصل على الطعام آخر الجميع لأن جدّي لأبي "ساعد البريطانيين والأميركيين الإمبرياليين فيما مضى على أخذ الطعام من أفواه الصينيين والكساء عن أجسادهم".

كانت أيامنا منظّمة بواسطة اثنين من الحرس الأحمر اللذين كانا يصرخان مصدرين الأوامر لنا طوال الوقت:

"اخرجوا من السرير!".

"اذهبوا إلى الصف!".

"اذهبوا إلى المقصف!".

"ادرسوا أقوال الرئيس ماو!".

"اذهبوا إلى النوم!".

من دون عائلة تحمينا، تبعنا الروتين الميكانيكي ذاته الخالي من ضحكات الطفولة وألعابها يوماً بعد يوم. كنا نقوم بالأعمال المنزلية بأنفسنا، وكان الأولاد الأكبر سناً يساعدون الأصغر منهم في غسل ثيابهم ووجوههم وأقدامهم كل يوم؛ فقد كنا نستحمّ مرة واحدة في الأسبوع. وفي الليل كنا جميعاً - فتياناً وفتيات - ننام متلاصقين على أسرّة من القشّ.

كانت تعزيتنا الوحيدة تكمن في ذهابنا إلى المقصف. فهناك لم يكن أحد يتحدث أو يضحك، لكن أشخاصاً طيبين كانوا أحياناً يدسّون لنا سرّاً رزم صغيرة من الطعام.

في أحد الأيام أخذت أخي، الذي لم يكن قد بلغ الثالثة بعد، لنقف في آخر صف الانتظار في المقصف، وكان طويلاً بصورة غير عادية. لا بدّ أنه كان يوم احتفال وطني لأن الدجاج المحمّر كان يُباع للمرة الأولى، وكانت الرائحة اللذيذة تنبعث في أنحاء المقصف. سال لعابنا؛ فنحن لم نكن نأكل إلا بقايا الطعام منذ فترة طويلة، لكننا كنا نعلم أنهم لن يطعموننا من الدجاج المحمّر.

فجأةً انفجر أخي بالبكاء وأخذ يصرخ قائلاً إنه يريد الدجاج المُحمّر. خفت أن تزعج الضجة الحرس الأحمر فيجبروننا على المغادرة دون أي طعام، فحاولت جاهدةً أن أستميل أخي ليتوقف عن البكاء والصراخ، لكنه استمر بالبكاء وقد أصبح منزعجاً أكثر. صُعقتُ لدرجة أنني كنت أنا نفسي على وشك البكاء.

في تلك اللحظة مرّت بقربنا امرأة عطوف، فقطعت جزءاً من الدجاج المُحمّر في

طبقها وأعطته لأخي وغادرت. توقّف أخي عن البكاء وكان على وشك البدء بالأكل عندما أسرع واحد من الحرس الأحمر نحونا، فانتزع فخذ الدجاجة من فم أخي ورماه على الأرض ثم سحقه بقدمه.

صرخ الحارس الأحمر قائلاً: "أنتم جراء الكلاب الإمبرياليين، تستحقون أكل الدجاج أيضاً، أليس كذلك؟".

شعر أخي بالخوف الشديد لدرجة أنه لم يقم بأي حركة؛ لم يأكل شيئاً في ذلك اليوم، ولم يبكِ أو يُحدث ضجة أو إزعاجاً بشأن الدجاج المُحمّر أو أي نوع طعام آخر فاخر لوقت طويل بعد ذلك. بعد عدّة سنوات سألت أخي إن كان يتذكّر تلك الحادثة، ويُسعدني القول إنه لا يتذكّر، لكنني شخصياً لا أستطيع نسيانه.

أقمنا أنا وأخي في ذلك المسكن مدة خمس سنوات. كنا محظوظَيْن مقارنةً بأولاد آخرين، فبعضهم مكث هناك مدّة عشر سنوات تقريباً.

في المسكن، كان الأولاد يثقون ببعضهم ويساعدون بعضهم بعضاً. كنا كلنا متساوين هناك، لكن لم يكن لنا مكان في العالم الخارجي، فأينما حلّت جماعتنا الصغيرة كان الناس يهربون وكأننا مصابون بالطاعون. كان الأشخاص الراشدون يعبّرون لنا عن تعاطفهم بصمت، لكن الأولاد كانوا يُذّلوننا ويهينوننا. كانت ثيابنا ملطّخة بكتل من البصاق والبلغم، لكننا لم نعرف كيف ندافع عن أنفسنا، ناهيك عن المقاومة. وعوضاً عن ذلك، وُسِمَت قلوبنا بكره الذات.

أول شخص بصق عليّ كانت صديقتي المفضّلة. قالت: "تقول أمي إن جدّك ساعد الإنكليز المروّعين على أكل لحم الصينيين وشرب دمائهم، وأنه كان أسوأ الناس على الإطلاق. أنت حفيدته، لذلك فأنت شخص سيئ جداً أيضاً". بصقت عليّ ورحلت ولم تكلّمني مجدداً أبداً.

ذات يوم كنت منكمشة في آخر الصف أبكي بعد أن ضربني أحد الأولاد الحمر، وظننتُ أني كنتُ لوحدي، وذُهلت عندما أتى أحد أساتذتي ووقف خلفي ثم ربّت على كتفي قليلاً. كان من الصعب من خلال دموعي رؤية تعبير وجهه في ضوء

المصابيح الخافت، لكنني استطعتُ أن أرى أنه كان يشير لي أن أتبعه. كنت أثق به لأني كنتُ أعلم أنه كان يساعد الفقراء خارج المدرسة.

قادني إلى كوخ خشبي بجانب الملعب حيث تتخلّص المدرسة من نفاياتها، وفتح القفل بسرعة وأشار لي بالدخول. كانت النافذة مغطاة بورق الصحف لذلك كان داخل الكوخ معتماً قليلاً. كانت الغرفة مكتظّة حتى السقف بالخردة والنفايات المختلفة وكانت تفوح منها رائحة العفن والنتانة. تصلّبتُ من النفور والاشمئزاز، لكن الأستاذ سار مسرعاً عبر الخردوات بسهولة تدلّ على كثرة تردده على المكان، فتبعته بصعوبة.

في الغرفة الداخلية، دُهشت لرؤية مكتبة مرتّبة ومنظّمة. كانت المئات من الكتب موضوعة بترتيب على ألواح خشبية مكسورة، ولأول مرّة فهمتُ معنى بيت الشعر المعروف: "في أحلك ظلال الصفصاف، عثرتُ فجأةً على أزهار القرية المشرقة".

أخبرني الأستاذ أن هذه المكتبة سرّ كان يخطط لإهدائه للأجيال القادمة، وقال: "مهما كان الناس ثوريون فإنهم لا يستطيعون العيش من دون كتب. من دون الكتب لن نتمكن من فهم العالم؛ من دون الكتب لا يمكننا أن نتطور؛ من دون الكتب لا يمكن للطبيعة أن تخدم الإنسانية". كان الأستاذ كلما تكلم أكثر كان يصبح أكثر حماسة، لكن خوفي كان يزداد. كنت أعلم أن هذه الكتب بالذات هي التي كانت الثورة الثقافية تناضل لتدميرها. أعطاني الأستاذ مفتاحاً للكوخ وأخبرني أن بإمكاني أن أختبئ هناك وأقرأ في أي وقت.

كان الكوخ يقع وراء الحمام الوحيد في المدرسة، لذلك كان من السهل علي أن أذهب إلى هناك دون أن يلحظ أحد بينما يكون الأولاد الباقون يشاركون في نشاطات ممنوع علي المشاركة فيها.

عندما كان الهرج والمرج في الملعب يجعلانني حزينة لدرجة لا أعود معها قادرة على الاستمرار بالنظر عبر النافذة، كنت أبدأ بالقراءة. لم يكن هناك الكثير من

الكتب الابتدائية في المكتبة، لذلك وجدتُ صعوبة كبيرة في فهم المفردات المعقّدة. في البدء كان الأستاذ يجيب عن الأسئلة ويشرح الأمور عندما يأتي ليتفقّدني؛ وفيما بعد أحضر لي قاموساً استعملته باجتهاد، لكني لم أتمكن إلا من فهم نصف ما كنت أقرأ.

افتُتنت بكتب التاريخ الصيني والتاريخ الأجنبي. فقد علّمتني عن طرق مختلفة في الحياة: ليس فقط عن القصص الدرامية التي يعرفها الجميع، لكن عن أناس عاديين ينسجون تاريخهم الخاص عبر حياتهم اليومية. من هذه الكتب تعلّمتُ أن أسئلة كثيرة تُركت من دون أجوبة.

تعلّمتُ الكثير من الموسوعة، مما أنقذني من المتاعب والمصاريف لاحقاً في حياتي، لأني أستطيع الآن أن أقوم بتصليح أي شيء، من الدراجات الهوائية إلى الأجهزة الكهربائية صغيرة. كنت أحلم أن أصبح دبلوماسية أو محامية أو صحافية أو كاتبة، وعندما سنحت لي الفرصة لأختار مهنة تركتُ عملي الإداري في الجيش بعد اثني عشر عاماً لأصبح صحافية. المعرفة الخام التي اختزنتها في طفولتي ساعدتني مرة أخرى.

لم يتحقق حلمي في الانضمام إلى الأولاد الآخرين للعب في الملعب، لكني ربحت عزاءً من القراءة عن المعارك وإراقة الدماء في تلك المكتبة. جعلتني الأسفار التاريخية عن الحرب أشعر أنني محظوظة بالعيش في زمن السلم، وساعدتني على نسيان الاستهزاء والسخرية اللذين ينتظرانني خارج الكوخ.

أول شخص علّمني كيف أرى السعادة والجمال في الحياة عن طريق مراقبة الناس والأشياء من حولي كان ين دا.

كان ين دا يتيماً. لم يكن يعلم كيف فقد والدَيه؛ فكل ما كان يعرفه هو أنه كبر في رعاية الجيران في القرية فيما كان يعيش في كوخ طوله متر ونصف المتر وعرضه متر وعشرون سنتيمتراً، ويحتوي فقط على سرير كان يشغل مساحة الغرفة

بأكملها. تناول ين دا أرز مئات العائلات ولبس ثياب مئات الأفراد وكان يدعو أهل القرية كلهم أمي وأبي.

أتذكر أن ين دا كان يملك مجموعة واحدة من الثياب. في الشتاء كان يلبس سترة قطنية سميكة ومبطّنة فوق ثيابه الصيفية. كان الجميع من حوله فقراء، لذلك فإن سترة مبطّنة للشتاء كانت تعتبر نعيماً.

رغم أن ين دا كان أكبر مني بخمس أو ست سنوات، فقد كنا معاً في نفس الصف في مدرسة الجيش. فخلال الثورة الثقافية تمّ فعلياً تجميد كل مؤسسات التعليم؛ ولم يُسمح سوى للمدارس والكليات العسكرية بالاستمرار بتدريب الشباب حول أمور تتعلق بالدفاع الوطني. كي يظهروا الدعم للفلاحين والعمّال من البلدة التي تحتلها القاعدة العسكرية، سمحت مدرستي للأولاد المحليين أن يتلقوا تعليمهم جنباً إلى جنب أبناء العسكريين. كان كثيرون منهم قد بلغوا سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة عندما بدأوا المدرسة الابتدائية.

كان ين دا يدافع عني دائماً - إن كان موجوداً - عندما أُضرب أو يُبصق علي أو أُنعَت بصفات شنيعة من قبل أبناء العائلات الحمراء. وأحياناً، عندما كان يراني أبكي في زاوية، كان يقول للحرس الأحمر إنه سيأخذني لأتعرف إلى الفلاحين، وكان يأخذني في جولة في القرية فيريني بيوت الناس الفقراء ويخبرني عما يجعل هؤلاء الناس سعداء، رغم أنهم يجنون أقل من مئة يوان في السنة.

في وقت الاستراحة كان ين دا يأخذني إلى التلّ وراء المدرسة لمشاهدة الأشجار والنباتات المزهرة هناك، وكان يقول: "هناك الكثير من الأشجار المتشابهة في العالم، ومع ذلك ليست هناك ورقتان متشابهتين تماماً". كان يقول لي إن الحياة ثمينة وإن الماء يمنح الحياة بإعطائه ذاته.

سألني عمّا أحبه في البلدة حيث توجد القاعدة العسكرية، فقلت إنني لا أعرف، لم يكن هناك شيء يُحَبّ؛ كان مكاناً صغيراً، قديماً وخالياً من اللون، ومليئاً فقط بالدخان الخانق المتصاعد من نار الطهي، وبأشخاص يسيرون مرتدين سترات

ممزّقة وقمصان رثّة. علّمني ين دا أن أنظر وأفكر بكل بيت في البلدة بدقّة وانتباه، حتى تلك المبنية من الخردة. من يعيش في تلك البيوت؟ ماذا يفعلون داخلها؟ ماذا يفعلون خارجها؟ لماذا ذلك الباب مفتوح جزئياً؟ هل كانت العائلة في الداخل في انتظار أحد أم أنهم نسوا إغلاق الباب؟ أي نتائج يمكن أن تتأتّى عن نسيانهم إغلاق الباب؟

عملت بنصيحة ين دا كي أجد ما يثير الاهتمام في محيطي ولم يعد البصاق والاستهزاء اللذين أصادفهما يومياً يسببان لي حزناً كبيراً. كنتُ أغرق في أفكاري وأتخيّل حياة الناس في تلك البيوت. التباين بين عالم الخيال وعالم الحقيقة أصبح بالنسبة إلي مصدر راحة وحزن معاً.

في أواخر الستينيات انهارت العلاقات بين الصين والاتحاد السوفييتي كليّاً، ونشب صراع مسلّح على حدود الصين الشمالية في جزيرة جانباو. اضطرّت كل بلدة ومدينة أن تقوم بحفر أنفاق لتكون بمثابة ملاجئ من الغارات الجوّية، وفي بعض المدن الكبيرة كانت الملاجئ تتّسع لإيواء جميع السكان. كانت بعض الأجهزة والمعدّات البسيطة بالإضافة إلى مؤونة من الطعام كافية لإبقائهم أحياء في الأنفاق لعدة أيام. جعلوا الجميع، صغاراً وكباراً، يعملون في حفر هذه الأنفاق؛ حتى إنهم لم يستثنوا الأولاد في سن السابعة أو الثامنة.

أُجبر الأولاد في مدرستنا على حفر أنفاق في جانب التل وراء المدرسة. انقسمنا إلى مجموعتين، واحدة تعمل داخل النفق والأخرى خارجه. ورغم تعييني في المجموعة الداخلية فقد أُرسلت للعمل عند فتحة النفق لأني كنت فتاة ولم أكن قوية نسبياً.

وفي أحد الأيام، بعد نصف ساعة تقريباً من بدء العمل، سمعنا صوتاً عظيماً ومدوّياً: انهار النفق. دُفن أربعة صبية في الداخل، من ضمنهم ين دا، الذي كان أكثرهم توغّلا في الداخل. وعندما انتهوا من الحفر وتمّكنوا أخيراً من إخراجهم من تحت الأنقاض، بعد أربعة أيام على وقوع الحادث، لم يكن ممكناً التعرّف على جثثهم إلا من ثيابهم.

لم يُسمح للأولاد التابعين للعائلات 'السوداء' بإلقاء نظرة أخيرة على الصبية الأربعة الذين توّجوهم أبطالاً بعد موتهم. آخر ما لمحته من ين دا كان ذراعه الخالية من الحياة والمتدلّية من النقّالة.

علّمني ين دا ذات مرة لحن أغنية من فيلم 'زائر جبل الجليد'. كان لحنها جميلاً، وكانت الكلمات تتذكر صديقاً ضائعاً. بعد عدة سنوات، عندما بدأت الصين بتطبيق سياسة الانفتاح والاصلاح، عُرض هذا الفيلم مجدداً. تدفّقت الذكريات عن ين دا.

دياري الجميلة تقبع عند أقدام جبال الفردوس،
عندما غادرت المنزل كنتُ مثل بطيخة كُسرت عن ساق نبتتها.
كانت الفتاة التي أحبها تعيش تحت أشجار الحور البيضاء.
عندما رحلتُ، كانت مثل عود تُرك معلقاً على الحائط.
ساق النبتة مكسور، لكن ثمرات البطيخ ما زالت حلوة المذاق.
عندما يعود عازف العود سيغنّي العود من جديد.
عندما افترقْت عن صديقي،
كان مثل جبل مصنوع من الثلج - في انهيارٍ ثلجيٍّ واحد،
رحل إلى الأبد.
آه يا صديقي،
لن تسمعني أعزف على العود أبداً، لن تسمعني أغنّي من جديد أبداً.

لا أعلم إن كان ين دا قد شعر، عندما غنّى لي هذه الأغنية الحزينة، أنها تتطابق مع مصيره، لكنه ترك وراءه لحناً خاصاً به يمكنني أن أتذكره به من خلاله.

١٣

المرأة التي لا يعرفها والدها

خلال ليلتي الأولى في سجن غرب هونان للنساء لم أجرؤ على إغلاق عيني مخافة أن تعاودني الكوابيس، لكني حتى مع عيني المفتوحتين لم أتمكن من كبح صور طفولتي. عند الفجر قلت لنفسي: يجب أن أنسى الماضي وأجد طريقة تجعل هوا إير تثق بي كي أتمكن من مشاركة قصتها مع نساء أخريات. سألت آمر السجن إن كان بإمكاني التكلم مجدداً مع هوا إير في غرفة الاستجواب.

عندما دخلتْ هوا إير غرفة الاستجواب كان العدائية والتمرد اللذان أظهرتهما الليلة الماضية قد اختفيا، وكان الألم واضحاً على وجهها. افترضتُ من نظرتها المتفاجئة أنني أنا أيضاً أبدو مختلفة بعد ليلة من عذاب الذكريات.

بدأت هوا إير مقابلتنا بإخباري كيف اختارت أمها أسماءهم هي وأختها وإخوتها. قالت أمها إن جميع الأشياء في العالم الطبيعي تصارع من أجل مكانها، لكن الأشجار والجبال والصخور كانت الأقوى، لذلك دعت ابنتها الكبرى شو (شجرة)، وابنها الأكبر شان (جبل)، وابنها الأصغر شي (صخرة). الشجرة المُزهرة تحمل الثمر والأزهار على الجبل أو الصخرة يجمّلونهم، لذلك دُعيَت هي هوا إير هوا (زهرة).

"كان الجميع يقول إنني كنت الأجمل... ربما لأني كنتُ أُدعى هوا".

أدهشني الشعر في هذه الأسماء وقلتُ لنفسي لا بد أن والدة هوا إير كانت

امرأة مثقّفة. سكبتُ من 'الترمس' الموضوع على الطاولة كوباً من الماء الساخن لهوا إير. أمسكته بيديها الاثنتين وهي تحدّق في البخار المتصاعد منه، وتمتمت بصوت منخفض: "والدي يابانيان".

تفاجأت كثيراً. لم يُذكر ذلك أبداً في سجل هوا إير الجنائي.

"كانا يدرّسان في الجامعة، فحصلت عائلتنا على معاملة خاصة. كانت العائلات الأخرى مجبرة على العيش في غرفة واحدة، أما نحن فكانت لدينا غرفتان. كانا والدَيّ ينامان في الغرفة الصغيرة وأخذنا نحن الغرفة الكبيرة. غالباً ما كانت أختي شو تصطحبنا أنا وأخي شان معها إلى منازل أصدقائها. كان أهلهم لطيفين معنا، كانوا يقدّمون لنا وجبات خفيفة لنأكلها، ويطلبون منا أن نتكلم اليابانية. كنت صغيرة جداً، لكن لغتي اليابانية كانت جيدة جداً وكنت أستمتع بتعليم الأشخاص الراشدين بعض الكلمات والعبارات. وفيما كنت أقوم بذلك، كان الأولاد الآخرون يختطفون الطعام كله، لكن أختي كانت دائماً تحتفظ لي ببعضٍ منه. كانت تحميني".

أشرق وجه هوا إير.

"كان والدي فخوراً بشو لأنها كانت تلميذة جيدة في المدرسة. قال إن بإمكانها مساعدته ليصبح أكثر معرفة. كانت أمي أيضاً فخورة بأختي لأنها كانت تعتني بنا أنا وأخي الأكبر مني، مما يسمح لأمي بتحضير الدروس والاهتمام بأخي الصغير شي، الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات. كنا في قمة السعادة عندما كنا نلعب مع أبي. كان يغيّر شكله بارتداء أشياء مختلفة كي يضحكنا. كان، أحياناً، الرجل العجوز الذي يحمل الجبل في القصة اليابانية الخرافية، فيحملنا نحن الأربعة على ظهره. كنا نضغط عليه بثقلنا إلى أن تنقطع أنفاسه، لكنه كان يبقينا على ظهره وهو يصرخ: أنا... أحمل... الجبل!

وكان أحياناً أخرى يربط وشاح أمي على رأسه ليكون الجدّة الذئب من القصة

الخرافية الصينية. في كل مرة كان يلعب معنا لعبة الغُمّيضة، كنت أختبئ تحت اللحاف وأصرخ ببراءة: هوا إير ليست تحت اللحاف!

كان بارعاً جداً في الاختباء. حتى أنه اختبأ مرة في الإناء الضخم حيث نحتفظ بالحبوب، وعندما خرج كان مغطّى بالذرة والقمح والأرزّ". ضحكت هوا إير عندما تذكّرت هذا الأمر وضحكتُ معها.

رشفت رشفةً من الماء وأخذت تتلذّذ بها.

"كنا سعداء جداً. لكن الكابوس ابتدأ سنة ١٩٦٦".

ظهر لهب النار المستعرة التي وسمت نهاية طفولتي السعيدة أمام عيني. بدّد صوت هو إير الصورة.

"في عصر أحد أيام الصيف، كان والديّ في العمل وكنتُ أنجزت واجبي المدرسي تحت إشراف أختي بينما كان أخي الصغير جالساً يلعب بألعابه. فجأةً سمعنا هتاف الشعارات الإيقاعي في الخارج. في ذلك الوقت كان الراشدون يصرخون ويهتفون دائماً، لذلك لم نهتم للأمر كثيراً. اقتربت الضجّة أكثر فأكثر إلى أن أصبحت أمام بابنا مباشرةً. وقفت زمرة من الشباب هناك تصرخ: "يسقط اليابانيون كلاب الإمبرياليين! تخلّصوا من العملاء السريين الأجانب!".

تصرّفت أختي مثل الراشدين. فتحت الباب وسألت الطلاب الذين كانوا في مثل سنّها: "ماذا تفعلون؟ والديّ ليسا في المنزل".

قالت فتاة كانت تقف في مقدمة الحشد: "اسمعوا أيها الوقحون، إن والدَيْكم هما عميلان يابانيان سرّيان إمبرياليان. لقد وُضعا تحت تصرف الطبقة العاملة. يجب أن تنفصلوا عنهما بصورة كليّة وأن تفضحوا نشاطاتهما التجسسية!".

والديّ عميلان سريّان! في الأفلام التي شاهدتها كان العملاء السريّون دائماً شريرين. لاحظت أختي كم كنت خائفة فأغلقت الباب على الفور ووضعت يديها على كتفيّ. قالت: "لا تخافي. انتظري حتى يعود البابا والماما إلى البيت وسنخبرهما بالأمر".

كان أخي الأكبر يقول منذ بعض الوقت إنه يريد الانضمام إلى الحرس الأحمر، فقال الآن بهدوء: "إن كانا عميلين سريين فسأذهب إلى بكين لأشارك في الثورة ضدهما".

رمقته أختي بنظرة غاضبة وقالت: "لا تتفوّه بالحماقات!".

كان الظلام قد حلّ عندما توقّف الطلاب عن الصراخ أمام بابنا. فيما بعد، قال لي أحدهم إن المجموعة كانت تنوي تفتيش المنزل لكنهم لم يتمكنوا من ذلك عندما رأوا أختي تقف في الباب تحمينا نحن الثلاثة. ويبدو أن قائد الحرس الأحمر وجّه لهم توبيخاً عنيفاً نتيجةً لذلك.

لم نرَ أبي مجدداً لمدة طويلة جداً". خلا وجه هوا إير من التعابير.

خلال الثورة الثقافية، كل من كان ينحدر من عائلة ثرية، أو تلقّى تعليماً عالياً، أو كان خبيراً أو باحثاً، أو لديه معارف في الخارج، أو عمل يوماً في الحكومة السابقة لعام ١٩٤٩ كان يُصنّف كشخص مُعادٍ للثورة.

ازدحمت السجون بهذا النوع من المعتقلين السياسيين لدرجة أنها لم تعد قادرة على احتوائهم، وبدلاً من ذلك تمّ نفي هؤلاء المفكرين إلى المناطق الريفية النائية للعمل في الحقول. كانت أمسياتهم كلها عبارة عن جلسات اعتراف للحرس الأحمر بجرائمهم، أو دروس من الفلاحين الذين لم يروا سيارة في حياتهم أو سمعوا بالكهرباء. قاسى والدَيّ العديد من هذه الفترات من العمل وإعادة التأهيل.

علّم الفلاحون هؤلاء المفكّرين الأغاني التي كانوا ينشدوها خلال زرع المحاصيل وطريقة ذبح الخنازير. كان المفكرون الذين كبروا في بيئات متعلّمة تحب القراءة يرتعشون عند رؤية الدم وغالباً ما أدهشوا الفلاحين بافتقارهم للمهارات والمعرفة العملية.

أخبرتني أستاذة جامعية أجريت معها مقابلة مرّة كيف نظرت الفلاّحة التي كانت تُشرف عليها إلى شتلات القمح التي استأصلتْها عن طريق الخطأ وسألت بشفقة: "لا يمكنك أن تميّزي بين النبتة الضّارة وبين براعم القمح! ماذا تعلّم منك

الأولاد الذين كنت تدرّسينهم في المدرسة؟ كيف استحققتِ احترامهم؟". أخبرتني هذه الأستاذة الجامعية أن الفلاحين في المنطقة الجبلية التي أُرسلت إليها كانوا طيبين معها جداً، وأنها تعلّمت الكثير من حياتهم الفقيرة جداً. شعرت أن الطبيعة البشرية هي بصورة أساسية بسيطة وغير معقّدة، وفقط عندما يتعلّم الناس عن المجتمع يتعلّمون العبث بها. كان هناك بعض الحقيقة في ما قالت، لكن صادف أنها كانت محظوظة في اختبارها للثورة الثقافية.

تابعت هوا إير قصتها:

"في أحد الأيام عادت أمي إلى البيت متأخرة جداً على غير عادتها. كانت أختي فقط لا تزال مستيقظة. بين نومٍ متقطّع استيقظت لأسمع أمي تقول لها: "لقد سُجن أبوك. لا أعلم أين وضعوه. من الآن وصاعداً يجب أن أذهب لحضور دروس خاصة كل يوم، ومن الممكن أن أعود في ساعة متأخرة جداً. سآخذ شي معي، لكن سيتوجّب عليك الاعتناء بشان وهوا. شو، أنت كبيرة الآن، صدّقي ما أقوله لك: أنا والبابا لسنا أشخاصاً سيئين أو شريرين. يجب أن تؤمني بنا مهما حصل. أتينا إلى الصين لأننا أردنا أن يعرف الناس أكثر عن الثقافة اليابانية وأن نساعدهم في تعلّم اللغة اليابانية، وليس للإساءة... ساعديني بالاعتناء بأختك وأخيك. اقطفي بعض النباتات البرّية في طريق عودتك من المدرسة وأضيفيها إلى الطعام الذي تطبخينه. تملّقي أختك وأخاك حتى يأكلا أكثر؛ أنتم كلكم تكبرون وبحاجة لتأكلوا أكثر. تأكدي من وضع الغطاء على الموقد قبل الذهاب إلى النوم كي لا تتسمّموا بغاز الفحم. أغلقي النوافذ والأبواب جيداً عندما تغادرين المنزل واحرصي على ألاّ تفتحي الباب لأحد. عندما يأتي الحرس الأحمر لتفتيش المنزل، خذي أختك وأخاك إلى الخارج كي لا يخافا. من الآن فصاعداً، اذهبي إلى النوم في ذات الوقت مع أختك وأخيك الصغيرين. لا تنتظريني. إن احتجت إلى أي شيء، اكتبي لي ملاحظة لأقرأها في صباح اليوم التالي قبل أن أغادر المنزل. لا تتوقفي عن دراسة اللغة اليابانية والثقافة اليابانية. ستفيدك هذه المعرفة في يوم من الأيام. ادرسي في السر، لكن دون خوف. ستتحسّن الأمور".

كان وجه أختي جامداً لكن خطّين من الدموع انحدرا بصمت على خدّيها. اختبأتُ تحت اللحاف وبكيتُ بهدوء".

تذكّرتُ كيف كان أخي يبكي مطالباً بأمي، ولم أستطع أن أمنع دموعي من الانحدار عندما تخيّلتُ المشهد الذي وصفته هوا إير. كانت هوا إير حزينة لكن دموعها كانت جافة.

"بعد ذلك، ولفترة طويلة جداً، كنا نادراً ما نرى أمي. كنا نعلم أنا وأخي أن أمي تنام الآن في غرفتنا، لكن الدلائل الوحيدة على وجودها كانت التعليمات والمعلومات التي كانت تمرّرها لنا عبر شو.

اكتشفتُ لاحقاً أن باستطاعتي رؤية أمي إذا استيقظتُ في الليل لأذهب إلى الحمام، فبدأت أشرب الكثير من الماء قبل الذهاب إلى النوم. وكأن أمي لم تكن تنام أبداً: كل مرّة كنت أنهض فيها كانت تمدّ يدها وتربّت عليّ. كانتا يداها تصبحان خشنتين أكثر فأكثر. أردتُها أن تضم وجهي بهما، لكني خفت من أن تقول أختي إنني أزعج أمي ولا أدعها ترتاح.

أصبحتُ تعبة جداً ومتوانية خلال النهار بسبب استيقاظي عدّة مرّات في الليل لأرى أمي. حتى أنني مرّة غفوت خلال درس توجيهات الحزب العليا في المدرسة، ولحسن الحظ أن مدرّستي كانت امرأة لطيفة، فقد أخذتني بعد انتهاء الدرس إلى مكان سريّ بالقرب من ملعب الرياضة وقالت لي: "يعتبر الحرس الأحمر النوم خلال درس توجيهات الرئيس ماو العليا تصرّفاً معادياً جداً للثورة. يجب أن تكوني أكثر حذراً".

لم أفهم جيداً ما قصدته، لكني كنت خائفة لأن زوج مدرّستي كان قائد فصيلة الحرس الأحمر المحلية. شرحتُ بسرعة سبب عدم حصولي على قسط كافٍ من النوم. صمتت مدرّستي لفترة طويلة فقلقتُ أكثر وأكثر،لكنه، أخيراً، ربّتت على رأسي بحنان وقالت: "لا تقلقي، ربما ستتمكن أمك قريباً من العودة إلى المنزل في وقت أبكر".

بعد ذلك بوقت قصير بدأت أمي تأتي إلى المنزل في وقت أبكر. كانت تصل في الوقت الذي نستعد فيه للإيواء إلى الفراش. كان واضحاً أنها تغيّرت كثيراً، فهي نادراً ما كانت تتكلم وكانت تتحرك بطريقة هادئة جداً؛ بدت خائفة من أن نفقد ثقتنا بها وبوالدنا. أخي الأكبر، الذي كان يتمتع بشخصية قوية، لم يستطع أن يثير جدالاً معها بشأن الذهاب إلى بكين ليصبح واحداً من حرس ماو الأحمر، وشيئاً فشيئاً صارتْ الحياة طبيعية أكثر. سمعت أمي تقول يوماً بتنهد: "أتمنى لو يستطيع والدك العودة أيضاً..."

لم يستطع أحد منا الشعور بالفرح عند التفكير برؤية والدي. كنا نحبه لكن إن كان عميلاً سرياً فنحن مجبرون على تجاهله.

بعد ذلك ببعض الوقت، في خريف سنة ١٩٦٩، أخبروا أختي على أن تحضر دروساً مسائية في الشعبة الدراسية لتتمكن من أخذ موقف صارم بعد أن يتم الإفراج عن والدنا ورسم حدود واضحة بيننا وبينه.

عادت أختي في وقت متأخر جداً من أول درس مسائي في الشعبة الدراسية. كانت أمي تنتظرها بقلق عند النافذة، غير قادرة على الجلوس بهدوء. وأنا أيضاً لم أستطع النوم، فقد كنتُ متشوّقة لمعرفة ما هي الشعبة الدراسية. كان الحرس الأحمر يسمح فقط للأشخاص الذين يتمتعون بتفكير ثوري بالانضمام إلى المجموعة. وعلمتُ أن بعض الأشخاص إليها، بعد أن التحقوا بها، لم يعودوا يخضعون للتحقيق ولم تعد منازلهم تُفتّش، وتمّ الإفراج عن الأشخاص المسجونين في عائلاتهم. هل سيتمكن أبي من العودة قريباً؟

أرسلتني أمي إلى الفراش، فكنت أفرك عيني باستمرار وأضع رؤوس أقلام الحبر المعدنية على مخدّتي لأمنع نفسي من النوم. أخيراً، سمعتُ خطوات وصوت رجل منخفض خارج النافذة، لكني لم أتمكن من سماع ما كان يقوله. عندما دخلت أختي الغرفة هرعت أمي إليها وسألتها: "كيف كان الأمر؟" كان الخوف يملأ صوتها.

تمدّدت شو بصمت دون أن تخلع ثيابها، وعندما حاولت أمي مساعدتها على خلع ملابسها أبعدتها ثم استدارت ولفّت نفسها باللحاف بشدّة.

أصبتُ بخيبة أمل. لقد بقينا مستيقظتين ننتظرها لفترة طويلة من دون نتيجة.

تلك الليلة، سمعتُ أمي تبكي مطوّلاً. غفوت وأنا أتساءل إن كان صمت أختي قد جرح شعورها أم أنها كانت خائفة من أننا لا نحبها. في تلك الليلة حلمتُ أنني انضممتُ إلى الشعبة الدراسية أنا أيضاً، لكن ما إن عبرتُ باب الصف حتى استيقظتُ.

كانت شو تمضي وقتاً طويلاً جداً في الشعبة الدراسية، ولم تخبرني شيئاً قط. لعدّة أشهر، كانت تعود إلى المنزل في وقت متأخر جداً كل ليلة، بعد أن أكون قد نمت منذ فترة طويلة. وفي إحدى الأمسيات، عادت إلى المنزل بعد فترة قصيرة من ذهابها. أخبرنا الرجل الذي أعادها إلى المنزل: "إنها دائمة المرض وقد أغمي عليها اليوم. أجبرني أستاذ التوجيه السياسي على مرافقتها إلى المنزل".

امتقع وجه أمي وتجمّدت في مكانها حين ارتمت أختي على ركبتيها أمامها وقالت: "ماما، لم يكن بمقدوري فعل أي شيء. أردت أن يُطلق سراح بابا في أقرب وقت".

ارتعشت أمي وبدت كأنها على وشك الانهيار. أسرع أخي الأكبر وأمسك بها وأجلسها على السرير، ثم أخذنا أنا وأخي الأصغر إلى الغرفة الأخرى. لم أشأ مغادرة الغرفة لكنني لم أجرؤ على البقاء.

في اليوم التالي، بينما كنت أغادر المدرسة، كان رجل من عُصبة الحرس الأحمر في انتظاري. أخبرني أن المدرّب السياسي على الالتحاق بالشعبة الدراسية. بالكاد تجرّأتُ على تصديقه. كنت في الحادية عشرة من عمري فقط، فكيف يمكنني الانضمام إلى الشعبة الدراسية؟ ظننتُ أن من الممكن أن تكون المدرِّسة قد أخبرتهم بأنني مطيعة جداً.

فرحتُ كثيراً وأردتُ الذهاب إلى المنزل لإخبار أمي، لكن الرجل قال إنهم قد أعلموها بالأمر.

كان الصف في غرفة صغيرة مفروشة مثل منزل، فيها أسرّة وطاولة طعام وعدّة

كراسٍ تشبه تلك الموجودة في المدرسة لكن أكبر منها حجماً. كانت هناك أيضاً خزانة كتب مليئة بكتب عن الثورة، كانت مُلصقة على جدران الغرف الأربع اقتباسات للرئيس ماو وشعارات ثورية مكتوبة بالأحمر. كنت قد بدأت للتّو سنتي الرابعة في المدرسة الابتدائية فلم أتمكّن من فهمها كلّها.

أعطاني الحارس الأحمر الذي أخذني إلى هناك كتاباً صغيراً أحمر يحتوي على اقتباسات للرئيس ماو - كنت أحسد أختي دائماً على هذا الكتاب - وسألني: "هل تعلمين أن والديك عميلان سريّان؟".

أومأت برأسي بسذاجة. كنت خائفة من أن لا يسمحوا لي بالمشاركة في الشعبة الدراسية آخر الأمر.

"هل تعلمين أن كل فرد في الحلقة الدراسية هو من الحرس الأحمر؟".

أومأت برأسي مجدداً. كنتُ أرغب بشدة في أن أكون من الحرس الأحمر كي يتوقف الناس عن شتمي، وكي أتمكن من الجلوس في مؤخرة الشاحنة وأخرج إلى الشارع لأهتف بالشعارات؛ كان في ذلك كل النفوذ والأهمية والهيبة!

قال: "إذاً، لا يجب أن تدعي العملاء السريّن يعلمون شيئاً عن شؤون الحرس الأحمر، مفهوم؟".

فكّرت في كل القصص التي كنت أعرفها من الأفلام عن الحزب السري وعن العملاء السريين، تأتأت قائلةً: "أنا... أنا لن أخبر عائلتي".

"الآن قفي وأقسمي للرئيس ماو أنك ستحفظين أسرار الحرس الأحمر".

"أقسم".

"جيد، الآن أولاً ستقرأين اقتباسات من أقوال الرئيس ماو وحدك. وبعد أن نأكل سنعلّمك كيف تدرسينها".

دُهشت عندما قال لي إنهم سيقدمون لي طعاماً. قلتُ في نفسي: "لا عجب أن أختي لم تذكر شيئاً أبداً عن الشعبة الدراسية. لقد أقسَمَتْ على السريّة، لكن لا بدّ أنها خافت أيضاً أن نحسدها أنا وأخي إن جاءت على ذكر الطعام". وبينما كانت

هذه الأفكار تمرّ في رأسي رحتُ أحدّق في صفحات كتابي الأحمر الصغير دون أن أفهم كلمة واحدة.

بعد أن انتهيت من تناول الطعام، دخل اثنان آخران من الحرس الأحمر. كانا يافعين جداً، أكبر من أختي بقليل. سألاني: "هل قطعتِ عهداً للرئيس ماو؟" أومأت إيجاباً وأنا أتساءل عن سبب سؤالهما.

قالا: "حسناً، سندرس لساعة متأخرة جداً اليوم، لذلك يجب أن ترتاحي قليلاً أولاً".

حملوني بين أذرعهم وأخذوني إلى السرير، ابتسموا لي وساعدوني على نزع ثيابي حتى آخر قطعة من ثيابي الداخلية، ثم أطفأوا الأضواء كلها بنقرة قوية على المفتاح الكهربائي.

لم يخبرني أحد أبداً عن الذي يحصل بين النساء والرجال، حتى أمي. كل ما كنت أعرفه عن الفرق بين النساء والرجال هو أن سراويل الرجال تُربط من الأمام بينما سراويل النساء تُربط من الجانب. لذلك عندما حاول هؤلاء الرجال الثلاثة تحسس جسدي في الظلمة، لم يكن لدي أي فكرة عما يعنيه ذلك أو عما كان سيحصل بعد ذلك.

كنت أشعر بتعبٍ شديد، ولم أتمكن من إبقاء عينيّ مفتوحتين لسبب لم أستطع فهمه. ومن خلال تشوشي وارتباكي سمعتُ الرجال يقولون: "هذا هو درسك الأول. يجب أن نعرف إن كان هناك أي تأثيرات معادية للثورة في جسدك".

قرصت يدٌ حلمتي غير المكتملة وقال صوت: "إنها صغيرة، لكن لا بدّ من وجود برعم فيها".

أبعدتْ يدٌ أخرى ما بين فخذي، وقاطعهم صوتٌ آخر قائلاً: "إن الأشياء المعادية للثورة تختبئ دائماً في أكثر الأماكن سريّةً في جسد الشخص، فلنلقِ نظرة".

اجتاحتني موجة من رعب لم أشعر به من قبل أبداً. بدأت أرتجف من الخوف، لكن فكرةً لمعت في خاطري: تحتوي الشعبة الدراسية على أشخاص طيبين فقط، فمن غير الممكن أن يقوموا بأشياء سيئة.

ثم قال أحد الرجال: "هوا إير، هذه لك، نحن الأخوة نفي بوعودنا".

لم أفهم عمّا كانوا يتكلمون، وفي تلك اللحظة كنت قد فقدتُ كل سيطرة على جسدي. فيما بعد، عندما كبرت، أدركتُ أنهم لا بدّ أن وضعوا بعض الحبوب المنوّمة في طعامي. طعن شيء سميك وكبير جسدي الطفولي كأنه كان يريد اختراقي. أخذت أيدي لا تحصى تدلّك صدري والجزء السفلي من جسمي ولسان كريه حُشر في فمي. كان هناك لهاث سريع من حولي واحترق جسدي بالألم كأنني كنت أتعرّض للجَلْد.

لا أعلم كم من الوقت دام ذلك 'الدرس' الجهنّمي. أصبتُ بالخدر التام في كامل جسمي".

كان وجه هوا إير شاحباً مثل الأموات. عضضتُ شفتي لأمنع أسناني من الاصطكاك، وعندما مددتُ يدي إليها تجاهلتها.

"أخيراً توقفت كل الضجة والحركة. بكيتُ وبكيت.

في الظلمة، قالت لي عدة أصوات: "هوا إير، فيما بعد سيعجبك الأمر... هوا إير، أنت طفلة جيدة، لست شريرة أبداً. سيُطلق سراح والدك قريباً".

كنتُ هامدة مثل دمية من الخرق عندما انحنوا ورفعوا جسدي ليلبسوني ثيابي.

قال أحدهم بهدوء: "هوا إير، أنا آسف". لطالما أردتُ أن أعرف من منهم قال ذلك.

تعاون عدة أشخاص من الحرس الأحمر ليحملوني على ظهورهم في ريح الخريف القارصة. تركوني في مكانٍ بعيد عن منزلي وقالوا لي: "لا تنسي، لقد قطعتِ عهداً للرئيس ماو".

حاولت أن أخطو خطوة لكني لم أستطع التحرك. شعرتُ كأن الجزء السفلي من جسمي قد تمزّق إرباً. رفعني واحد منهم بين ذراعيه وحملني إلى باب بيتي ثم تسلل هو ورفيقاه مبتعدين في الظلمة. فتحت أمي الباب عندما سمعت أصواتهم واحتضنتني.

سألَتْ: "ما الأمر يا هوا إير؟ لماذا عدت في ساعة متأخرة مثل هذه؟".

كان ذهني فارغاً. لم أفكر بالعهد الذي قطعته للرئيس ماو، وكل ما استطعت فعله هو البكاء. حملتني أمي إلى السرير بينما كنت أنتحب، وعندما رأتني في ضوء المصابيح فهمت الأمر كله.

شهقت قائلةً: "يا إلهي!".

هزتني أختي شو وسألت: "هل ذهبت إلى الشعبة الدراسية؟" لكني استمررت في البكاء دون توقف. نعم، لقد ذهبتُ إلى 'الشعبة الدراسية'، شعبة دراسية تدرُس المرأة..."

أخيراً أخذت هوا إير تبكي. جعل نشيجها الضعيف والمنهك كتفيها يهتزّان. وضعتُ ذراعي حولها وشعرتُ بجسدها كله يرتجف.

قلت: "هوا إير، لا تكملي، لن تتمكني من تحمّل الأمر".

تبلّل وجهي بالدموع إذ راح صدى نحيب الفتيات من الشعبة الدراسية في مدرسة أخي يتردّد في أذنيّ.

كان وقت الظهر فحمل إلينا أحد الحراس طعام الغداء. كانت الوجبتان مختلفتين تماماً، فتبادلت صينيتي مع صينية هوا إير، لكنها بالكاد نظرت إليها. أكملت وهي لا تزال تنشج:

"كنتُ صغيرة جداً. بالرغم من الألم، تمكنتُ من النوم على صوت أمي وأختي وهما تبكيان.

اسيقظتُ مذعورة. كان أخي الأكبر شان واقفاً أمام باب بيتنا وهو يصرخ: "النجدة! فليساعدنا أحد! أمي شنقت نفسها!".

كانت أختي شو تنتحب وتصرخ قائلةً: "ماما لماذا تخلّيت عنّا؟".

كان أخي الصغير شي متشبثاً بشيء ما وهو يبكي. قمتُ من سريري لأرى ما الذي كان متشبّثاً به. كانت أمي متدلّيةً من أسكفة باب البيت".

كانت هوا إير تشهق وقد تعذّر عليها التنفس. أخذتُها بين ذراعي ورحتُ أهدهدُها وأنا أردّد اسمها مراراً وتكراراً.

بعد بضع دقائق رأيتُ قصاصة ورق تُرفع على نافذة المراقبة وعليها الرسالة التالية: "من فضلك، حافظي على مسافة ملائمة بينك وبين السجينة".

شتمتُ بصمت وطرقتُ الباب لآمر السجن ليفتح لي. تركت هوا إير في غرفة الاستجواب وتوجّهتُ إلى مكتب مدير السجن - وأنا أحمل رسالة رئيس الشرطة ماي في يدي - وأصررتُ على أن يُسمَح لهوا إير بالبقاء في غرفتي لليلتين. بعد الكثير من التردد وافق شرط أن أعطيه تعهداً خطّياً يبرّئه من أي مسؤولية في حال حصول أمر غير متوقّع أثناء وجود هوا إير معي.

عندما عدتُ إلى غرفة الاستجواب وجدتُ أن هوا إير قد بكت فوق كل الطعام الموجود أمامها. أخذتها إلى غرفتي لكنها بالكاد تفوّهت بكلمة واحدة خلال الأربع والعشرين ساعة التالية. ظننتُ أنها ربما كانت تصارع للخروج من أعماق ألمها، ولم أجرؤ على تخيّل أن لديها تجارب مأساوية أخرى تصارعها.

عندما تمكّنت هوا إير من التكلم مجدداً أخبرتني أنهم أطلقوا سراح والدها بعد أربعة أيام من انتحار أمها، لكنه لم يتعرّف أولاده. بعد عدّة سنوات، أخبرهم أحد الأشخاص أن والد هوا إير فقد عقله بعد أن أخبروه أن زوجته الحبيبة قد قتلت نفسها. جلس دون حراك في نفس الوضعية مدة يومين متواصلين وهو يسأل مراراً وتكراراً: "أين يوماي؟".

لم تجرؤ هوا إير أو أختها على اكتشاف إن كان والدهما قد علم بأمر 'الشعبة الدراسية'، أو إن كان إدراكه لذلك قد ساهم في انهياره العصبي. بعد إطلاق سراحه عاش والدهم معهم كأنه يعيش مع غرباء. على مدى أكثر من عشرين عاماً، الأمر الوحيد الذي تمكّن أولاده من تعليمه إياه كان أن كلمة 'بابا' تدل عليه وأنها الكلمة التي يستعملونها لمخاطبته. وعندما كان أي شخص في أي مكان ينطق تلك الكلمة، كان والدهم يردّ عليه.

لم تتزوّج شو، أخت هوا إير، أبداً. لقد أعيدت إلى المنزل في ذلك اليوم لأنها كانت حاملاً وقد أصدر الرجال في الشعبة الدراسية قراراً بأنها لا تستطيع إكمال

'الدراسة'. كانت في الخامسة عشرة يومئذٍ، ولم تتجرأ أمها على أخذها إلى المستشفى لأن الحرس الأحمر سيدينونها على أنها 'رأسمالية' وأنها 'حذاء مكسور'، وستُجبر على السير في الشوارع في موكب استعراضي ليهزأ الناس منها ويشتموها. عوضاً عن ذلك قررت أمها أن تفتش عن أعشاب طبية تسبب الإجهاض، وقبل أن تتمكن من فعل ذلك دفعها اغتصاب هوا إير إلى الانتحار.

لم تعرف شو ما الذي يجب عليها فعله أو إلى من يجب أن تلجأ، وبكل سذاجة أخذت تربط بطنها المنتفخ وثدييها بشرائط من القماش، لكن دون جدوى. لم تكن تعرف أين تجد الأعشاب التي تكلمت أمها عنها، لكنها تذكرت في أحد الأيام أن أمها قالت مرةً إن ثلاثة أرباع الأدوية كلها تتألف من السُمّ، لذا ابتلعت كل الأدوية الموجودة في المنزل دفعةً واحدة، فانهارت في المدرسة بعد أن نزفت بكثرة. ورغم أن المستشفى تمكنت من إنقاذ حياتها، إلا أن الجنين مات وأُجبروا على استئصال رحمها. منذ ذلك الحين وُسِمَت شو بأنها 'امرأة فاسدة' و'حذاءٌ مكسور'. مع مرور السنين، وعندما نادت الأمومة أترابها، تحوّلت شو إلى امرأة باردة قليلة الكلام، مختلفة تماماً عن الفتاة اللطيفة المرحة التي كانتها في الماضي.

في اليوم السابق لمغادرتي سجن غرب هونان للنساء أجريت مقابلة أخيرة مع هوا إير.

بعد سنتين من خبرة هوا إير في الشعبة الدراسية، وجَدَتْ كتاباً في مخزن المدرسة عنوانه من أنتِ؟ يتكلم عن بيولوجيا الأنثى والمفهوم الصيني للعفّة. فقط بعد أن قرأته أدركت المعنى المتضمّن الكامل للذي حصل لها.

بلغت هوا إير سن الرشد مع شعور مضعضع بالحس الذاتي والقيمة الذاتية. لم تختبر أحلام الفتاة التي بدأت لتوّها بفهم الحب؛ ولم تأمل أبداً بليلة زفاف. كانت الأصوات والأيدي العابثة في ظلمة غرفة الشعبة الدراسية تطاردها دائماً، ورغم ذلك كله تزوّجت أخيراً رجلاً صالحاً وطيباً أحبته. وعندما تزوّجا كانت العذرية في ليلة الزفاف المعيار الذهبي الذي تُقيّم النساء بحسبه، وغالباً ما كان عدم عذرية الفتاة

يؤدي إلى انفصالٍ مرير. على عكس الرجال الصينيين، لم يشكّ زوج هوا إير أبداً بعذريتها؛ وصدّقها عندما أخبرته أن غشاء بكارتها تمزّق خلال ممارستها للألعاب الرياضية.

قبل سنة ١٩٩٠ تقريباً كان من الشائع أن تعيش عدة أجيال من العائلة في نفس الغرفة، وكانت المساحات المخصّصة للنوم تُفصل بواسطة ستائر رقيقة أو أسرّة موضوعة فوق بعضها بعضاً، لذلك كانوا مُجبرين على ممارسة الجنس في الظلمة بصمتٍ وبحذر؛ وغالباً ما كان جوّ الكبح والقمع الذي يظلّل علاقات الأزواج المكبوتين يؤدي إلى نزاعات زوجية.

عاشت هوا إير وزوجها في غرفة واحدة مع عائلته، لذلك كانا مجبرين على ممارسة الحب في الظلمة كي لا تظهر أطيافهما على الستارة الشفّافة التي تفصل مساحتهما. كانت ترتعب عندما يلمسها زوجها في الظلمة، وكانت تشعر أن يديه تنتميان إلى أولئك الوحوش من طفولتها؛ فكانت تصرخ لاإرادياً من الخوف. وعندما حاول زوجها أن يسرّي عنها وسألها عن الأمر، لم تتمكن من إخباره بالحقيقة. كان يحبها كثيراً لكنه كان يجد صعوبة في التعامل مع توتّرها عندما يمارسان الحب، فكبح رغبته الجنسية عوضاً عن ذلك.

فيما بعد، اكتشفت هوا إير أن زوجها أصبح عنيناً. لامت نفسها على حالته وتألمت بشدّة لأنها كانت تحبه كثيراً. فعلت كل ما في وسعها لمساعدته على التحسّن، لكنها كانت غير قادرة على قمع الخوف الذي يسيطر عليها في الظلمة. وفي النهاية شعرت أن عليها أن تتركه يحصل على حريته، لتعطيه فرصة أن تكون لديه علاقة جنسية طبيعية مع امرأة أخرى، فطلبت الطلاق. وعندما رفض زوجها وسألها عن الأسباب التي جعلتها تطلب الطلاق، اختلقت أعذاراً واهية، حيث قالت إنه لم يكن رومنسياً، رغم أنه كان دائماً يتذكّر عيد ميلادها وعيد زواجهما، وكان يضع أزهاراً جديدة على طاولة مكتبها كل أسبوع. كان الجميع يرى كم يجعلها سعيدة، لكنها قالت له إنه تافه ولا يمكنه إسعادها، وقالت له أيضاً إنه لا يجني الكثير، رغم أن

جميع أصدقائها كانوا يحسدونها على المجوهرات التي كان يقدّمها لها.

عندما لم تجد عذراً جيداً لطلبها الطلاق التجأت هوا إير أخيراً إلى عذر عدم قدرة زوجها على إرضاء احتياجاتها الجسدية وهي تعلم أنه الرجل الوحيد على الإطلاق الذي بإمكانه ذلك. في مواجهة ذلك، لم يكن باستطاعة زوج هوا إير القيام بأي شيء فرحل منسحق القلب إلى تشوهاي النائية التي كانت لاتزال غير متطورة في ذلك الوقت.

كان صوت هوا إير يتردد في أذنيّ وأنا أشاهد تغيّر المناظر الطبيعية من سيارة الجيب التي أقلّتني إلى منزلي بعد بضعة أيام في سجن غرب هونان للنساء.

قالت: "رحل زوجي الحبيب. شعرتُ كأن قلبي انتُزع من صدري... فكرتُ: في الحادية عشرة كنت أستطيع إرضاء الرجال، وفي العشرين كنت أستطيع إثارة جنونهم، وفي الثلاثين كنت أستطيع أن أجعلهم يخسرون أرواحهم، وفي الأربعين...؟ أردتُ أحياناً أن أستعمل جسدي لأمنح فرصة لأولئك الرجال الذين ما زال باستطاعتهم قول "أنا آسف" لمساعدتهم على فهم كيف يمكن أن تكون العلاقة الجنسية مع المرأة؛ أردتُ أحياناً البحث عن الحرس الأحمر الذين قاموا بتعذيبي لأشاهد منازلهم تتدمّر وعائلاتهم تتشتّت. أردتُ الانتقام لنفسي من كل الرجال وجعلهم يتعذّبون.

سُمعتي كامرأة لم تعنِ لي الكثير. عشتُ مع عدة رجال، وتركتهم يتسلّون معي. لهذا السبب أُرسلتُ إلى مخيمَي أعمال شاقة لإعادة التأهيل وحُكم علي بالسجن مرتين. دعاني المدرّب السياسي في المخيّم بالأنثى الجانحة العنيدة التي لا سبيل إلى تقويمها، لكني لم أهتم. عندما يشتمني الناس لأنني لا أخجل من نفسي، لا أغضب. كل ما يهم الصينيين هو "الوجه"، لكنهم لا يفهمون كيفية ارتباط وجوههم ببقية أجسادهم.

أختي شو هي أفضل من يفهمني. فهي تعلم أنني سأذهب إلى أبعد الحدود للتخلص من ذكرياتي عن الرعب الجنسي، وأنني أريد علاقة جنسية ناضجة تشفي

أعضائي الجنسية المشوّهة. أحياناً أكون كما تقول شو؛ لكنني في أحايين أخرى لا أكون كما تقول.

والدي لا يعرف من أكون، وأنا نفسي لا أعرف من أكون".

في اليوم التالي لعودتي إلى الإذاعة قمت باتصالين هاتفيين. الأول بطبيبة نسائية، حيث أخبرتها عن سلوك هوا إير الجنسي وسألتها عن إمكانية وجود علاج لمعالجة الصدمة العقلية والجسدية التي تعرّضت لها. ويبدو أن الطبيبة لم تفكر أبداً بسؤال كهذا، ففي ذلك الوقت لم يكن هناك مفهوم للمرض النفسي في الصين، بل فقط المرض الجسدي.

بعد ذلك اتصلتُ برئيس الشرطة ماي وأخبرته أن هوا إير يابانية وسألته إن كانت هناك إمكانية لنقلها إلى أحد السجون المخصصة للأجانب حيث الظروف أفضل.

صمتَ قليلاً ثم قال: "شينران، فيما يتعلق بجنسية هوا إير اليابانية، فإن السكوت من ذهب. فحالياً تقتصر جرائمها على الجنح الجنسية والمساكنة غير الشرعية؛ ولم يتبقّ لها الكثير لتخرج من السجن. إن عُلم أنها أجنبية فمن الممكن أن تُتّهم بوجود دوافع سياسية وراء أفعالها ويمكن أن تصبح الأمور أسوأ بكثير بالنسبة إليها".

كل من عايش الثورة الثقافية يتذكر كيف أن النساء اللواتي ارتكبنَ 'جريمة' امتلاك الثياب الأجنبية أو العادات الأجنبية كن يتعرّضن للإهانة العلنية. فكان يُجزّ شعرهن بأنواع مختلفة من القصّات العجيبة الشاذّة من أجل تسلية الحرس الأحمر؛ وتُلطّخ وجوههنّ بأحمر الشفاه؛ وتُربط الأحذية ذات الكعوب العالية ببعضها وتوضع حول أجسادهنّ؛ وكانت أجزاء مكسورة من كل أنواع 'البضائع الأجنبية' تتدلّى من زوايا غير متجانسة من ملابسهنّ. كانت النساء يجبرن على إعادة سرد قصة كيفية حصولهن على تلك المنتوجات الأجنبية مراراً وتكراراً. كنتُ في السابعة من عمري عندما رأيتُ لأول مرة ما تتعرّض له تلك النساء اللواتي أُجبرنَ

على السير في موكب استعراضي في الشوارع كي يسخر منهنّ الناس. أتذكر أنني قلت لنفس: "إن كان هناك حياة أخرى، فلا أريد أن أخلق امرأة من جديد".

العديد من تلك النساء عُدنَ مع أزواجهنّ إلى الوطن الأم ليكرّسن حياتهنّ من أجل الثورة وبناء الصين الجديدة. وعندما عُدنَ إلى الصين توجّب عليهنّ القيام بالأعمال المنزلية بواسطة أبسط الأدوات المنزلية الكهربائية، لكن ذلك لم يكن شيئاً مقارنة بإجبارهنّ على قمع العادات والتصرفات المريحة التي تعوّدن على ممارستها في الخارج. كان يُحكم على كل كلمة وتصرف يقمن به من منظور سياسي؛ فكنّ يجبرنَ على مشاركة أزواجهنّ، المتّهمين بالتجسس، الاضطهاد الذي يتعرّضون له، وتعرضوا لثورة تلو الأخرى بسبب اقتنائهن أغراض نسائية من الخارج.

أجريتُ مقابلات مع العديد من النساء اللواتي تعرّضن لمثل تلك الاختبارات. في سنة ١٩٨٩ أخبرتني فلاحة من المناطق الجبلية أنها ارتادت الأكاديمية الموسيقية فيما مضى. كان وجهها مغطى بالتجاعيد العميقة ويداها خشنتين وسميكتين؛ ولم يكن هناك أي شيء يدّل على امتلاكها أي موهبة موسيقية. فقط عندما تكلّمت بذلك الصوت الرنّان الخاص بأولئك الذين تلقّوا دروساً صوتية بدأت أفكر أنها ربما كانت تقول الحقيقة.

أرتني صوراً أثبتت أن لا مبرر لشكوكي. كانت هي وعائلتها قد أمضت فترة في أميركا؛ فعندما عادوا إلى الصين لم تكن قد أكملت العاشرة من عمرها بعد. تمكّنت من تطوير مواهبها الموسيقية في كليّة في بكين، إلى حين اندلاع الثورة الثقافية. صلة والديها بأميركا كلّفتهما حياتهما ودمّرت حياة ابنتهما.

في التاسعة عشر من عمرها أُرسلت إلى منطقة جبلية فقيرة جداً وتمّ تزويجها لأحد الفلاحين من قبل المجموعة العسكرية الموجودة في القرية. ومنذ ذلك الحين وهي تعيش هناك، في منطقة فقيرة لدرجة أن القرويين أنفسهم لا يستطيعون تحمّل نفقات شراء الزيت للطبخ.

قبل أن أغادر سألتني: "هل ما زال الجنود الأميركيون في فيتنام؟".

كان والدي يعرف سيدة عادت إلى الصين بعد أن أمضت بضع سنوات في الهند، وكانت قد تجاوزت الخمسين من عمرها. كانت مدرّسة وكانت طيّبة جداً مع تلاميذها - غالباً ما كانت تساعد تلاميذها الذين يواجهون مشكلات ماديات من مدّخراتها. عند بدء الثورة الثقافية لم يظن أحد أنها ستتأثر، لكنها هوجمت وأعيد تأهيلها مدة سنتين بسبب لباسها.

أصرّت هذه المدرّسة أنّ على النساء ارتداء الألوان الزاهية وأن البذلة التي فرضها ماو كانت مسترجلة وغير لائقة بالنساء، وكانت في أغلب الأحيان ترتدي الساري تحت سترة التنظيم. اعتبر الحرس الأحمر أن ذلك يدلّ على عدم إخلاص للوطن الأم وأدانوها بتهمة الإيمان الأعمى بالأشياء الأجنبية وعبادتها. وكان من بين الحرس الأحمر الذين حاربوها تلاميذ كانت قد ساعدتهم مالياً من قبل. اعتذروا لها عن تصرّفهم لكنهم قالوا لها: "إن لم نهاجمك فسنواجه المتاعب نحن وعائلاتنا".

لم ترتدِ المدرّسة أثواب الساري التي كانت تحبها جداً مجدداً، لكنها على فراش الموت تمتمت مراراً ودون توقف: "أثواب الساري جميلة جداً".

أخبرتني مدرّسة أخرى عن تجربتها خلال الثورة الثقافية. أرسلت لها إحدى قريباتها الموجودة في تايلندا أحمر شفاه وزوجاً من الأحذية ذات كعب عالٍ إنكليزية الصنع مع عضو من وفد حكومي. كانت تدرك أن من الممكن أن تولّد الهدايا من الخارج الشكوك حول احتمال كونها عميلة سرّية فأسرعت إلى رمي الطرد حتى دون أن تفتحه، لكنها لم تنتبه لفتاة في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر كانت تلعب عند مستوعب النفايات والتي أبلغت السلطات بجريمة المدرّسة. لعدّة أشهر، ظلوا يقتادون المدرّسة عبر الشوارع على ظهر شاحنة كي تسخر منها الحشود وتشتمها.

بين سنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٧٦، في سنوات الثورة الثقافية المُظلمة، لم يكن هناك سوى فرق بسيط جداً في اللون أو في طريقة التفصيل لتمييز لباس النساء الصينيات عن لباس الرجال. كانت الأغراض المخصّصة لاستعمال النساء نادرة. مساحيق

التجميل والثياب الجميلة والمجوهرات لم تكن موجودة إلا في الأعمال الأدبية المحظورة. لكن مهما كان الشعب الصيني ثورياً في ذلك الحين، إلا أن ليس الجميع تمكنوا من مقاومة الطبيعة. يمكن أن يكون الشخص ثورياً في كل الجوانب الأخرى، لكن أي شخص ينقاد إلى رغبات جنسية 'رأسمالية' كان يُجرّ إلى المسرح حيث يُستهزأ به أو يوضع في قفص الاتهام؛ بعض الأشخاص انتحروا من اليأس. بعضهم الآخر جعلوا من أنفسهم قدوة أخلاقية لكنهم استغلّوا الرجال والنساء الذي كانوا خاضعين للإصلاح، جاعلين خضوعهم الجنسي "اختباراً لإخلاصهم". أغلبية الناس، النساء بشكل خاص، الذين عاشوا في تلك الفترة تحمّلوا بيئة جنسية عقيمة. وفي ذروة حياتهم سُجن الأزواج أو أرسلوا إلى مدارس سياسية تابعة للحكومة لمدة عشرين سنة، بينما تحمّلت زوجاتهم حياة الترمّل.

الآن، بينما يقومون بتقدير عواقب الضرر الذي ألحقته الثورة الثقافية بالمجتمع الصيني، فإن الضرر الذي أُلحق بالغرائز الجنسية الطبيعية هو عنصر يجب أن لا يُهمل أبداً. يقول الصينيون: "هناك كتاب في كل عائلة من الأفضل أن لا يُقرأ بصوتٍ عالٍ". هناك عائلات صينية عديدة لم تواجه ما حصل لها خلال الثورة الثقافية، ففصول ذلك الكتاب التصقت ببعضها بعضاً بواسطة الدموع ولا يمكن فتحها. الأجيال القادمة أو الأشخاص الغرباء عن الصين سيرون فقط عنواناً مبهماً. عندما يشهد الناس فرح العائلات والأصدقاء الذين أعيد لمّ شملهم بعد سنوات من الانفصال، يتجرّأ القليلون منهم فقط على سؤال أنفسهم كيف استطاع أولئك الناس التعامل مع رغباتهم وآلامهم خلال تلك السنوات.

كان الأطفال في الغالب، الفتيات خاصةً، هم الذين يتحمّلون نتائج الرغبات الجنسية المُحبطة. أن تكبر فتاة خلال الثورة الثقافية يعني أنها كانت محاطة بالجهل والجنون والانحراف. كانت المدارس والعائلات غير قادرة على، وممنوعة من، توفير حتى أبسط أسس التربية الجنسية لهنّ. كانت معظم الأمهات والمدرّسات هنّ أنفسهنّ جاهلات في تلك المسائل.

بعد أن كانت أجسادهنّ تنمو كانت الفتيات يتحولن إلى فرائس للاعتداءات الجنسية أو الاغتصاب. فتيات مثل هونغ شو، التي جاءت خبرتها الوحيدة عن المتعة الجسدية من ذبابة؛ وهوا إير التي 'اغتصبتها' الثورة؛ والمرأة على آلة تسجيل الاتصالات الهاتفية التي دبّر الحزب تزويجها؛ أو شيلين، التي لن تعرف أبداً أنها كبرت. مرتكبو الجرائم كانوا آباؤهم وإخوتهم، الذين فقدوا كل سيطرة على غرائزهم الحيوانية وتصرفوا بأبشع الطرق التي يمكن لرجل أن يتصرف بها وبأكثرها أنانية. دُمّرت آمال الفتيات ودُمرّت قدرتهنّ على اختبار متعة ممارسة الحب إلى الأبد. إذا استطعنا الاستماع إلى كوابيسهنّ يمكننا أن نمضي عشر سنوات أو عشرين ونحن نستمع إلى القصة ذاتها.

لقد فات الأوان الآن على إعادة الشباب والسعادة إلى هوا إير والنساء الأخريات اللواتي قاسينَ من الثورة الثقافية؛ فهنّ يجرجرن وراءهنّ ظلال ذكرياتهنّ العظيمة المظلمة.

أتذكّر كيف، في أحد الأيام في المكتب، قرأت مانغشينغ بصوتٍ عالٍ طلب أحد المستمعات لأغنية معيّنة وقالت: "لا أفهم. لماذا تحب تلك النساء العجائز هذه الأغاني القديمة التي أكلها العثّ إلى هذا الحد؟ لماذا لا ينظرن حولهنّ ويرَيْن العالم على ما هو عليه اليوم؟ إنهن يتحرّكن ببطء شديد بالنسبة للزمن".

نقر بيغ لي بقلمه على طاولة مكتبه بطريقة ذكية وعاتبها قائلاً: "ببطء شديد؟ تذكري أن هاته النساء لم يتسنَّ لهن الوقت أبداً للاستمتاع بشبابهنّ!".

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٤

امرأة عصرية

في خريف سنة ١٩٩٥ قدّمتُ طلب استقالة من منصبي كمديرة تطوير وإعداد البرامج بحجة أنني كنت أقوم بأعمال كثيرة في وقتٍ واحد وأن حجم العمل الذي تأتّى عن برنامجي الإذاعي - التحقيقات الصحفية، التحرير، الرد على البريد، إلخ - كان يزداد باستمرار. في الواقع، ما أردته في الحقيقة كان بعض المساحة لنفسي. فقد تعبتُ من التدقيق في تلال من الوثائق والملفّات المليئة بقوانين التحريم والمنع والحظر وحضور اجتماعات مطوّلة. كنت بحاجة لأن أتمكن من تمضية بعض الوقت في التعرّف إلى النساء الصينيات.

استاء رؤسائي جداً من قراري، لكنهم أصبحوا يعرفونني جيداً: إن أجبروني على الاحتفاظ بمركزي، فمن الممكن أن ينتهي بي الأمر بتقديم استقالة دائمة. طالما أنا موجودة في الإذاعة فإن بمقدورهم الاستفادة من جمهوري الواسع وصورتي كشخصية معروفة ومن شبكتي الاجتماعية الواسعة النطاق.

عندما أعلنت إدارة الإذاعة عن قراري أصبح مستقبلي مسألة فرضيات وجدالات لا تنتهي، إذ لم يفهم أحد من الزملاء والموظفين لماذا كنت أتخلى عن نجاح مستمر ومضمون في مهنة رسمية. قال بعضهم إنني سأنضم إلى موضة أصحاب المشاريع الجديدة، وافترض بعضهم الآخر أنني سأتولى منصب محاضِرة في الجامعة وأتلقى أجراً عالياً جداً، واعتقد آخرون أنني راحلة إلى أميركا. أما الأغلبية فقالوا ببساطة:

"مهما كان ما ستفعله شينران فسيلقى شعبية". رغم أن اعتبار الشخص ممهّداً ورائداً عصرياً أو امرأة رائدة وعصرية يمكن أن يبدو أمراً جيداً، فقد كنت أعلم كم عانى الناس على أيدي 'الموضة'. كانت الموضة في الصين دائماً سياسية. وفي الخمسينيات صنع الناس موضة اتباع أسلوب حياة الشيوعية السوفييتية.

كانوا يهتفون بشعارات سياسية مثل: "سنسبق أميركا ونتفوّق على إنكلترا خلال عشرين سنة!" واتّبعوا أحدث توجيهات الرئيس ماو بحذافيرها. وخلال الثورة الثقافية أُجبرت الموضة على الذهاب إلى الريف "لإعادة تأهيلها". نُفيت الإنسانية والحكمة إلى أماكن لا تعرف أنه يوجد مكان في هذا العالم حيث تستطيع النساء قول "لا" وحيث يستطيع الرجال قراءة الصحف.

في الثمانينيات، بعد سياسة الإصلاح والانفتاح، بدأ الناس موضة إنشاء المشاريع التجارية، وخلال فترة قصيرة حملت كل بطاقة زيارة لقب 'مدير أعمال'. كان هناك قول متداول: "من بين مليار شخص، تسعون مليون شخص منهم هم رجال أعمال وعشرة ملايين ينتظرون البدء بمشروع تجاري".

لم يتبع الصينيون أي موضة بإرادتهم قط - كانوا دائماً يُدفعون إليها بواسطة السياسة. من خلال مقابلاتي مع النساء الصينيات بشكل خاص اكتشفتُ أن العديد من النساء المدعوات 'عصريات' أو 'أنيقات' إنما أُجبرنَ على ذلك، ومن ثم اضطُهدنَ بسبب الموضة التي يجسّدنها. يقول الرجال إن النساء القويات والبارزات هنّ الموضة هذه الأيام، لكن النساء يقلن إن "وراء كل امرأة ناجحة هناك رجل يسبّب لها الألم".

أجريت مرة مقابلة مع امرأة أعمال ذائعة الصيت كانت تظهر دائماً في الصحف وعلى شاشات التلفزة وفي المجلات. كانت تُعتبر مثالاً رائداً في الموضة وكنت قد قرأتُ الكثير عنها في الصحف. أردتُ أن أعرف شعورها عن كونها شخصية معروفة جداً وكيف أصبحت مشهورة إلى هذا الحدّ.

حجزتْ تساو تينغ غرفة فخمة خاصة في فندق أربع نجوم من أجل لقائنا - أخبرتني أن ذلك يضمن حصولنا على الخصوصية. وعندما وصلت أوحت لي

أنها تستمتع جداً بكونها امرأة عصرية. كانت ترتدي ثياباً أنيقة غالية الثمن من الكشمير والحرير والكثير من المجوهرات التي تلمع وتخشخش عندما تتحرك، وكانت يداها مثقلتين بالخواتم. قيل لي إنها معتادة على إقامة حفلات عشاء باذخة في جميع الفنادق الكبيرة وعلى تغيير سياراتها مثلما كانت تبدّل ثيابها. إنها تشغل منصب المديرة العامة المسؤولة عن مبيعات الأغذية الصحية لعدة شركات ضخمة في المنطقة. لكني أدركت، بعد أن أجريتُ معها المقابلة، أن هناك امرأة مختلفة جداً تحت المظهر العصري والأنيق.

في بداية حوارنا أخبرتني تساو تينغ عدة مرات أنها لم تتكلم عن مشاعرها الحقيقية منذ زمنٍ طويل. قلت لها إنني أسأل النساء دائماً عن قصصهن الحقيقية لأن الحقيقة هي شريان حياة المرأة، فنظرت إلي نظرة فاحصةً وأجابت أن الحقيقة لم تكن أبداً 'عصرية'.

خلال الثورة الثقافية أُجبرت والدة تساو تينغ، وكانت مدرّسة، على حضور صفوف في الشعبة الدراسية السياسية. سُمح لوالدها بالبقاء في المنزل: كان مصاباً بورم في غدّته الكظريّة ومريضاً لدرجة لم يعد معها قادراً حتى على رفع أعواد الطعام. قال أحد عناصر الحرس الحمر لاحقاً إنهم لم يظنوا أنه يستحق إزعاج أنفسهم من أجله.

منذ سنتها الأولى في المدرسة الابتدائية تعرّضت تساو تينغ للتنمّر بسبب خلفيتها الأسرية. فقد كان زملاؤها في الصف يضربونها، وأحياناً أخرى كانوا يجرحون ذراعيها بوحشية مسبّبين لها جراحاً دامية. لكن بؤس هذه الاعتداءات كان لا شيء مقارنةً بالرعب الذي كانت تشعر به عندما يستجوبها العمّال عن أمها، وكذلك جماعات الدعاية السوقية، والمجموعات السياسية المتمركزة في المدرسة، والذين كانوا يقرصونها أو يضربونها على رأسها عندما تلتزم الصمت. كانت تخاف أن تؤخذ إلى الاستجواب لدرجة أنها كانت تبدأ بالارتعاش خوفاً إذا ما وقع ظل على نافذة الصف.

في نهاية الثورة الثقافية أُعلن أن والدة تساو تينغ كانت بريئة وأنها اتُّهمت ظلماً بمعاداة الثورة. عانت الأم وابنتها مدة عشر سنوات دون أي داعٍ. كما أن والد تساو تينغ لم يَسلَمْ هو أيضاً: لاحقاً، خلال الثورة الثقافية، طوّقوا سريره في المستشفى وأخضعوه لاستجوابات لا تُحصى إلى أن توفي.

قالت تساو تينغ: "مازلت، إلى يومنا هذا، أستيقظ في الليل مذعورةً بسبب الكوابيس التي تنتابني عن الضرب الذي تعرّضتُ له في طفولتي".

سألتها: "هل كانت تجربتك في المدرسة تجربة غير عادية؟".

كانت أشعة الشمس تنساب إلى داخل الغرفة فقامت تساو تينغ بإسدال الستارة لتحمينا من الوهج.

"كنتُ مشهورة في المدرسة؛ على الأقل أتذكر أن زملائي في الصف كانوا دائماً يتكلمون بحماسة عن الذهاب إلى الجامعة ليشاهدوا والدتي تُضطهد أو ليتنصّتوا عليّ خلال استجواب الفريق السياسي لي".

"وبرزتِ منذ ذلك الحين لعدة أسباب مختلفة".

"نعم"، قالت تساو تينغ، "في البدء والدتي، ومن ثم الرجال من حولي حرصوا على أن يثيروا اهتمام الناس بي دائماً".

"هل كان ذلك في حياتك المهنية أم الشخصية؟".

أجابت: "الجزء الأكبر كان في حياتي الشخصية".

"يقول بعضهم إن من غير الممكن أن تملك النساء التقليديات مشاعر عصرية، وإن من غير الممكن أن تكون النساء العصريات عفيفات أو مخلصات. برأيك، أي مسار من هذين المسارين سلكتِ؟".

برَمَت تساو تينغ خواتمها. لاحظتُ أنها لا تضع محبساً.

قالت: "أنا امرأة تقليدية بطبيعتي، لكني، كما تعرفين، أُجبِرت على التخلّي عن زواجي". دُعيت مرة إلى حوار شرحت فيه اقتراحات لسياسة الانفصال الزوجي، لكني لم أكن أعلم شيئاً عن تجربتها الشخصية غير الذي قرأتُه في الصحف.

"زواجي الأول - في الواقع كان هناك فقط هذا الزواج - كان مثل زيجات كثيرة أخريات في الصين. عرّفني بعض الأصدقاء إلى الرجل الذي أصبح زوجي فيما بعد. في ذلك الحين كنتُ في مآنشان وكان هو في نانجينغ، لذلك كنا نتقابل مرة واحدة في الأسبوع. كانت فترة جميلة جداً: كان قد أطلق سراح والدتي، وكان لدي عمل وحبيب. عندما نصحني الناس بالتروّي والتمتع بالحياة والتعلّم من التجارب قبل اتّخاذ القرارات، قاومتُ، إذ اعتقدت أن تحذيراتهم تشبه كثيراً تحذيرات العمّال السياسيين الذين استجوبوني خلال الثورة الثقافية. كنا، أنا وحبيبي، نستعدّ للزواج عندما تعرّض لحادثة في العمل أفقدته أصابع يده اليمنى. نصحني الأصدقاء والأقرباء بالتفكير جيداً قبل الزواج به بسبب إعاقته قائلين إن ذلك سيسبب لنا الكثير من المشاكل. وفي محاولة دفاعية استشهدتُ بقصص حب عديدة مشهورة من الزمن القديم ومن الحاضر، من الصين ومن خارجها، وقلتُ للجميع إن "الحب غير مشروط، وإنه نوع من التضحية. إن أحببنا شخصاً، فكيف يمكننا أن نتخلّى عنه في وقت المحنة؟"، لذا تخلّيتُ عن عملي وانتقلتُ إلى نانجينغ للزواج به".

تفهّمتُ قرار تساو تينغ جداً وقلتُ لها: "اعتُبر قرارك ساذجاً من قبل الأشخاص المحيطين بك، لكن لا بدّ أنك كنت فخورة جداً بنفسك وسعيدة جداً أيضاً".

أومأت تساو تينغ إيجاباً وقالت: "نعم، أصبتِ، كنتُ سعيدة جداً وقتئذٍ. لم أخشَ الزواج برجلٍ معاق أبداً. شعرتُ أنني بطلة في رواية رومنسية". أزاحت الستارة قليلاً فانحدرت أشعة الشمس الضعيفة على مؤخرة عنقها وتلألأت على عقدها عاكسةً بقعةً لامعة على الجدار.

"عندما بدأنا حياتنا معاً وجدتُ أن كل شيء قد تغيّر. القادة في وحدة عمل زوجي في منجم مايشان في نانجينغ كانوا قد وعدوني بمنحي وظيفةً جيدة في المستشفى ليساعدونا بعد أن نتزوّج، لكنهم، عندما وصلت، منحوني وظيفة ممرّضة في مدرسة ابتدائية، واستعملوا واقع عدم امتلاكي وثائق تسجيل محلية كذريعة لمنعي من التأهل للترقية أو زيادة الراتب تلك السنة. لم أتوقّع أبداً من

أولئك القادة المحترمين والوقورين أن يتراجعوا عن وعدهم بتلك الطريقة.

لكن لم يشكّل عملي الجديد مشكلتي الأكبر. فقد اكتشفت بعد فترة قصيرة أن زوجي زير نساء لا سبيل إلى تقويمه. كان ينام مع أي امرأة ترضى القيام بذلك، سواء كنّ نساء أكبر منه بعشرات السنين أم فتيات يافعات. حتى أنه لم يترفّع عن العاهرات ذوات الوجه القذر والشعر الملبّد. أصابني ذلك بالاضطراب والحزن الشديد. عندما كنت حاملاً، كان يقضي الليل كله خارج المنزل، ويختلق كل أنواع الأعذار، لكنه كان يفضح نفسه دائماً.

في النهاية أنذرته فوافق على التوقف، وبعد ذلك بوقت قصير أخبرني أنه سيُضطر أحياناً للعمل إلى ساعة متأخرة. عندما أتى أحد زملائه يسأل عنه قلت له إنه كان يعمل ساعات إضافية، فأجاب زميله: "كلا، إنه ليس موجوداً في العمل".

أدركتُ فوراً أن زوجي قد عاد إلى سابق عهده فغضبتُ بشدّة وطلبتُ من جارتي الاعتناء بابني وأسرعتُ إلى منزل المرأة التي كنت أعلم أن زوجي كان على علاقة بها قبل أن يوافق على التوقف. كان منزلها على بعد بضعة شوارع فقط، وعندما اقتربت من المنزل رأيتُ درّاجة زوجي عند البوّابة. كنتُ أرتجفُ من الغضب وأنا أطرق الباب. انتظرتُ طويلاً ثم قرعتُ على الباب مجدداً إلى أن فتحت الباب أخيراً امرأة مشعّثة الثياب وهي تصرخ: "من هناك؟ لماذا تسببون هذا الضجيج في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟" ثم أدركت أنني أنا فتأتأت قائلةً: "أنت؟ ماذا تفعلين هنا؟ إنه... إنه ليس هنا معي".

قلتُ لها: "لم آتِ إلى هنا للبحث عنه، أتيتُ لأراك أنت!".

"أنا؟ ماذا تريدين مني؟ لم أقُم بأي أمر يسيء إليك".

"هل يمكنني التحدث إليك في الداخل؟"

"كلا، الوقت ليس مناسباً".

"حسناً، يمكننا التحدّث في المدخل. أريد فقط أن أقول لك: أرجوك توقفي عن رؤية زوجي. لديه عائلة".

هتفت المرأة قائلةً: "زوجك هو الذي يهرع إلى منزلي كل يوم، لم أقصد منزلك أبداً!".

"هل تعنين أنك لن تحاولي منعه من القدوم إلى هنا؟ إنه..." توقّفتُ فجأةً وقد أخذ جسدي يتصبّب بعرقٍ بارد، إذ لم أكن معتادة على المواجهة.

"يا للمهزلة"، قالت المرأة بسخرية، "لا تستطيعين المحافظة على رجل وتلومينني إن لم أغلق الباب في وجهه؟".

"أنت؟ أنت..." أخرسني الغضب.

"أنا؟ أنا ماذا؟ إذا كنت لا تملكين ما يلزم لجذب الرجل، فلا تأتِ إلى هنا لتموئي مثل هرّةٍ مهتاجة. كنتِ فعلتِ مثلي لو كانت لديك الشجاعة!". بدت مثل ساقطة سوقيّة، لكنها كانت امرأة متعلّمة، طبيبة.

فجأةً ظهر زوجي وهو يزرّر أزرار بنطاله. "ما الذي تتشاجران بشأنه أيتها الساقطتان الغيورتان؟ سأريكما ما هو الرجل!"، وقبل أن أتمكن من القيام بأي ردّ فعل التقط عصا خيزران وبدأ يجلدني بها.

صرخت عشيقته قائلةً: "كان يجب أن تلقّنها درساً قبل الآن!".

شعرتُ بألمٍ شديد في كتفي الأيسر حيث ضربني. أعاقته يده اليمنى المعطّلة فتمكنّتُ من تفادي ضرباته التي تلت.

جعلت الضجّة العديد من الناس المقيمين في المجمّع يخرجون من منازلهم، ووقفوا يشاهدون بسلبية تامة زوجي وهو يطاردني ويضربني بينما كانت عشيقته تصرخ بالشتائم. عندما أتت الشرطة أخيراً كانت الجراح والكدمات تغطّي جسمي، لكني سمعتُ امرأةً عجوز تقول: "أولئك الكلاب الصفر (الشرطة) هم حقاً فضوليون، يحشرون أنوفهم في شؤون الناس العائلية".

في المستشفى، أخرج الطبيب اثنتين وعشرين شظية من الخيزران من جسمي. غضبت الممرضة غضباً شديداً مما حصل لي لدرجة أنها كتبت رسالة إلى صحيفة المدينة. وبعد يومين ظهرت في الصحيفة صورة لي مغطّاة بالضمّادات ومعها مقال

عن ضرورة معاملة النساء باحترام. العديد من الناس، أغلبهم من النساء طبعاً، أتوا لزيارتي في المستشفى وأحضروا معهم هدايا من الطعام. لم أرَ ذلك المقال إلا بعد عدة أسابيع. وُصفتُ فيه على أنني زوجة تتعرّض للعنف المنزلي منذ فترة طويلة. لم أعلم إن كانوا تقصّدوا المبالغة بوصف حالتي لأن أحدهم شعر بالأسى نحوي، أم لأن أحدهم أراد أن ينتقم لكل النساء المعنّفات بوضع زوجي وراء القضبان".

"هل حاولت تصحيح التحريف في المقال؟".

"كلا، كنتُ مشوّشة جداً، لم أكن أدري ما يجب عمله. كانت المرّة الأولى التي أظهر فيها في الصحيفة. بالإضافة إلى ذلك، كنتُ في قرارة نفسي ممتنّة لذلك المقال. لو اعتبروا أن زوجي هو مجرد رجل يفرض النظام في بيته، فكيف كان يمكن أن تتحسّن الأمور بالنسبة للنساء يوماً؟".

يعتبر العديد من الصينيين ضرب الرجل لزوجته أو أولاده نوعاً من فرض النظام في بيته. النساء المُسنّات بشكل خاص يوافقن على ممارسات كهذه. وبما أن الشعب الصيني يعيش بحسب القول الشائع: "الزوجة المريرة تتحمّل المرارة إلى أن تصبح حماة"، فهم يعتقدون أن على كل النساء المعاناة من نفس القدر. لهذا السبب فإن الأشخاص الذين شاهدوا تساو تينغ تُضرَب لم يتدخّلوا لمساعدتها.

تنهّدت تساو تينغ وقالت: "أحياناً أفكر أنني لم أعاني كثيراً. لكان أسوأ بكثير لو وُلدتُ امرأةً في زمنٍ سابق. فعدا عن عدم الذهاب إلى المدرسة، في تلك الأيام، لكنتُ حصلتُ فقط على فضلات الأرز التي تتبقى عن زوجي لآكلها".

قلتُ وأنا أفكر في نفسي إن العديد من النساء الصينيات يعزّين أنفسهنّ من خلال أفكار مماثلة. "أنت جيّدة في تعزية نفسك".

"قال زوجي إن العلم الكثير والثقافة قد أفسداني".

"لم يستنبط ذلك بنفسه. إن كونفوشيوس هو الذي قال: إن افتقار المرأة للموهبة ميزة!". صمتتُ قليلاً ثم سألتها: "ألم تظهري لاحقاً في نشرة الأخبار في قضية شروع في القتل؟".

"نعم، أعتقد ذلك. فقد جعلت مني الصحف في المقال مجرمة شريرة وعلّمتني مدى السلطة التي يتمتع بها الإعلام. إلى هذا اليوم لا يصدّقني أحد عندما أخبرهم بما حدث فعلاً. يظن الجميع أن ما يُكتب في الصحف مقدّس لا يرقى إليه الشك".

قلتُ بسرعة وبصورة غير احترافية: "إذاً تعتقدين أن التقرير كان غير دقيق؟".

انفعلت تساو تينغ وقالت: "أؤمن بمكافأة الثواب وبالعقاب - فليصعقني البرق إن كنتُ أكذب".

قلت بطريقة مهدّئة: "أرجوك لا تشعري أنك مُجبرة على أن تُقسمي بهذه الطريقة. لو لم أشأ سماع القصة منك أنت وليس كما رُوِيَت لما كنت هنا".

خففّ ذلك من انفعالها فأكملت: "تقدّمتُ بطلب الطلاق، لكن زوجي تذلّل إلي طالباً فرصة أخيرة وقال إنه كمعاق لن يتمكّن من البقاء على قيد الحياة من دوني. كنتُ حائرة: بعد أن ضربني ضرباً مبرحاً، لم أُصدّق أنه يستطيع أن يتغيّر، لكني كنتُ خائفة من أن لا يتمكن حقاً من البقاء حيّاً من دوني. كانت الأمور جيدة جداً، لكن هل ستتمكن عشيقاته من تحمّل هذا الأمر أيضاً؟

لكني في أحد الأيام عدتُ إلى المنزل باكراً لأجد زوجي وامرأة أخرى نصف عاريين. اندفع الدم إلى رأسي وصرخت بالمرأة: "هل تسمّين نفسك امرأة وأنت تمارسين العهر في بيتي؟ اخرجي حالاً!".

أخذتُ أصرخ وأشتم بجنون. أسرعت المرأة متعثرةً إلى غرفة نومي والتقطت ثيابها عن سريري. انتزعتُ ساطوراً من المطبخ وقلتُ لزوجي: "قلْ لي، أي نوع من الرجال أنت؟".

أجابني زوجي بركلة في أُربيّتي. انتابني غضبٌ شديد فرميته بالساطور، لكنه انحنى ووقف يحدّق فيّ مصدوماً من أنني تجرّأت وهاجمته. كنت أرتجف من الغضب؛ وبالكاد استطعت أن أتكلّم. قلتُ لهما: "أنتما - أنتما الاثنان - ماذا تفعلان...؟ إن لم تقولا الحقيقة... سيموت واحد منا هنا تماماً!".

كنتُ أمسك بحزامٍ جلدي يتدلى من الباب، وبينما كنتُ أتكلّم كنتُ أضربُ به

مثل شيء مجنون، لكنهما ابتعدا. وعندما استدرتُ لأضرب زوجي تسلّلت المرأة إلى الخارج. طاردتُها إلى مركز الشرطة وأنا أجلدها بالحزام بينما هي تصرخ قائلةً إنها لن تنام مع زوجي مجدداً أبداً. وما إن وصلت إلى بوابة مركز الشرطة حتى أسرعت إلى غرفة المناوبة وهي تصرخ: "النجدة! إنني أتعرّض للهجوم!".

لم أكن أعلم أن أحد أقرباء المرأة هو شرطي في ذلك المركز، ولا أن أحد عشّاقها كان يعمل هناك أيضاً. عندما ركض شرطي نحوي ولوى ذراعي خلف ظهري، صرختُ قائلةً: "لقد فهمت الأمر بطريقة خاطئة!".

قال بخشونة: "اصمتي!".

"لقد فهمت الأمر بطريقة خاطئة حقاً. تلك المرأة زَنَتْ مع زوجي في بيتي، هل تفهم؟"، حاولتُ التخلّص من قبضة ذراعه.

هتف قائلاً: "ماذا؟". صُدم الشرطيون الآخرون الذين تجمّعوا حولنا. كما تعلمين، في ذلك الحين، كان أي نشاط جنسي خارج مؤسسة الزواج يُعتبر جريمةً خطيرة قد تؤدي إلى حكم بالسجن لأكثر من ثلاث سنوات.

أفلتني الشرطي ثم سألني: "هل تملكين دليلاً؟".

سألته وأنا متأكدة أن بإمكاني إيجاد دليل: "إذا زوّدتكم بالدليل فماذا ستفعلون بها؟".

لم يردّ على سؤالي مباشرةً، بل قال: "إن لم تتمكّني من إحضار أي دليل سنحتجزك بتهمة الاتهام الكاذب والاعتداء". لم تكن هناك أي إجراءات قانونية في ذلك الوقت. عندما أتذكر الأمر الآن، أتساءل إن كان أولئك الشرطيون يعرفون القانون أصلاً.

قلت له: "أعطني مهلة ثلاث ساعات، فإن لم أتمكن من إحضار الدليل يمكنك عندها أن تسجنني".

أجاب أحد الشرطيين الأكبر سناً، ربما كان رئيس المركز: "حسناً، سنرسل معك أحداً ليُحضر الدليل".

كان زوجي يجلس على الأريكة يدخّن سيجارة عندما وصلتُ إلى البيت مع

الشرطي. تفاجأ، لكني تجاهلته وذهبتُ مباشرةً إلى غرفة النوم، ثم إلى الحمام، لكني لم أتمكن من إيجاد أي شيء مريب. أخيراً، فتحت سلّة القمامة في المطبخ فرأيت زوجاً من السراويل الداخلية النسائية مبتلّين بالسائل المنوي.

نظر إلي الشرطي وأومأ برأسه. زوجي، الذي كان يراقب بقلق بينما كنتُ أفتش، أصبح شاحب اللون وتأتأ قائلاً: "أنت... ماذا تفعلين؟".

قلتُ بحزم: "سأسلّمكما أنتما الاثنين إلى الشرطة".

قال: "لكنك ستدمرينني بذلك!".

قلتُ: "أنت الذي فعلت الكثير وما زلت تفعل الكثير كي تدمّرني!"، ثم أخذتُ الدليل وغادرتُ المنزل بمعيّة الشرطي.

في مركز الشرطة، تنحّى بي أحد رجال الشرطة جانباً وقال لي إنه يريد أن يناقش أمراً معي.

تفاجأتُ كثيراً وسألته: "تناقش؟ ماذا تريد أن تناقش معي؟".

"حسناً، إن المرأة التي تتّهمينها بالزنا هي أخت زوجة رئيس المركز، وإذا خرج الأمر إلى العلن فإن ذلك سيسيء إليه. كما أن زوج المرأة قد توسّل إلينا لنتوصّل إلى اتفاق معك. يقول إن زوجته شبقة وإن ابنتهما قد بلغت الرابعة عشرة مؤخراً؛ إن دخول المرأة إلى السجن سيؤدي إلى التسبب لعائلتها بوضع صعب جداً".

قلتُ وقد بدأ الغضب يتملّكني: "ماذا عن عائلتي، ماذا سأفعل أنا؟".

"ألست في خضم قضية طلاق الآن؟ من الصعب جداً الحصول على طلاق؛ سيكون عليك الانتظار مدة ثلاث سنوات على الأقل. يمكننا أن نجعل أحدهم يدافع عن قضيتك أمام القاضي، حتى إن أردت بإمكاننا نشهد لصالحك كي نسرّع العمليّة".

فهمتُ قصده. سألت: "أي نوع من الشهادة ستقدّمون؟".

بدا الشرطي مستعداً للمساعدة وقال: "يمكننا أن نشهد أن زوجك أقام علاقات جنسية خارج نطاق الزواج".

"أي نوع من الأدلة ستقدّمون؟" فكّرتُ بالحزمة التي بين يدي.

"حسناً، في كل الأحوال هناك الكثير من الأقاويل التي تتناول زوجك. يمكننا أن نشهد بكل بساطة أن ما يقال عنه صحيح".

قلتُ: "حسناً، لن تحتاج إلى تلفيق أي قصة. ها هو الدليل منذ هذه الليلة" وسلّمته الثياب الداخلية بكل سذاجة دون أن أطلب إيصالاً أو أن أصرّ على توثيق اتفاقنا وتوقيعه وحفظه ضمن ملفات البيانات. أردتُ فقط الانتهاء من الأمر كله بسرعة.

بعد أسبوعين، في محكمة الطلاق، صرّحتُ أن مركز الشرطة سيشهد لصالحي، فأعلن القاضي: "بحسب تحرّياتنا، فإن مركز الشرطة الذي ذكرته لا يملك أي سجلات تتعلّق بالتعامل معك بأي شأن كان"". وفجأةً هتفت تساو تينغ قائلةً: "كيف يمكن لشرطة الشعب أن تخدع الشعب بهذه الطريقة؟".

لم أُفاجأ بعدم ورع قوّات الشرطة لكنني سألتها: "هل بلّغت بهذا أي هيئة حكومية؟".

"أبلّغ؟ مَنْ؟ حتى قبل أن أتمكن من العودة إلى مركز الشرطة لأتوسل إليهم أن يشهدوا لصالحي كانت الصحيفة المحلّية قد نشرت مقالاً بعنوان "انتقام زوجة". صُوِّرتُ على أنني امرأة عنيفة كان زوجها يريد التخلص منها وتطليقها. ظهر المقال في صحف أخرى، وكان يُعدَّل في كل مرة ويُنشر من جديد، حتى أصبحتُ في نهاية الأمر امرأةً مجنونة تقهقه في بركةٍ من الدم!".

شعرت بالخجل من زملائي صحافيين؛ هؤلاء الذين حرّفوا قصة تساو تينغ بتلك الطريقة. "وماذا فعلت؟".

"كان عبئاً آخر مؤلماً عليّ مواجهته والتعامل معه: كانت عائلتي تنهار وكنتُ أعيش مع أمي في ذلك الوقت".

"وماذا بشأن شقتك القديمة؟" ما إن سألتُها ذلك حتى أدركتُ أنني أعرف الجواب: في وحدات العمل التي تديرها الدولة، عمليّاً، كل ما يُخصص للعائلة يكون باسم الرجل.

"قالت وحدة العمل إن الشقة كانت باسم زوجي لذلك تعود ملكيتها إليه".

"أين توقعت وحدة العمل أن تجدي مسكناً؟" سألتها وأنا أفكر أن النساء المطلّقات يُعاملن مثل الأوراق الميتة اليابسة.

"قالوا لي إن علي أن أجد مكاناً آخر مؤقتاً للسكن وأن أنتظر الدورة القادمة لتخصيص البيوت".

كنتُ أعلم أن في المصطلح الرسمي 'الدورة القادمة' يمكنها أن تستغرق سنوات عديدة لتتحقق. سألتها: "وكم من الوقت استغرقك الحصول على شقة؟".

ضحكت تساو لينغ ضحكة استهجان وسخرية وقالت: "انتظرتُ تسع سنوات ولم أحصل على شيء".

"لم يقوموا بأي شيء أبداً لمساعدتك؟".

"لا شيء إطلاقاً. ذهبتُ لمقابلة رئيسة اتحاد العمّال، وهي امرأة في الخمسين من عمرها تقريباً، لأطلب مساعدتها. قالت لي بصوت ودود: إن ذلك سهل بالنسبة للمرأة. ما عليك إلا أن تجدي رجلاً آخر يملك شقة وستحصلين على كل ما تحتاجينه".

لم أتمكن من فهم وجهة نظر موظفة رسمية كبيرة في الحزب وإمكانية إقدامها على قول شيء مماثل. "رئيسة اتحاد العمّال قالت ذلك؟".

"هذا ما قالته بالحرف الواحد".

اعتقدتُ أنني كنت قد بدأت أفهم تساو تينغ أكثر قليلاً. سألتها وأنا لا أتوقع أن تكون قد فعلت: "إذاً لم تفكّري أبداً باتخاذ أي إجراءات ضد معاملة الإعلام لك بذلك الشكل؟".

"لا. حسناً، قمت أخيراً بشيء حيال ذلك. اتصلتُ بمكتب الصحيفة لكنهم تجاهلوني، فرفعت شكواي إلى رئيس التحرير مباشرةً. قال لي مهدّداً ومازحاً في نفس الوقت: "تساو تينغ، لقد انتهى الأمر كله وأصبح الآن طي النسيان؛ إن لم تثيري الأمور بنفسك مجدداً فلن يفكر أحد بالأمر أو يتذكّره. هل تريدين أن تظهري في نشرات

الأخبار مجدداً؟ هل تريدين تحدّي الصحيفة هذه المرّة؟". ولأني لم أكن راغبة في تعريض نفسي للمزيد من الأمور البغيضة والمؤلمة فقد وافقتُ على التخلي عن الأمر".

قلتُ: "كنت تملكين قلباً رقيقاً".

"نعم، يقول بعض أصدقائي إنني أملك "لساناً من سكاكين وقلباً من التوفو". وما نفع ذلك؟ كم من الناس يمكنهم أن ينظروا إلى قلبك من خلال كلماتك؟".

صمتتْ قليلاً ثم أكملتْ تقول: "لا أعلم بالتحديد لماذا جذبتُ اهتمام الإعلام في المرة الثالثة؛ أعتقد أن الحب كان السبب. كان هناك أستاذ شاب في وحدة عملي يُدعى واي هاي. لم يكن من السكان المحلّيين، لذلك كان يسكن في المسكن التابع للمدرسة. كانت قضية طلاقي في المحاكم حينها. كنتُ أمقتُ رؤية زوجي، كما أني كنت أخشى أن يضربني، لذلك كنتُ أبقى في المكتب بعد انتهاء دوام العمل أقرأ المجلات. كان واي هاي يجلس في أغلب الأحيان في غرفة المعلّمين يقرأ الصحف، وفي أحد الأيام أمسك يدي وقال: "تساو تينغ، لا تتألمي هكذا، دعيني أجعلك سعيدة!" كانت الدموع تتلألأ في عينيه، لن أنسى المشهد أبداً.

لم أكن قد حصلتُ على الطلاق بعد، لكن كانت لدّي تخوّفات أخرى إلى جانب ذلك بشأن بدء علاقة غرامية مع واي هاي. كان أصغر مني بتسع سنوات؛ تتقدم النساء في العمر بسرعة كبيرة... سيتكلم الناس عنا بالسوء كثيراً؛ كنتُ خائفة. تعرفين القول المأثور: "يجب أن نخشى كلمات الرجال"... حسناً، يمكنها أن تقتل"، قالت تساو تينغ ذلك بشراسة.

"عندما حصلتُ على الطلاق أخيراً كنتُ قد أصبحتُ في نظر الجميع امرأةً 'سيئة السمعة'. لحسن الحظ أن تلك كانت بداية فترة الإصلاح الاقتصادي. كان الجميع منهمكاً بالسعي وراء المال لذلك لم يكن لديهم الوقت الكافي ليحشروا أنوفهم في شؤون الناس الخاصة. بدأت بالسكن مع واي هاي. كان أكثر من طيب معي وعاملني بأفضل طريقة. كنتُ سعيدة جداً معه، حتى أنه أصبح أكثر أهميةً بالنسبة لي من ابني".

لم تكن تلك مفخرة دنيئة نظراً للعقلية الصينية التي تضع الأبناء الذكور فوق كل اعتبار.

"بعد سنة من سكننا معاً جاء إلى بيتنا ممثل عن اتحاد العمّال وإداري من وحدة عملي ليطلبا مني الحصول على وثيقة زواج في أسرع وقت ممكن. رغم أن الصين كانت قد بدأت الانفتاح، إلا أن بعضهم، خاصةً النساء، كانوا يعتبرون المساكنة "جريمة ضد الآداب العامة". لكن القوة والسعادة التي منحتني إياهما حياتنا معاً تجاوزا خوفي من أراء الآخرين. بالنسبة لنا، كان الزواج مسألة وقت فقط. بعد زيارة الموظفين الحكوميين قررنا أن نطلب من وحدتَي عملينا إصدار شهادة تصديق لنا في الأسبوع القادم كي نتمكن من تسجيل زواجنا. وبما أننا كنا نعيش معاً منذ سنة، فلم نحتفل أو نتحمّس بشكل خاص.

في مساء يوم الاثنين التالي سألت واي هاي إن كان قد حصل على شهادة التصديق فقال إنه لم يفعل. لم أتمكن من الحصول على شهادتي أيضاً بسبب انشغالي، فاتفقنا على أن نحصل على شهادتينا قبل يوم الأربعاء. وفي صباح يوم الأربعاء اتصلتُ بواي هاي لأخبره أنني حصلتُ على شهادتي ولأسأله إن كان قد تمكن من الحصول على شهادته، فقال: "لا توجد أي مشكلة". حوالي الساعة الثالثة تماماً اتصل ليقول لي إن والدتي تريد مني الذهاب إلى مآنشان لأراها. لم يخبرني بالسبب. ظننتُ فوراً أن مكروهاً قد حصل لها فأسرعتُ إلى محطة الحافلات في الساعة الرابعة والنصف، وعندما وصلتُ إلى منزل والدتي بعد ساعة وأنا أكاد أموت من القلق، سألتني بدهشة: "ما الذي حصل؟ واي هاي اتصل بي ليخبرني أنه قادم إلى مآنشان وطلب مني أن أبقى في المنزل. ماذا يحدث لكما أنتما الاثنين؟".

قلت بارتباك: "لا أدري". ودون أي تأخير تركتُ والدتي وأسرعتُ إلى محطة الحافلات لأستقبل واي هاي القادم على متن حافلة نانجينغ. لم يجعل وجودنا معاً لأكثر من سنة أول شعلة حب بيننا تخفت. كنتُ بالكاد أتحمّل الابتعاد عنه في ذلك

الوقت؛ أن أتركه لأذهب إلى العمل كان أمراً مؤلماً وكنتُ أنتظر بفارغ الصبر العودة إلى المنزل كل يوم. كنتُ مفتونةً كأنني منوّمة مغناطيسياً.

عند الساعة الثامنة والنصف تقريباً في ذلك المساء، لم يكن واي هاي قد وصل بعد. انتابني الذعر فرحت أسأل كل سائق حافلة تصل إن كانت قد حدثت أي حوادث أو تعطيلات على الطريق وإن كانت جميع الحافلات تعمل بحسب الأوقات المحددة لها. كانت أجوبتهم مطمئنة: لم يحدث شيء خارج عن المألوف. بعد أن تجاوزت الساعة التاسعة قررتُ أنني لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك فاستقللت الحافلة العائدة إلى نانجينغ لأرى إن كان واي هاي مريضاً في البيت. لم أجرؤ على التفكير في أن أي شيء آخر قد حصل له. فكرتُ أن من الممكن أن يكون واي هاي على متن حافلة قادمة إلى مآنشان بينما أنا مسافرة في الاتجاه المعاكس على نفس الطريق، أشعلتُ مصباحاً كهربائياً كان في حوزتي وسلّطتُ ضوءه من نافذة الحافلة محاولةً بجهد رؤية المركبات المارّة. لم أتمكن من رؤية أي شيء، لكن المحاولة جعلتني أشعر بالارتياح. بعد فترة قصيرة طلبت شرطة المرور من حافلتنا التوقف إلى جانب الطريق. قال الشرطي الذي صعد إلى الحافلة إن هناك شخصاً على متن الحافلة يبدو أنه كان يبعث بإشارات ضوئية بواسطة مصباح كهربائي، لذلك فإنهم يريدون من جميع الركاب أن ينزلوا من الحافلة من أجل التفتيش. أسرعتُ إلى مقدمة الحافلة وشرحت له أنني كنتُ أستعمل المصباح لأنني قلقتُ من أن يكون زوجي قد استقلّ الحافلة الخطأ. غضب الشرطي جداً ثم تركنا نذهب في طريقنا وأخذ المسافرون كلهم يوجّهون لي الشتائم لتسببي بتأخيرهم. لم أهتم... اعتذرت وواصلتُ النظر من النافذة.

لم تكن شقتنا بعيد عن محطة الحافلات؛ عندما اقتربت منها رأيت ضوءاً ففرحت، لكن بابي الشقة كليهما كانا موصدين، فاستغربت: لم نعتد أن نقفل الباب الداخلي خلال تواجد أيٍّ منا في المنزل. اجتاحتني موجة من الرعب عندما رأيت الشقة خالية. أسرعت فوراً إلى غرفة النوم وفتحت خزانة الثياب. شعرتُ بالبرد في

كل أنحاء جسمي: اختفت ثياب واي هاي... لقد رحل".

"واي هاي رحل؟ ترك المنزل ورحل؟".

كانت شفة تساو تينغ السفلى ترتجف. "نعم، رحل. أخذ كل أشيائه. بعد أن قررنا أن نتزوج، رحل".

شعرتُ بالحزن العميق من أجلها. "هل ترك ملاحظة، رسالة، توضيحاً، أي شيء؟".

قالت وهي ترفع ذقنها لتمنع انحدار دمعة على خدّها: "ولا حتى كلمة واحدة".

قلتُ وقد خانتني الكلمات: "آه، تساو تينغ".

انحدرت الدمعة على وجهها. "انهرتُ. لا أدري كم من الوقت بقيتُ ممدة على الأرض أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي. عندما سمعت وقع أقدام خارج الشقة، جعلني آخر بصيص أمل أتمكن من الوقوف على رجليّ والتوجه نحو الباب. كان أحد أقرباء واي هاي يقف في الخارج. لم أفتح الباب. قال لي إن واي هاي طلب منه إحضار مفتاح الشقة لي، فقلتُ له إن الوقت متأخر وغير مناسب، وأننا سنتحدّث غداً. لم يكن أمامه أي خيار سوى المغادرة.

أوصدتُ كل النوافذ والأبواب، فتحت ماسورة الغاز، جلستُ وبدأتُ بتسجيل شريط. أردتُ الاعتذار لوالدتي عن عدم تسديدي الدين المستحق لها لتربيتي؛ أردتُ الاعتذار من ابني لعدم قيامي بواجبي الطبيعي نحوه؛ لم يكن لدي القوة أو القلب لأستمر في العيش. لم أعتزم ترك أي كلمات لواي هاي، إذ فكرتُ أن روحي ستعبّر عن ألمي وحبي له في عالم الأموات. شعرتُ أن رأسي وجسمي كانا على وشك الانفجار وكنتُ قد بدأتُ أفقد توازني عندما سمعتُ أصواتاً خارج النافذة:

"تينغ، افتحي الباب، والدتك تنتظرك في الخارج!".

"لا تقومي بأي عمل غبي، أنت راشدة الآن. لا يستحق الرجل أن تفعلي هذا بنفسي. العالم مليء بالرجال الصالحين!".

"إياك أن تشعلي عود ثقاب!".

"بسرعة... هذه النافذة كبيرة بما يكفي... حطّموها... أسرعوا..."

لا أدري ماذا حدث بعد ذلك. كل ما أعلمه أن والدتي كانت ممسكة بيدي وتبكي. عندما رأتني أفتح عيني أجهشت بالبكاء ولم تعد قادرة معها على التكلم. أخبرتني بعدها أنني فقدتُ الوعي لأكثر من يومين.

فقط أنا علمتُ أنني لم أستعد وعيي: بقي قلبي فاقداً للوعي. بقيت في المستشفى مدة ثمانية عشر يوماً، وعندما غادرت كنتُ أزن ثمانية وثلاثين كيلوغراماً".

"ما هي الفترة التي استغرقتها لتتمكني من نسيان هذا الألم؟".

أدركتُ على الفور كم بدا سؤالي سخيفاً: كان من المستحيل أن تنسى تساو تينغ ألمها.

مسحت عينيها. "لمدة سنتين لم أتمكن من النوم بشكل جيد، وأُصبتُ بمرضٍ غريب: كانت رؤية رجل، أي رجل، تصيبني بالغثيان. إذا اصطدم بي رجل على متن الحافلة، كنتُ ما إن أصل إلى المنزل حتى أبدأ بفرك نفسي بالصابون. استمر هذا الأمر مدة ثلاث سنوات تقريباً. لم أحتمل البقاء في وحدة عملي القديمة بعد أن رحل واي هاي، فقدّمت استقالتي. كان من الصعب جداً التخلي عن وظيفة في ذلك الوقت، لكن لم يكن لدي أي متطلّبات أو مخاوف. قبلتُ عرض عمل من شركة مبيعات. ومع معرفتي وبعض البراعة في الأعمال، أصبحتُ في وقت قصير وكيلة مبيعات معروفة في صناعة الأغذية. حاولت عدة شركات كبيرة إقناعي بالعمل لصالحها، فتسنّى لي اكتساب الخبرة من أماكن مختلفة.

وكنتُ حينها قد أصبحت أملك المال، حتى أنني بدأتُ بالإسراف. لكني لم أكن قد تغلّبتُ على حبي لواي هاي". حدّقت في السقف طويلاً وكأنها تبحث عن شيءٍ ما.

في النهاية، عادت لتنظر إلي. "بسبب نجاحي في الأعمال جذبتُ انتباه الصحافة من جديد. أطلقوا علي لقب 'إمبراطورة المبيعات'. كانوا يكتبون عن نشاطاتي التجارية ووجد الصحافيون كل أنواع الأسباب ليجروا مقابلات معي. لكني كنت

الآن أعرف كيف أحمي نفسي وكيف أتجنّبهم عند الضرورة. لذلك لم يُؤتَ على ذكر حياتي الشخصية ولو مرة واحدة في المقالات.

تعرّفتُ إلى مدير شركة تجارية كبيرة في شنغهاي كان يلاحقني لسببين: الأول أن شركته كانت بحاجة لمساعدتي في فتح السوق لهم؛ والثاني هو أنه لم يكن قد تزوج قط لأنه كان عاجزاً. عندما سمع عن كرهي للمس الرجال إياي ظنّ أن من الممكن أن نشكّل ثنائياً جيداً. كان ملحّاً جداً وعرض علي سُبعَ حصته من أسهم استثماراته وشركاته كهدية خطوبة. كنتُ سعيدة بهذا التدبير: لم يكن علي العمل لصالح أشخاص آخرين وكان لدي حبيب لكن دون أن أكون مجبرة على تحمّل لمساته. جاهدت صحيفة أعمال في شنغهاي كثيراً لتنشر خبراً حصرياً عنّا عنونته "قريباً زواج إمبراطورة المبيعات من ملك مال في شنغهاي. من المتوقع تغيير شامل في السوق". أعيد نشر الخبر بسرعة في صحف أخرى".

سألتها بصدق آملةً أن تجد تساو تينغ مكاناً تنتمي إليه: "هل سيتمّ الزواج قريباً؟".

قالت بابتذال وهي تلمس الخاتم حول إصبعها: "كلا، لقد ألغي".

خفتُ أن يكون الصحافيون قد تسبّبوا بالمشاكل لتساو تينغ مرةً أخرى فسألتها: "لماذا؟ هل كان الإعلام هو السبب مجدداً؟".

"لا، ليس هذه المرة. إنما لأن واي هاي ظهر مجدداً".

شعرتُ بالغثيان: "عاد واي هاي ليبحث عنك؟".

هزّت رأسها نفياً وقالت: "كلا، ظهر في إحدى دوراتي التدريبية لموظفي مبيعات محليّن. كان قلبي خاوياً لفترة طويلة جداً، وحالما وقع نظري عليه عادت إلي كل مشاعري الجياشة نحوه".

لم أستطع إخفاء عدم التصديق في صوتي عندما سألتها: "هل ما زلت تحبينه؟".

تجاهلت تساو تينغ نبرة صوتي. "نعم، عندما رأيته علمتُ على الفور أنني ما زلتُ أحبه بشدة كما في السابق".

"ماذا عنه هو؟ هل ما زال يحبك؟ مثلما...؟".

قالت باقتناع ورضى: "لا أعلم ولا أريد أن أسأل. أخاف أن أعيد الذكريات الأليمة. يبدو واي هاي ضعيفاً جداً الآن. لقد فقد الشجاعة التي كان يملكها عندما أمسك يدي وطلب مني العيش معه في الماضي، لكن ما زال هناك شيء ما أتوق إليه في عينيه".

لم أتمكن من عدم إظهار استهجاني للأمر فهتفت قائلةً: "عدتِ إليه؟". لقد التقيتُ العديد من النساء اللواتي كنّ دائماً يجدن الأعذار للألم الذي سبّبه لهنّ الرجال في حياتهنّ.

"نعم. أعدتُ الحصص إلى رجل أعمال شانغهاي، فسختُ الخطوبة، واستأجرتُ شقة أخرى مع واي هاي. ونحن الآن معاً".

لاحظتُ الإيجاز في وصف تساو تينغ. قلقتُ فضغطتُ عليها بالسؤال التالي: "هل أنت سعيدة؟".

"لا أعرف. لم نأتِ أبداً على ذكر موضوع الطريقة التي تركني بها. هناك أمور بيننا أعتقد أننا لن نتمكن أبداً من التحدث عنها".

امتحنتها سائلةً إياها: "هل تعتقدين أنه كان ليعود إليك لو كنت لا تزالين فقيرة؟".

كان ردُّها صريحاً: "كلا، لم يكن ليفعل ذلك".

ذُهلتُ. "حسناً، إذا قرر يوماً ما البدء بمشروع تجاري خاص به، أو إذا أصبح مستقلاً مادياً، هل تعتقدين أنه سيتركك؟".

"نعم، إذا أصبحت لديه مهنته العملية الخاصة، أو إذا التقى امرأةً ناجحةً أخرى، سيرحل دون شك".

أصبتُ بذهول أكبر. "وماذا سيحلُّ بك عندها؟".

سألتني بتحدٍّ وكانت الدموع تترقرق في عينيها: "تقصدين، لماذا أبقى معه إذاً؟". أومأتُ إيجاباً.

"بسبب ذلك التصريح الأول الذي قام به والسعادة التي منحني إياها عندما كنتُ معه؛ تلك كانت أسعد ذكرياتي".

بدت لي تساو تينغ مثل أي امرأة ولهانة أخرى بقيت مع رجل لا يستحقها. لمّحتُ لها مجدداً عن استهجاني للأمر وسألتها: "هل تغذّين مشاعرك الآن نحو واي هاي بالذكريات؟".

"نعم، بوسعك قول ذلك. النساء هنّ حقاً مثيرات للشفقة إلى هذا الحد".

"هل يعلم واي هاي كل هذا؟".

"لقد تجاوز الأربعين. لا بدّ أن الزمن قد تكفّل بتعليمه". جعل ردّ تساو تينغ المُنهك سؤالي يبدو ساذجاً. "عاطفياً، لا يمكن للرجال أبداً أن يشبهوا النساء؛ لن يتمكنوا أبداً من فهمنا. الرجال يشبهون الجبال؛ يعرفون فقط الأرض تحت أقدامهم والأشجار عند منحدراتهم. أما النساء فيشبهن الماء".

تذكّرتُ سماع ذلك التشبيه من جينغ يي، المرأة التي انتظرت حبيبها خمسةً وأربعين عاماً. سألتها: "لماذا تشبه النساء الماء؟".

قالت تساو تينغ بنبرة حكيمة: "يقول الجميع إن النساء هنّ مثل الماء. يشبّه الجميع النساء بالماء. أعتقد لأن الماء هو نبع الحياة، كما أنه يتكيّف مع محيطه. مثل النساء، يعطي الماء من نفسه أينما ذهب ليغذّي الحياة. إن أوتي واي هاي الفرصة فلن يبقى في منزل حيث لا يملك الكثير من السلطة، فقط من أجلي".

"نعم إن كان الرجل لا يملك وظيفة، أو يعيش على نفقة امرأة، فإن انعكاس الأدوار هو وصفة لكارثة".

صمتتْ تساو تينغ بضع لحظات. "هل رأيتِ عناوين الصحف: "امرأة أعمال قوية ترفض زواجاً استراتيجياً لتجدّد حباً قديماً" أو شيئاً من هذا القبيل؟ يعلم الله ماذا فكر الناس عني بعد أن نُشرت تلك المعلومة عدة مرات. لقد حوّلني الإعلام إلى صورة امرأة شنيعة: محاولة قتل، زنا، الجميع مقتنع أنني قمت بكل تلك الأمور. لقد عزلني ذلك عن النساء الأخريات، كما أن أصدقائي وعائلتي يحافظون

على مسافة معينة بينهم وبيني. لكن سوء الشهرة عاد علي بفوائد غير متوقّعة"، ضحكت تساو تينغ ضحكةً مريرة.

"هل تعنين أن أعمالك استفادت من ذلك؟".

"صحيح. كل تلك الشائعات تجعل من السهل علي إقناع الناس بشراء مبيعاتي وذلك بسبب فضولهم عني. بسطت يديها لتعرض الخواتم التي تزينهما".

"إذاً فإن حياتك الخاصة ساهمت في إنجاح إنجازاتك العملية"، فكرتُ طويلاً بحزن في هذه الفكرة: هذه هي الطريقة التي أصبحت بها النساء ناجحات.

"بوسعك قول ذلك. لكن الناس لا يعلمون الثمن الذي دفعته مقابل ذلك".

أومأتُ إيجاباً. "يقول بعضهم إن على النساء دائماً التضحية بالمشاعر مقابل النجاح".

قالت تساو تينغ وهي تختار كلماتها بعناية: "في الصين، هذا هو الحال دائماً تقريباً".

سألتها: "إذا سألتكِ امرأة عن سر نجاحك، بماذا تجيبينها؟".

"أولاً، ضعي جانباً مشاعر المرأة الرقيقة واتركي الإعلام يلهث مذهولاً حول مدى اختلافك. ثانياً، انزعي قلبك من صدرك واختلقي قصة جيدة تتناولها أخبار الصحف؛ ثم استخدمي ندباتك كفرصة عمل تجارية: اعرضيها على الناس؛ أخبريهم عن ألمك. وبينما يتأثر الناس بما عانيته من جراح، ابسطي منتوجاتك على طاولاتهم وخذي أموالهم".

"آه، تساو تينغ! هل يمكن أن تكون الأمور بهذا الشكل حقاً؟".

قالت بجدّية: "نعم، يمكنها. من مفهومي لها، هي كذلك".

سألتُها وأنا مندهشة مرة أخرى من شجاعة النساء: "كيف تتعاملين مع الحياة بصمود إذاً؟".

"هل لديك ندبة على يديك أو ندبات على جسمك؟ المسيها - هل تشعرين بأي شيء؟"، كانت تساو تينغ تتكلم بلطف لكن كلماتها جعلتني أشعر باليأس.

نهضتْ لتغادر. "أنا آسفة، لكن الساعة الآن السادسة تماماً ويجب أن أذهب إلى عدة متاجر كبيرة لأتفقد مستوى مخزوناتهم. أشكرك على هذا اللقاء".

قلتُ: "أنا من يشكرك. أتمنى أن يليّن الحب الندوب التي على قلبك".

كانت تساو تينغ قد استعادت رباطة جأشها بالكامل فأجابت بصوتٍ قاسٍ: "شكراً، لكن من الأفضل بكثيرٍ للمرء أن يكون مُخدّراً من أن يكون متألماً".

عندما غادرت الفندق كانت الشمس على وشك الغروب. فكّرتُ كم كانت نشيطة ومنتعشة عند الفجر وكم هي تعبة بعد نهار عمل. الشمس معطاءة؛ النساء تحب - خبرتهما هي نفسها. يعتقد العديد من الناس أن اهتمام النساء الناجحاتِ الوحيد هو المال. قليلون جداً يدركون كمية الألم التي عانينه ليصلن إلى حيث هنّ اليوم.

١٥

نساء "تل الصياح"

مكتبة
t.me/soramnqraa

سنة ١٩٩٥ أُجريت دراسة في الصين تبيَّن من خلالها أنه في مناطق البلد الأكثر ازدهاراً كانت المهن الأربع التي تملك أقصر معدل طول العمر هي مهن عمال المصانع الكيميائية وسائقي شاحنات المسافات الطويلة ورجال الشرطة والصحافيين. فعمال المصانع وسائقي الشاحنات كانوا يعانون من عدم توفر قوانين السلامة الملائمة، وكانت حياة رجال الشرطة الصينيين من أصعبها في العالم: في ظلّ نظام قضائي ضعيف وفي مجتمع كل شيء فيه يتمحور حول السلطة السياسية، كان المجرمون، الذين لديهم علاقات مع أشخاص يتمتعون بالسلطة، غالباً ما يخرجون متبخترين دون عقاب، وكان بعضٌ منهم ينتقم فيما بعد من رجال الشرطة الذين قاموا بإلقاء القبض عليهم. لقد وقع رجال الشرطة في نزاع بين ما يعلمون أنه صواب وبين أوامرهم؛ وكان الإحباط ولوم الذات والحيرة يؤدي بهم إلى الموت المبكر. لكن لماذا الصحافيون، الذين يعيشون حياةً متميّزة نوعاً ما، يشاركونهم نفس المصير؟

شهد الصحافيون في الصين أحداثاً عديدة مريعة ومزعجة، لكن في مجتمع تسيطر فيه مبادئ الحزب على الأنباء، لم يكن ممكناً لهم نقل الوجه الحقيقي لما يشاهدونه. كانوا يُجبرون غالباً على قول وكتابة أشياء لا يوافقون عليها.

عندما أجريت مقابلات مع نساء كنّ يعشن في زواج سياسي خالٍ من أي عواطف ومشاعر، عندما رأيتُ نساء يكافحن وسط الفقر والصعوبات واللواتي

لم يكن بمقدورهن الحصول على صحن حساء أو بيضة ليأكلنها بعض الولادة، أو عندما سمعتُ على آلات تسجيل المكالمات الهاتفية النساء اللواتي لم يجرؤنَ على التحدث إلى أحد عن الضرب الذي يتعرّضن له على أيدي أزواجهنّ، لم يكن بإمكاني مساعدتهنّ في أغلب الأحيان بسبب قوانين البثّ. كنتُ أستطيع فقط ذرف الدموع من أجلهنّ بعيداً عن الأنظار.

عندما بدأت الصين بالانفتاح كان الأمر مثل طفل يموت جوعاً وأخذ يلتهم عشوائياً كل شيء يمكن أن تقع يده عليه. بعد ذلك، عندما رأى العالم الصين في حلّة جديدة سعيدة وناجحة لم تعد تبكي من الجوع، رأى المجتمع الصحفي جسداً متألماً من عسر الهضم. لكنه كان جسداً لا يستطيعون استخدام دماغه لأن دماغ الصين لم يكن قد طوّر بعد خلايا تستطيع استيعاب الحقيقة والحرية. الصراع بين ما يعرفونه وبين ما يُسمَح لهم بقوله خلق بيئة سبّبت المعاناة لهم في صحتهم الفكرية والجسدية.

كان هذا النوع من الصراع هو ما جعلني أتخلّى عن مهنتي الصحافية.

في خريف سنة ١٩٩٦، على أثر عودته من مؤتمر للحزب، أخبرني تشين العجوز أن عدة مجموعات للحد من الفقر أُرسلت إلى شمال غرب الصين وجنوب غرب الصين ومناطق أخرى فقيرة ومتخلّفة اقتصادياً. كان هناك نقص في الموظفين الحكوميين الأكفاء ليقوموا برحلات بحث كتلك، لذلك كانت الحكومة غالباً ما تستعين بالصحافيين البارعين ذوي الخبرة للقيام بجمع المعلومات. قال تشين العجوز إنه ينوي الانضمام إلى مجموعة ذاهبة إلى قاعدة عسكرية قديمة في منطقة في يان إن ليعاين حياة الأشخاص العاديين في يومنا هذا. بحسب تشين، كانت تلك زاوية منسية من قبل الثورة.

رأيتُ في ذلك فرصة لتوسيع معرفتي عن حياة النساء الصينيات وطلبتُ على الفور الانضمام إلى واحدة من تلك المجموعات. وُضعت في المجموعة "الشمالية الغربية"، لكننا كنا في الواقع متوجّهين إلى منطقة في غرب شيان في وسط الصين.

عندما يتكلم معظم الصينيين عن "الشمال الغربي"، فإنهم في الواقع يقصدون وسط الصين، بما أن الصحارى الغربية في البلاد غير موجودة على الخريطة.

بينما كنتُ أوضّب حقائبي من أجل الرحلة، قررتُ أن لا آخذ العديد من الأشياء التي كنتُ أحملها معي عادةً في رحلات تحقيقاتي الصحافية. وقد قررتُ ذلك لسببين: أولاً، ستكون هناك رحلة طويلة مرهقة على الأقدام سنضطّر خلالها لحمل أمتعتنا، ولم أشأ أن أُثقل على أيٍّ من زملائي الصحافيين الرجال بحمولة زائدة من أغراضي إذ سيكونون هم أنفسهم مُنهكين. والسبب الثاني، وكان أكثر أهميةً: أخبرونا أن هضبة الطمي التي سنزورها هي مكان فقير جداً وفكّرتُ أنني سأشعر بالإحراج وأنا أحمل كل أشيائي المريحة تلك أمام الناس هناك الذين لم يروا العالم الخارجي من قبل، والذين على الأرجح لم يعرفوا أيضاً رفاهية الحصول على الدفء والطعام.

اتجهنا أولاً إلى شيان حيث انقسمت المجموعة إلى ثلاث مجموعات. ضمّت مجموعتي أربعة أشخاص آخرين - صحافيَّين وطبيب ودليل مرسل من السلطة المحلية. انطلقنا نحو وجهتنا الأخيرة بحماسة كبيرة. ورغم أني لا أعتقد أن طريقنا كانت الأكثر صعوبة، لكن المنطقة التي رأيناها كانت الأشد فقراً. هناك درجات لا تُحصى من الغنى والفقر، وهي تتجلّى بطرق مختلفة عديدة. خلال رحلتنا، أخذ المنظر أمامنا يصبح أبسط فأبسط: الأبنية العالية وهرج الأصوات البشرية وألوان المدينة الزاهية راحت تدريجياً تحلّ محلّها بيوت منخفضة من الطوب أو أكواخ الطين وسحابة من الغبار وفلاحون يرتدون ملابس رمادية موحّدة. وعندما توغلنا أكثر في رحلتنا أصبح من النادر رؤية إنسان أو أي نشاط بشري. كانت أرض الهضبة البكر الصفراء مصقولة بسبب دوّامات العواصف الترابية التي لم نستطع خلالها أن نفتح أعيننا جيداً أو أن نرى جيداً. كان شعار بعثتنا: "مساعدة أكثر الناس فقراً في أكثر المناطق فقراً". مساعدة أفقر الناس في أفقر الأماكن. عندما نقول أفقر نعني أقصى درجات الفقر، لكن من الصعب تحديد نسبة المقارنة التي نعني بها أقصى.

كل مرة نصادف فيها حالة قصوى، لا يمكننا أن نتيقّن أبداً إن كانت بالفعل هي القصوى، لكنني حتى هذا اليوم لم أشهد في حياتي حالة فقر يمكن مقارنتها بتلك التي رأيتها خلال هذه الرحلة.

بعد أن أمضينا يومين ونصف ونحن نترجرج في سيارة جيب عسكرية، وعندما أعلن الدليل أخيراً أننا وصلنا، فكرنا كلنا أننا أخطأنا بقرار المجيء إلى هناك. فنحن لم نرَ خلال هذين اليومين حتى خيال إنسان، ناهيكم عن ذكر قرية في المناظر الطبيعية المحيطة بنا. كانت سيارة الجيب تتعرّج عبر تلال قاحلة، وقد توقفت بجانب تلٍّ ضخمٍ نسبياً. بعد معاينة المكان عن كثب وجدنا أن مساكن كهفية حُفرت على جانب التل. عرّف الدليل عن هذا بالمكان الذي أردنا المجيء إليه قائلاً إنها المرة الأولى التي يأتي بها إلى هنا هو أيضاً. تعجّبتُ للأمر وفكرت كثيراً في اسم القرية الغريب.

جذب هدير صوت سيارة الجيب بعض القرويين الفضوليين إلى الخارج. أحاطوا بالمركبة وبدأوا يُدلون بكل أنواع التعليقات ناعتين سيارة الجيب بـ"الحصان الذي يشرب الزيت"؛ وراحوا يتساءلون أين اختفى ذيلها الأسود بعد أن توقّفت وأخذ الأولاد يثرثرون حول كيفية إيجاده. أردتُ أن أشرح لهم أن الذيل تشكّل بسبب الدخان الخارج من العادم، لكن كبار القرية وصلوا ليرحّبوا بنا وليرافقونا إلى مسكن كهفي هو بمثابة مقرّ القرية الرئيسي.

أمضينا اللقاء الأول كله في تبادل التحيّات التقليدية. كان علينا أن نركّز جداً لنفهم بعضنا بعضاً بسبب الاختلافات الإقليمية في اللغة واللهجة، فلم أتمكن من مراقبة البيئة المحيطة بنا عن كثب. أقاموا لنا مأدبة ترحيبية: بعض قطع من الخبز المصنوع من الطحين الأبيض، ووعاءً من عصيدة خفيفة من الطحين الأبيض بالإضافة إلى صحن من البيض المقلي بالفلفل الحار. اكتشفتُ لاحقاً أن السلطة الإقليمية طلبت من الدليل إحضار البيض معه من أجلنا.

بعد تناولنا الطعام أرشدونا على ضوء ثلاث شموع إلى مكان إقامتنا. حصل

الصحافيَّيْن على كهفٍ خاصٍّ بهما، وأقام الطبيب مع رجلٍ عجوز، أما أنا فتشاركتُ الكهف مع فتاة صغيرة. لم أتمكن من رؤية داخل الكهف جيداً على ضوء الشموع، لكن رائحة اللحاف الجيدة كانت تدلّ على أنه قد شُمِّسَ جيداً. رفضتُ بأدب مساعدة القرويين الذي رافقوني إلى هناك، ثم فتحت حقيبتي. عندما كنتُ على وشك سؤال الفتاة عن مكان يمكنني الاغتسال فيه، وجدتُ أنها كانت قد صعدت إلى الكانغ (السرير). تذكرتُ ما أخبرنا به الدليل خلال رحلتنا إلى هنا: كان الماء في هذا المكان ثميناً جداً لدرجة أن إمبراطوراً لن يتمكن من غسل وجهه وتنظيف أسنانه يومياً.

خلعتُ ملابسي وصعدتُ إلى الجزء من الكانغ الذي كان واضحاً أنه قد تُرك لي. كنتُ أريد أن أمضي بضع دقائق في التحدث إلى الفتاة، لكنها كانت قد بدأت تشخر قليلاً. لم يبدُ وجود ضيف شيئاً جديداً بالنسبة لها، بل نامت على الفور. كنتُ منهكة، كما أنني كنتُ قد تناولت أقراصاً كي لا أصاب بدوار بسبب السفر بالسيارة، لذلك غفوتُ أنا أيضاً بسهولة. كان زملائي يحسدونني جداً على قدرتي على النوم في أماكن غريبة غير مألوفة، وكانوا بسبب ذلك يقولون إنني صحافية بالفطرة. فهم كانوا ما إن يتأقلموا في مكان ما حتى يضطروا للانتقال إلى مكان آخر حيث يعانون الأرق مجدداً. كانت رحلة تحقيق صحافي طويلة بمثابة تعذيب بالنسبة لهم.

أيقظني شعاعٌ خفيف تسلل إلى البيت الكهف. ارتديتُ ملابسي وخرجت فوجدت الفتاة الصغيرة تقوم بإعداد الفطور.

بدا وكأن السماء والأرض قد اندمجتا. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، لكن أشعتها كانت قد بدأت تتسرب من مسافة بعيدة فوق اللوحات الشاسعة، تلمس الحجارة فوق التلال وتنزلق ذهباً على الأرض الصفراء الرمادية. لم أرَ في حياتي قط فجراً جميلاً بهذا الشكل. فكرّتُ بإمكانية السياحة التي ستساعد هذه المنطقة على التخلص من فقرها. شروق الشمس الرائع على هضبة الطمي هذه كان يضاهي ذلك الشروق الذي كان الناس يتسلقون قمة جبل تاي لرؤيته أو يسرعون إلى البحر

ليروه. فيما بعد، عندما ذكرتُ أن أولئك الأشخاص يجب أن يأتوا إلى "تل الصياح" عوضاً عن الذهاب إلى تلك الأماكن، طرد صبي مراهق فكرتي على أنها جهل تام: لا يملك التل الصارخ الماء الكافي لأهل القرية فكيف سيتمكن من تأمين ماء يكفي جيشاً من الزوار؟

أعادني الدخان الخانق المتصاعد من النار التي تطبخ عليها الفتاة من حلم يقظتي. كانت تنبعث رائحة كريهة من روث البقر المجفف الذي كانت تستعمله لإشعال النار. كانت النار قد أُشعلت بين بضعة أحجار كبيرة حيث وضعت الفتاة فوقها قِدْراً وحجراً مسطّحاً. كانت تصنع في القِدْر عصيدة رقيقة من الطحين وتحمّص على الحجر خبزاً رقيقاً. كان اسم الفتاة نيوإير (فتاة)، وقد أخبرتني أن الروث كان وقودهم الوحيد للتدفئة خلال فصل الشتاء. أحياناً، في حالات الموت أو الزواج أو زيارات الأهل والأصدقاء، كانوا يشعلون الروث لنار الطبخ وذلك كتعبير مخلص عن الصداقة. كان مصدر وقودهم العادي يأتي من جذور عشب الكوغون (نوع من العشب متوافر في أرض قاحلة للغاية يتألف من مجموعة جذور وبعض الأوراق القصيرة الأجل فقط)، وكانوا يستعملونه لتسخين كمية قليلة من الماء من أجل صنع العصيدة. أما الخبز الرقيق (مو) فكان يُخبز مرة في السنة على حجارة التل الحارقة في فصل الصيف، يقومون بعدها بتخزينه تحت الأرض، ويكون جافاً وقاسياً لدرجة أنه كان يدوم فترة سنة تقريباً. كانوا يكرّمونني بتقديم خبز "المو" لي، إذ لم يكن يحق سوى للرجال الذين يقومون بأعمال الزراعة بتناول خبز "المو". كان الأطفال والنساء يعيشون على عصيدة القمح الرقيقة - لقد جعلتهم سنوات النضال الطويلة يعتادون الجوع. قالت نيوإير إن أعظم شرف ووجبة في حياة المرأة كانت حصولها على وعاء من البيض الممزوج بالماء عندما تنجب ابناً. فيما بعد، تذكّرتُ ذلك عندما سمعتُ إحدى النسوة اللواتي كن يتشاجرن تقول لأخرى: "وأنتِ كم وعاءً من البيض والماء أكلتِ في حياتك؟".

بعد الفطور المميز المؤلف من العصيدة وخبز المو في اليوم الأول، انطلقت

مجموعتنا إلى العمل. شرحتُ لكبار القرية أنني أريد أن أجري تحقيقاً عن نساء "تل الصياح". هزّ كبار القرية، الذين لم يكونوا يستطيعون حتى كتابة أسمائهم لكنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مثقفين، رؤوسهم مصدومين وقالوا: "ماذا هناك ليُقال عن النساء؟".

أصرّيتُ فأذعنوا في آخر الأمر. بالنسبة إليهم كنتُ أيضاً امرأة لا تفهم شيئاً لكنها كانت ببساطة تتبع خطى الرجال وتحاول أن تتفاخر ببعض الأمور الجديدة. لم أنزعج من موقفهم. فقد علّمتني السنوات العديدة التي أمضيتها كصحافية أن الوصول إلى مصادري كان أهم بكثير من رأي الآخرين بي.

عندما سمعتُ الاسم "تل الصياح" لأول مرة شعرتُ بحماسة تتعذّر تسميتها وبإحساس بأن زيارتي إلى ذلك المكان كان مقدّراً حصولها. استحضر الاسم في ذهني مكاناً مزدحماً تملأه الحركة ويضجّ بالحياة، تماماً عكس ما هو عليه في الحقيقة. كان التل ذو الأرض الصفراء ينتصب في منظر طبيعي من الأرض المقفرة والرمال والحجارة. لا يوجد فيها أبداً ما يدل على تدفق المياه أو على حياة نباتية خضراء. الخنفساء الصغيرة المسرعة التي نادراً ما نراها كانت تبدو كأنها تلوذ بالفرار من تلك الأرض القاحلة.

يقع "تل الصياح" في حزام الأرض حيث كانت الصحراء تخرق هضبة الطمي. طوال السنة تعصف الريح فيها دون تعب كما كانت تفعل منذ آلاف السنين. من الصعب في غالب الأحيان أن يرى المرء أبعد من بضع خطوات أمامه في العاصفة الرملية، وكان القرويون الذين يزرعون التل يتواصلون مع بعضهم عن طريق الصياح. لهذا السبب يشتهر أهل "تل الصياح" بأصواتهم العالية الرنّانة؛ لم يستطع أحد أن يؤكد إن كان هذا ما أدى إلى تسمية تل الصياح بهذا الاسم، لكني اعتقدتُ أنه سبب محتمل. إنه مكان منعزل تماماً عن العالم الحديث: عشر عائلات أو عشرون يملكون أربع كنيات فقط ويعيشون في مساكن كهفية صغيرة ومنخفضة. تُقدّر قيمة النساء فيه فقط لفائدتهن: كأدوات للتناسل، ويشكّلن جزءاً ثميناً من

حياة القرويين التجارية. لا يتردّد الرجال في مقايضة فتاتين أو ثلاث بزوجة من قرية أخرى. كانت مقايضة امرأة من العائلة بزوجة لرجل في العائلة من قرية أخرى ممارسة شائعة، لذلك فإن معظم نساء تل الصياح هن من خارج القرية. وبعد أن يصبحن أمهات يُجبَرن بدورهنّ على التخلي عن بناتهن. لا تملك النساء في تل الصياح أي حق في التملك أو الإرث.

كما كانت هناك ممارسة اجتماعية شاذّة في تل الصياح هي تشارك الزوجة من قبل عدة رجال في معظم الحالات: إخوة من عائلات مدقعة الفقر لا تملك أي إناث ليقايضوا بهن كانوا يشترون زوجة مشتركة من أجل استمرارية نسل العائلة. في النهار كانوا يستفيدون من الطعام الذي تعدّه المرأة ومن الأعمال المنزلية التي تقوم بها، وفي الليل يستمتعون بجسدها بالتناوب. عندما تنجب المرأة، هي نفسها لا تعرف هوية والد الطفل. بالنسبة إلى الطفل، الإخوة هم البابا الكبير، البابا الثاني، البابا الثالث، البابا الرابع، وهكذا دواليك. لا ينظر القروين إلى هذه الممارسة على أنها غير قانونية لأنها تقليد ثابت متوارث عن الأجداد مما يجعله أقوى سلطةً من القانون بالنسبة إليهم. لا يهزأون من الأولاد المتعددي الآباء لأنهم يتمتعون بحماية وملكية عدة رجال، ولا يشعر أي منهم بالشفقة على الزوجات المشتركات؛ بالنسبة إليهم، وجود النساء مبرر تبعاً لفائدتهنّ.

لا يهم إن كانت النساء أصلاً من قرية مختلفة، فهنّ سرعان ما يبدأن ممارسة التقاليد التي توارثتها الأجيال في تل الصياح. يعشنَ حياةً قاسية جداً، وفي منازلهن الكهفية، المؤلفة من غرفة واحدة يشغل "الكانغ" نصفها، تتألف أدواتهم المنزلية من بضعة ألواح حجرية وحُصُر من العشب وأوعية فخارية بدائية؛ يعتبر إبريق الماء الخزفي دلالة على الرفاهية عند "العائلات الثرية". ألعاب للأطفال أو أي أدوات منزلية خاصة باستعمال النساء غير وارد التفكير بها في مجتمعهم. ولأن النساء يُشترين بعملة قرابة الدم فعليهنّ أن يتحمّلن سخط ونقمة أفراد العائلة الذين يفتقدون بناتهم أو أخواتهم، وهن مجبرات على العمل ليلاً ونهاراً ليومنّ

الطعام والشراب والاحتياجات اليومية الأخرى للعائلة كلها.

النساء هنّ من يستقبلن الفجر في تل الصياح: عليهن القيام بإطعام الماشية وكنس الباحة وصقل وإصلاح أدوات أزواجهن الصدئة. وبعد أن يودّعن رجالهن الذاهبين إلى العمل في الأرض يجب أن يأتين بالماء من جدول خطر في الجانب الآخر من الجبل، ويبعد مسافة ساعتين على الأقدام، وهنّ يحملن زوجين من الدلاء الثقيلة على أكتافهن. عندما يكون موسم عشب الكوغون، النساء هن اللواتي يتسلّقن التل ليقتلعنَ الجذور من أجل استعمالها وقوداً للطبخ. بعد الظهر، يأخذن الطعام إلى رجالهن؛ وعندما يرجعن يقمن بغزل الخيوط ونسج القماش وصنع الثياب والأحذية والقبعات للعائلة. طوال اليوم يحملن على ظهورهنّ أو بين أذرعهن أطفالاً صغاراً، في كل مكان تقريباً.

في تل الصياح، كلمة "استخدام" هي الكلمة التي يستعملها الرجال عندما يريدون مضاجعة امرأة. حين يعود الرجال إلى المنزل عند الغسق ويريدون "استخدام" زوجاتهم، غالباً ما يصيحون في وجوههنّ بنفاذ صبر قائلين: "لم كل هذا التباطؤ؟ هل صعدت إلى 'الكانغ' أم بعد؟". وبعد أن يتمّ "استخدامهنّ" ترتب النساء أنفسهن ويذهبن للعناية بالأطفال بينما يعلو شخير الرجال. فقط عند حلول الليل تتمكن النساء من الحصول على بعض الراحة إذ يختفي الضوء ولا يعود بإمكانهنّ العمل. عندما حاولتُ أن أختبر جزءاً ضئيلاً من حياة هاته النساء، من خلال المشاركة في مهامهن المنزلية اليومية لفترة قصيرة، وجدتُ أن إيماني في قيمة الحياة قد تضعضع بشدّة.

اليوم الوحيد الذي تستطيع فيه المرأة أن تشعر بالفخر هو يوم تنجب صبياً. مبللةً بالعرق بعد عذاب المخاض والولادة، تسمع الكلمات التي تملؤها بالفخر والرضا: "لقد أنجبته!" هذا أعلى امتنان أو إقرار بإنجاز ستحصل عليه في حياتها من زوجها، وتكون المكافأة المادية وعاءً من البيض مع السكر والماء الدافئ. ليس هناك أي إجحاف بحق المرأة التي تنجب فتاة، لكنها لا تحصل على هذه الوجبة.

تملك قرية تل الصياح بنية اجتماعية فريدة، لكنها لا تختلف عن بقية الصين فيما يتعلق بالاعتزاز بالأبناء وتقديرهم أكثر من البنات.

خلال أيامي الأولى القليلة في تل الصياح تساءلتُ لماذا كان معظم الأطفال الذين يلعبون في الجوار أو يساعدون النساء المنهمكات في أعمال المنازل الكهفية فتيان وظننتُ أنها قرية أخرى من تلك القرى التي تمارس وأد الفتيات، لكني فيما بعد اكتشفتُ أن السبب يعود إلى نقص في الملابس. فعندما تحصل عائلة على ثياب جديدة، مرة كل ثلاث أو خمس سنوات، يلبسونها للفتيان أولاً، وغالباً ما يتركون مجموعة واحدة فقط من الثياب لتتشاركها عدة أخوات، ويجب أن تناسب كل واحدة منهنّ. كانت الأخوات يجلسن على 'الكانغ' مغطّاة بغطاء كبير ويرتدين الثياب بالتناوب ليذهبن إلى الخارج لمساعدة أمهاتهنّ.

كانت هناك عائلة مؤلفة من ثماني بنات يتشاركن سروالاً واحداً وكان مغطى بالرقع لدرجة أن القماش الأساسي لم يعد مرئياً. كانت والدتهنّ حاملاً بولدها التاسع، لكن 'الكانغ' الموجود في منزل هذه العائلة لم يكن أكبر من 'كانغ' العائلات اللواتي لديها ثلاث أو أربع أولاد. كانت الفتيات الثماني يجلسن على الكانغ بالقرب من بعضهن البعض يخطن الأحذية في تقسيم دقيق للعمل مثل خط تجميع في ورشة عمل صغيرة. كنّ يضحكنَ ويثرثرنَ بينما يعملن. كلما تحدّثتُ إليهنّ كنّ يتكلمن عمّا سمعوا ورأوا في اليوم الذي "ارتدوا فيه ملابس". كانت كل فتاة تعدّ الأيام في انتظار اليوم الذي يحين فيه دورها لارتداء الملابس. كن يثرثرن بفرح عن أي عائلة تحضّر لزفاف أو جنازة أو ولد لها ابن أو ابنة، عن أي رجل يضرب زوجته، أو من قام بشتم من. كن يتكلّمن في الغالب عن الذكور في قريتهن؛ حتى الآثار على الأرض حيث تغوّط صبي صغير كانت موضوعاً للحديث والضحك. لكني، خلال الأسبوعين اللذين أمضيتهما معهنّ، لم أسمعهنّ أبداً تقريباً يتكلّمن عن النساء. وعندما تقصّدتُ التحدّث عن مواضيع مثل تسريحات الشعر والثياب والقوام ومساحيق التجميل أو أي أمور أخرى تهتمّ لها النساء في العالم الخارجي، كانت

الفتيات في أغلب الأحيان لم تكن لديهن أي فكرة عما أتحدّث. كانت الطريقة التي تعيش بها النساء في تل الصياح هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يتخيّلنها. لم أجرؤ على إخبارهن عن العالم في الخارج، أو عن الطريقة التي تعيش بها النساء هناك، لأنني كنتُ أعلم أن العيش مع معرفة ما لن يتمكنّ من الحصول عليه أبداً سيكون مأساوياً أكثر بكثير من الحياة التي يعشنها.

لاحظتُ ظاهرة غريبة بين النساء في تل الصياح: عندما يبلغن سن المراهقة تقريباً كانت مشيتهنّ تصبح فجأةً غريبةً جداً. كن يبدأن بإبعاد أرجلهن بشكل واسع عندما يمشين وهن يتأرجحن في شكل قوس مع كل خطوة. لم يكن هناك أي ميل عند الفتيات الصغيرات لفعل هذا. أصابتني الحيرة بسبب هذا اللغز في الأيام القليلة الأولى لكني لم أشأ أن أستفهم عن الأمر كثيراً. أملتُ أن أجد الجواب بطريقتي الخاصة.

كان من عادتي أن أرسم المناظر الطبيعية التي أرى أنها تجسّد كل مكان كنت أقوم بتحقيق صحافي عنه. لم أحتج أي لون لأرسم تل الصياح، بضعة خطوط كانت كافية لتُظهر ملامحه الأساسية. وبينما كنتُ أرسم لاحظتُ وجود بضعة أكوام من الحجارة لا أذكر أني رأيتها من قبل. كان معظمها في بقع بعيدة يصعب الوصول إليها. وعندما تفحّصتها عن كثب وجدتُ أوراق شجر حمراء مسودّة تحت تلك الحجارة. لا ينمو في تل الصياح إلا عشب الكوغون؛ فمن أين أتت هذه الأوراق؟

تفحّصتُ الأوراق باهتمام: كان طول معظم تلك الأوراق عشرة سنتيمترات وعرضها خمسة سنتيمترات. كان واضحاً أنها قُطعت بهذا الحجم وبدا أنها ضُربَت وفُرِكَت باليد. كانت بعض الأوراق أكثر سماكةً قليلاً من غيرها وكانت رطبة الملمس وذات رائحة مثل رائحة السمك. بعض الأوراق الأخريات كانت جافة تماماً بسبب ضغط الحجارة وحرّ الشمس الحارقة؛ لم تكن هذه الأوراق هشة بل قاسية وكانت لها أيضاً نفس الرائحة المالحة الحادة. لم أرَ قط من قبل مثل هذه الأوراق. تساءلتُ عن سبب استخدامها وقررتُ أن أسأل القرويين عنها.

قال الرجال: "تلك أمور تخص النساء!" ورفضوا قول المزيد.

هزّ الأطفال رؤوسهم في حيرة وقالوا لي: "لا نعرف ما هي، الماما والبابا يقولان إننا لا يجب أن نلمسها".

أما النساء فلم يجبن، بل أخفضن رؤوسهنّ بصمت.

عندما لاحظت نيوإير حيرتي حول مسألة هذه الأوراق قالت لي: "اسألي جدّتي عن هذه الأوراق وستخبرك". لم تكن جدّة نيوإير كبيرة في السن، لكن الزواج المبكر والولادة جعلاها من جيل كبار القرية.

شرحت لي جدّتها ببطء أن النساء يستعملن هذه الأوراق خلال عادتهنّ الشهرية. فعندما يجيء الطمث للفتاة للمرة الأولى، أو عندما تتزوج المرأة، تقدّم لها أمها أو امرأة أخرى من الجيل الأكبر هذه الأوراق هدية. كانت هذه الأوراق تُجمع من أشجار بعيدة جداً، وتقوم النساء الأكبر سناً بتعليم الفتيات كيفية استخدام هذه الأوراق. أولاً، يجب أن تُقطع كل ورقة بحجم معيّن كي يمكن وضعها داخل السروال، وبعد ذلك يجب ثَقْب الأوراق ثقوباً صغيرة بواسطة خرّامة لجعلها أكثر امتصاصاً. كانت الأوراق مطاطية نسبياً وذات ألياف سميكة جداً كانت تنتفخ وتصبح كثيفة عندما تمتّص الدم. في منطقة حيث الماء نادر وثمين جداً، لم يكن لديهنّ أي خيار إلا رشّ الأوراق وتجفيفها بعد كل استعمال. تستخدم المرأة أوراقها العشرة من أجل عادتها الشهرية شهراً بعد شهر، حتى بعد الولادة. تشكّل أوراقها الممتلكات القيّمة الوحيدة التي تُدفن معها.

قايضتُ جدّة نيوإير ببعض الفوط الصحية التي كنت أحملها معي مقابل واحدة من تلك الأوراق. امتلأت عيناي بالدموع عندما لمستُ الورقة: كيف يمكن لورقة الشجر الخشنة هذه والقاسية حتى على اليد أن توضع في أنعم وأدّق مكان في جسد المرأة؟ عندها فقط أدركتُ لماذا تمشي النساء في التل الصارخ مشيةً مفلطحة: كانت أفخاذهنّ مجروحة وتملأها الندبات بسبب استعمالهن أوراق الشجر بصورة متكررة.

كان هناك سبب آخر لمشية نساء تل الصياح الغريبة، وقد صعقني أكثر من سبب استعمال أوراق الأشجار.

في الصينية المكتوبة تتألف كلمة 'رحم' من حرفي كلمتي 'قصر' و'أطفال'. كل امرأة تقريباً تعلم أن الرحم هو أحد أهم أعضائها الأساسية، لكن النساء في تل الصيا لا يعرفن حتى ما هو الرحم.

أخبرني الطبيب الذي أتى معنا أن أحد القرويين طلب منه فحص زوجته إذ إنها حملت عدة مرات لكنها لم تتمكن أبداً من إنهاء مدة الحمل. بعد أن حصل الطبيب على إذن القروي الخاص، فحص الطبيب المرأة وصُعق عندما وجد رحمها متدلياً (خارج موضعه الطبيعي). الاحتكاك والالتهاب على مدى سنوات طويلة أدّيا إلى تصلّب جزء الرحم الذي كان يتدلّى خارجاً مثل كرة لزجة وجعلاه قاسياً مثل كزائدة لحمية. لم يتمكن الطبيب بكل بساطة أن يتخيّل السبب الذي أدّى إلى ذلك. تفاجأت المرأة من ردّ فعله وأخبرته مستنكرةً أن كل النساء في تل الصيا كذلك. طلب مني الطبيب مساعدته في تأكيد هذا الأمر؛ بعد بضعة أيام أكّدتُ له حقيقة ما قالته تلك المرأة بعد أن أمضيتُ وقتاً طويلاً في مراقبة نساء القرية خفيةً وهنّ يتغوّطن. كان الرحم المتدلّي سبباً آخر لسير النساء منفرجات الأرجل.

في تل الصياح لا تتم مقاومة مجرى الطبيعة ويملكون مفهوماً غريباً جداً لإنشاء عائلة. تُعامل النساء كآلة للتكاثر وتنجب الواحدة منهن طفلاً كل سنة أو ثلاثة كل سنتين. بقاء الأطفال على قيد الحياة ليس مضموناً. على حد علمي، السبب الوحيد للحدّ من تنامي العائلات هو وفيات الأطفال الرضّع أو الإجهاضات التي سببها الانهاك.

رأيتُ العديد من النساء الحوامل في تل الصيا، لكن لم يكن لديهنّ أي شعور توّاق بترقب طفل بينهن أو بين الرجال. حتى عندما تكون النساء حوامل بأشهرهنّ الأخيرة، كان يجب أن يعملن كالعادة وأن يُستخدَمنَ من قبل الرجل الذين يقولون إن "الأطفال الذين يقاومون السحق هم أقوياء كفاية". روّعني كل ذلك، بخاصة

فكرة "استخدام" الزوجات المشتركات من قبل عدة رجال طوال فترة حملهنّ. الأطفال الذين تنجبهم النساء هم حقاً أقوياء جداً: بلا ريب، كان مفهوم "البقاء للأقوى" مفهوماً حقيقياً في تل الصياح. هذه الذرائعيّة الوحشية أدّت إلى التسبب بتدلي أرحام نساء القرية الناكرات للذات والباسلات بذلك الشكل المريع.

في المساء التالي لتثبّتي من أن الأرحام المتدلية هي ظاهرة يومية في تل الصياح، لم أتمكن من النوم لمدّة طويلة جداً. كنتُ أستلقي على 'الكانغ' وأذرف الدمع على تلك النساء اللواتي ينتمين إلى زمني وإلى جيلي. واقع أن النساء في تل الصياح لا يملكن أي مفهوم للمجتمع الحديث، ناهيك عن أي وعي لحقوق المرأة، كان سبب ارتياحٍ بسيط؛ كانت سعادتهنّ تكمن في جهلهنّ وفي عاداتهنّ وقناعتهنّ بأن كل النساء في العالم يعشن بنفس الطريقة التي يعشن هنّ بها. إخبارهنّ عن العالم الخارجي كان بمثابة نزع الندبة عن يد أنهكها العمل الشاق وترك الأشواك تخز الجلد الطري.

في اليوم الذي غادرتُ فيه تل الصياح اكتشفتُ أن الفوط الصحية التي أعطيتها لجدّة نيوإير كتذكار كانت محشورة في أحزمة أبنائها؛ كانوا يستعملونها كمنشفة ليمسحوا بها عرقهم أو لحماية أيديهم.

قبل زيارتي تل الصياح كنت أعتقد أن النساء الصينيات من كل المجموعات الإثنية هن متّحدات، وأن كلٌّ منهن تتطور بطريقة فريدة، لكنها في الحقيقة تماشي خطوات الزمن. لكن خلال الأسبوعين اللذين أمضيتهما في تل الصياح، رأيتُ أمهات وبنات وزوجات يبدو أن التاريخ تركهنّ خلفه منذ بدايته، يعشن حياةً بدائية في العالم الحديث. أقلقني وضعهنّ. هل سيتمكنّ أبداً من اللحاق بالآخرين؟ لا يستطيع المرء الوصول إلى نهاية التاريخ بخطوة واحدة، كما أن التاريخ لن ينتظره. لكن عندما عدتُ إلى المكتب ووجدتُ أن رحلات كالتي قمنا بها كانت تسلّط الضوء على المجتمعات المحجوبة وتسترعي انتباه بقية المجتمع إليها شعرتُ أنني على مشارف بداية ما. كانت هذه البداية تشتمل على أملي، فربما كانت هناك طريقة ما لمساعدة نساء تل الصياح على التقدم أسرع بقليل...

استمع بيغ لي إلى قصتي عن النساء في تل الصياح، ثم سألني: "هل هنّ سعيدات؟".

هتفت مانغشينغ قائلةً: "لا تكن سخيفاً! كيف يُعقل أن يكنّ سعيدات؟".

قلتُ لمانغشينغ إن من بين مئات النساء الصينيات اللواتي تحدّثتُ إليهن خلال عشر سنوات من البثّ والعمل الصحافي، كانت نساء تل الصياح الوحيدات اللواتي قلن لي إنهن سعيدات.

الخاتمة

في شهر آب/أغسطس من سنة ١٩٩٧ انتقلتُ للعيش في لندن. كان لما اختبرته في تل الصياح أثّر قوي جداً علي. شعرتُ أنني بحاجة لتنفس هواء جديد - بحاجة لأن أختبر العيش في مجتمعٍ حر. في الطائرة المتوجهة إلى لندن جلست إلى جانب رجل أخبرني أنه عائد من زيارته السابعة للصين. كان قد زار كل المواقع التاريخية المهمة. تحدّث بمعرفة عن الشاي والحرير والثورة الثقافية. سألته من باب الفضول ماذا يعرف عن وضع النساء الصينيات في المجتمع، فأجاب أن الصين بدت له كمجتمعٍ متساوٍ جداً: حيثما ذهب كان يرى الرجال والنساء يقومون بنفس العمل.

صعدتُ إلى الطائرة مع فكرة إمكانية إيجاد طريقة لوصف حياة النساء الصينيات للناس في الغرب، وفجأةً، وأمام معرفة هذا الرجل المحدودة جداً، بدت المهمة مخيفة أكثر مما توقعت. إذ سأضطر للعودة بذاكرتي إلى الماضي البعيد لألتقط من جديد كل القصص التي جمعتها خلال كل تلك السنوات. كان عليّ أن أسترجع كل تلك المشاعر التي أحسست بها عندما استمعتُ إليهن في المرة الأولى ومن ثم أحاول إيجاد أفضل الكلمات لوصف كل البؤس والمرارة والحب مما عبّرت عنه تلك النساء. وحتى عند ذلك لم أكن متأكدة من كيفية فهم القارئ الغربي لهذه القصص. بما أنني لم أزر الغرب من قبل، لم أكن أملك فكرة كافية عن مدى ما يعرفه الناس هناك عن الصين.

بعد أربعة أيام من وصولي إلى لندن توفيت الأميرة ديانا. أتذكر كيف كنت

واقفة عند منصة محطة قطار إيلنغ برودواي محاطةً بأناس يحملون باقات من الأزهار التي كانوا سيضعونها عند بوابات قصر باكينغهام. لم أستطع مقاومة الحس الصحافي فسألت امرأةً من الحشد واقفةً إلى جانبي عمّ كانت الأميرة ديانا تعني لها. أخذنا نتكلم عن وضع النساء في المجتمع البريطاني، وبعد قليل سألتني عن حياة النساء في الصين. قالت: "بالنسبة إلى الغربيين، إن المرأة الصينية العصرية ما زالت ترتدي حجاباً قديماً". كانت تعتقد أن من المهم محاولة رؤية ما يوجد خلف الحجاب. ألهمتني كلماتها. ربما هناك جمهور مهتم في الغرب بقصصي. بعد ذلك، عندما ذهبت لأعمل في مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية، شجعني أشخاص آخرون على الأمر. أخبرتُ إحدى المدرسات عن بعض المقابلات التي أجريتها فأصرّت أنّ عليّ كتابتها، وقالت إن معظم الكتب التي كُتبت حتى اليوم تناولت عائلات صينية معينة؛ أما هذه القصص فستعطي منظوراً أوسع نطاقاً.

لكن اللحظة الحاسمة التي قررت فيها أن أقوم بكتابة هذه القصص كانت عندما جاءتني فتاة في الثانية والعشرين من عمرها تطلب المساعدة. كانت تدرس في مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية. أتت في أحد الأيام وجلست إلى جانبي في مقصف الطلاب. كانت مكتئبة. والدتها تتصل بها يومياً دون أي اعتبار لتكلفة المكالمات الهاتفية الخارجية لتحذّرها من أن الرجال الغربيين "همجيون جنسيون" وأنها لا يجب أن تدعهم يقتربون منها. غير قادرة على الالتجاء إلى أحد للمشورة، كانت يائسة للحصول على أجوبة لأكثر الأسئلة بساطةً عن العلاقة بين الرجال والنساء. هل تفقد الفتاة عذريتها إذا قبّلت رجلاً؟ لماذا يلمس الرجال الغربيين النساء كثيراً وبهذه السهولة؟

كان هناك طلاب يجلسون في المقصف بالقرب منا وكانوا يدرسون الصينية ففهموا ما قالته. أخذوا يضحكون غير مصدقين أن هناك أحد بريء بهذا الشكل، لكنني تأثرتُ جداً لتعاستها. هنا، بعد عشر سنوات من مراسلة شياو يو إياي

تسألني إن كان الحب يعتبر جريمة ضد الآداب العامة وانتحرت عندما لم أجبها، كانت فتاة أخرى أمها مسؤولة عن إبقائها في وضعٍ من الجهل الجنسي التام. لم يكن الطلاب الغربيون الذين كانوا يدرسون معها، والذين كانوا يعانقون بعضهم بعضاً بكل سهولة ودون أي تفكير، يملكون أي فكرة عما كانت تعانيه. في الواقع، في الصين، هناك العديد من الشابات اللواتي يملكن الخبرة الجنسية - واللواتي يعشن في المدينة عادةً - سيسخرن منها. لكنني تكلمت من قبل مع نساء عديدات كن في نفس الموقف. بعد صرخة استغاثتها بدا لي ضرورياً أكثر أن أستعمل دموعهنّ ودموعي لأخلق مساراً نحو الفهم والوعي.

تذكّرتُ ما قاله لي تشين العجوز مرةً: "شينران، يجب أن تدوّني كل هذا. الكتابة هي نوع من مخزن ويمكنها المساعدة على خلق مساحة لإقامة أفكار ومشاعر جديدة. إن لم تدوّني هذه القصص فسوف تملأ قلبك وتكسره". في ذلك الوقت، في الصين، كان من المحتمل جداً أن أدخل السجن بسبب كتاب كهذا. لم أستطع المخاطرة بترك ابني أو التضحية بالنساء اللواتي تلّقين العون والتشجيع من خلال برنامجي الإذاعي. في إنكلترا، أصبح تأليف هذا الكتاب ممكناً. كأنّ قلماً نما في قلبي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلمة شكر

أود أن أشكر:

بان بان، لإتاحته لي الوقت للكتابة؛

والدَيّ، لمساعدتي على فهم أمور أكثر عن الصينيين؛

طوبي إيدي، لمنحي قلبه ويده لمساعدتي في إنتاج هذا الكتاب؛

إستير تيلديسلي، لترجمتها المشبعة بخبرتها عن الصين وتعاطفها مع الصين؛

كريستين سلانتشكا، لإضافة معرفتها عن الصين إلى المسوّدة الأولى؛

ريبيكا كارتر، لاهتمامها بفهم الصين ولتحريرها الدقيق للنص؛

مين واي دينغ، للسماح لي بمعرفة ما يفكر به الشباب بخصوص الصين؛

النساء الصينيات، لجعلي أشعر بالفخر لما قمتُ به؛

وأنتم، لقراءتكم وتجاوبكم مع هذا الكتاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"كتاب لا ينسى."
The Times

"بارز ومهم"
Observer

لثماني سنوات متواصلة قدمت شينران برنامجاً إذاعياً في الصين دعت من خلاله النساء للاتصال والتكلم عن أنفسهن. أصبح برنامج "كلمات على نسيم الليل" المسائي اليومي مشهوراً في جميع أنحاء البلاد بوصفه الثابت لما يعني أن تكون المرأة امرأةً في الصين الحديثة. قرون من الخضوع لآبائهن وأزواجهن وأبنائهن، تبعتها سنين من الاضطراب السياسي جعلت النساء يخشين التكلّم جهراً عن مشاعرهنّ. حازت شينران على ثقتهن، ومن خلال تعاطفها وقدرتها على الإصغاء أصبحت أول امرأة تستمع إلى قصصهن الحقيقية.

يخبر هذا الكتاب كيف تخطّت شينران القيود المفروضة على النساء الصينيات الصحفيات لتصل إلى نساء كثيرات عبر البلاد. بأسلوب حيوي وحميم تشارك تلك النساء القارئ أسرارهن العميقة للمرة الأولى. غيّرت قصصهن مفهوم شينران للصين إلى الأبد، وسيكشف كتابها عن حياة النساء الصينيات كما لم يفعل أحد من قبل.

ولدت شينران في بيكين عام ١٩٥٨. وانتقلت في العام ١٩٩٧ للعيش في لندن.

ISBN 978-6-14425-796-8
9 786144 257968 >
DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com